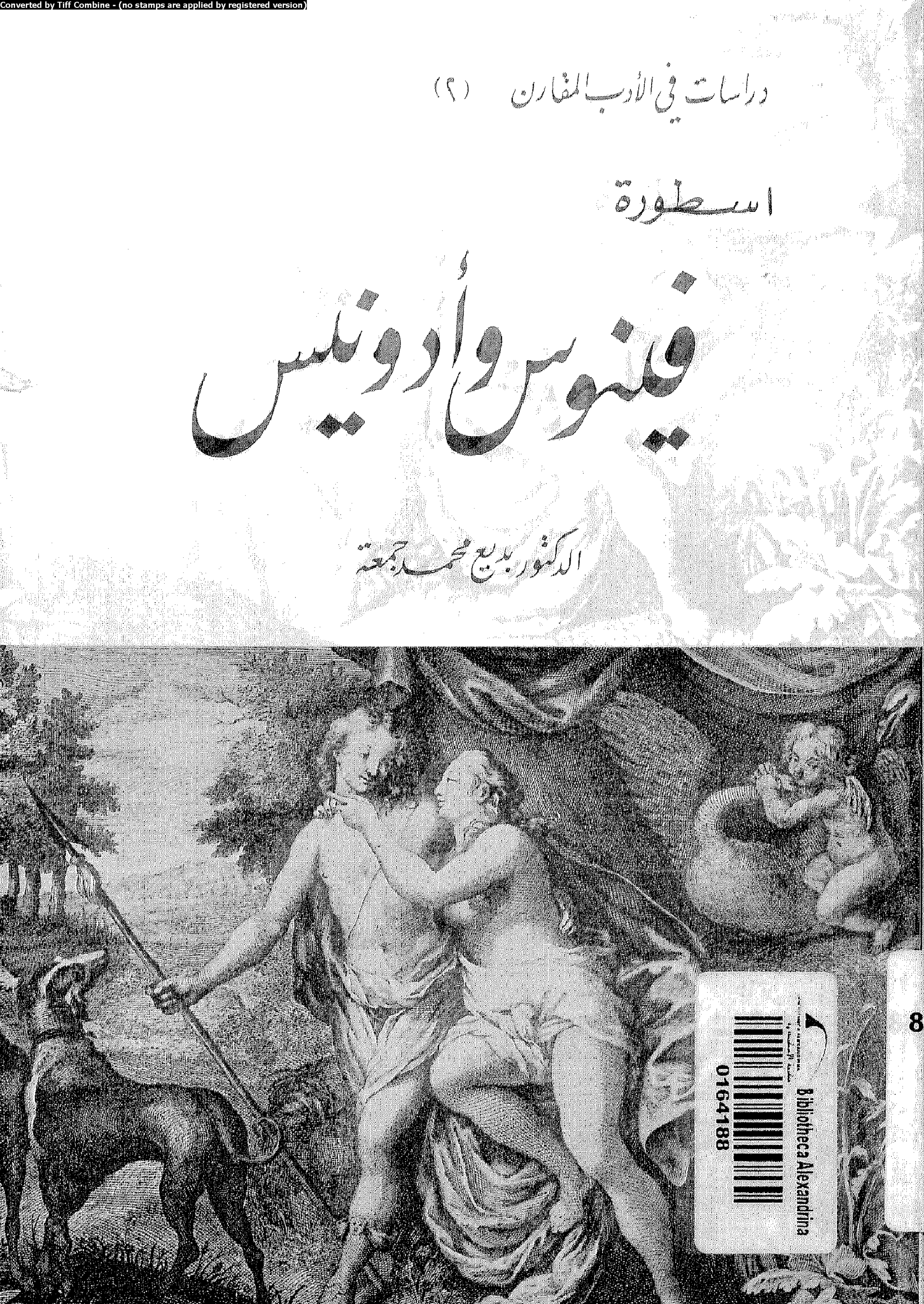

دراسات في الأدب المقارن (٢)
اسطورة
فينوس وأدونيس
الدكتور بديع محمد جمعة
Bibliotheca Alexandrina
0164188



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسطورة

فينوس وادونيس



دراسات في الأدب المقارن (٢)

اسطورة

فينوس وأدونيس

الدكتور بديع محمد جمعة

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

« صورة الغلاف »

مأخوذة عن كتاب مسخ الكائنات

الإهداء

من وحي لبنان كتبته

وإلى كل لبنان أهديه

بديع جمعة
بيروت في ١٩٨١



تقــديم

سطرت في كتابي السابق « من قضايا الشعر الفارسي الحديث » الفقرة التالية ، أثناء حديثي عـن منظومة « زهره ومنوچهر » للشاعر الفارسي ايرج ميرزا ، وذلك بعـد أن أشرت إشارات سريعة إلى صلتها بقصيدة شكسبير « فينوس وأدونيس » :

« إلى غير ذلك من الأفكار والآراء التي أدخلها ايرج ميرزا وزادها على الأسطورة القديمة ، كما رواها شكسبير في قصيدته الرائعة « فينوس وأدونيس » ، وأرجو أن أوفق في القريب في تقديم دراسة مقارنة لهـذه الأسطورة كما وردت في قصيدة شكسبير ، ومسرحية أندري أوبي الفرنسية ومنظومة ايرج الفارسية » [1] .

وكان الأمل يحدوني في القيام بهذه الدراسة المقارنة ، لما تحظى بـه أسطورة « فينوس وأدونيس » من شهرة في الشرق والغرب على السواء ، ولما تتمتع به فينوس على وجه الخصوص من اهتمام بالغ بين الأدباء والفنانين ، وذيوع صيت بين العامة ، فرغبت في التعرف عن قرب على ربة الحب ورمز الدلال ، وما حيك حولها من أساطير ، وبخاصة أسطورتها مع رمز الجمال

(١) قضايا الشعر الفارسي الحديث : المؤلف ، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠ ، ص : ٢٨٢

أدونيس . ولأعرف كذلك هل كان شكسبير أول من تناول هذه الأسطورة في عمل أدبي ، أم سبقه إلى ذلك أدباء آخرون .

وما إن فرغت من كتابي السابق ، حتى بدأت أوجه اهتمامي إلى دراسة هذه الأسطورة ، فرجعت إلى الأعمال الكاملة للشاعر الإنجليزي الكبير وليام شكسبير . وذلك في الأصل الإنجليزي . وقرأت القصيدة ، كما رجعت إلى عدد من الأبحاث الأدبية والعربية التي اهتمت بدراسة هذه القصيدة أو حتى الإشارة إليها ، فوجدت أن شكسبير قد أخذ أصول الأسطورة عن كتاب « أطوار الحب » للشاعر الروماني « أوفيد » . فبحثت عن هذا الكتاب في ترجمته الإنجليزية ، ولكنني فوجئت بأنه تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان « مسخ الكائنات » وقد قام بالترجمة الدكتور ثروت عكاشه ، ونُشر الكتاب بالقاهرة عام ١٩٧١ . وحصلت على نسخة من هذه الترجمة ، وقرأت فيها كل ما يتعلق بفينوس وأدونيس .

وأثناء جمعي لهذه المادة العلمية ، قمت بزيارة لآثار بعلبك بلبنان ، ووجدت بين هذه الآثار معبداً يطلق عليه اسم « معبد فينوس » ، فتساءلت هل يمكن أن يقام لفينوس معبد في لبنان ، وأن يتحدث اللبنانيون جميعاً عن الأسطورة وارتباطها بنهر إبراهيم وغيره من المناطق اللبنانية ولا يوجد بين اللبنانيين من يهتم بنظم الأسطورة ؟ ثم بحثت في دور الكتب . فإذا بي أجد ملحمة شعرية عربية باسم « عشتروت وأدونيس » شعر الدكتور حبيب ثابت ، وقد نشرها في بيروت عام ١٩٤٨ .

وعلى هذا فقد اكتملت لدي خمسة أعمال أدبية لهذه الأسطورة هي :

الأسطورة كما جاءت في مسخ الكائنات للشاعر أوفيد

القصيدة الإنجليزية لشكسبير ، وعنوانها (فينوس وأدونيس) .

المسرحية الفرنسية لأندريه أوبيه ، وعنوانها أيضاً (فينوس وأدونيس)

المنظومة الفارسية لإيرج ميرزا ، وعنوانها (زهره ومنوچهر) .

الملحمة العربية لحبيب ثابت ، وعنوانها (عشتروت وأدونيس) .

وبناء على ذلك ، قسمت البحث إلى خمسة فصول ، عالجت في الفصل الأول التعريف بكل من فينوس وأدونيس ، ثم عرضت الأسطورة كما وردت عند أوفيد ، وبعد ذلك بينت مغزى هذه الأسطورة . أما الفصول الأربعة الباقية فقد خصصت كل فصل لدراسة عمل من الأعمال الأربعة الباقيــة ، حيث قمت بالتعريف بــه ، وأتبعت التعريف بعرض ملخص واف لهذا العمل ، وأخيراً تقديم دراسة مقارنة لكل عمل تبين مدى اتفاقه أو اختلافه في معالجة الأسطورة .

وفي النهاية أرجو أن أكون قد حققت ما رجوته في كتابي السابق ، وأن أكون قد وفقت كذلك في تعريف القارىء العربي ببعض ما كتب عن هذه الأسطورة في الآداب الغربية والشرقية .

والله الموفق

بديع جمعة

بيروت في ٢٢/ ٣/ ١٩٨١



الفصل الأول

فينـــوس وأدونيـــس
في
الأساطـــير القديمـــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فينـــوس

فينوس بين الشرق والغرب :

حفلت معظم أساطير العالم القديم بذكر ربة للجمال والعشق ، يكون من مهامها إشاعة الحب والبشر بين البشر ، حيث ترميهم بسهامها ، فلا فكاك لإنسان من هذه السهام ، وقد حظيت هذه الإلهة باسم خاص في كل حضارة ، ففي حضارة الهند اسمها « مايادیها فاني » وفي حضارة الفرس « ناهيد » أو « أناهيتا » [1] ، ولدى الكنعانيين «عشتار» ، ولدى الفينيقيين «عشتروت»ولدى الآشوريين «أنايتيس»،وفي اليونان اسمها « أفروديت» ، وفي بلادالرومان «فينوس»،بينما اصطلح العرب على تسميتها «الزهرة» [2] .

وهكذا كانت ربة العشق والجمال والفتنة والصبا ذات شأن كبير في فكر ووجدان معظم الأمم ذات الحضارات العريقة والقديمة ، وقد كمن وراء اختلاف أسمائها ، تنازع بين الحضارات القديمة على امتلاك هذه الإلهة وما حيك حولها من أساطير وحكايات فولكلورية ، فمن قائل بأنها شرقية الأصل ، ومن قائل بأنها غربية المحتد .

---

(١) لغت نامه : مادة « ناهيد » و « ونوس » و « زهره »

(٢) دائرة معارف البستاني : ج ٣ ، ص ٢٨٤، ٢٨٨ طبع تهران ، وقد ورد في لغت نامه أن العرب ينطقونها زهرة بفتح الهاء ، بينما ينطقها الفرس « زهره» بسكون الهاء : انظر لغت نامه مادة (زهره) .

ومن الذين يؤكدون شرقيتها الدكتور حبيب ثابت الذي كتب ملحمة شعرية يروي فيها قصتها مع عشيقها أدونيس ، وبدافع من إيمانه بشرقيتها آثر أن يطلق عليها اسمها الفينيقي « عشتروت » وقد قال :

اسم عشتروت فيه إشراق ، وفيه سحر ورنين بعيد ، حلو المواقع وهي في الأصل « إلهة كنعانية » ، تسربت عبادتها إلى العبرانيين ، فعرضت التوراة لذكرها في مواضع شتى [1] .

ويقول باحث آخر بأن ربة الجمال كانت فينيقية اسمها عشتروت ، وأنها كانت تلقب بثلاثمائة لقب ، ومن بين هذه الألقاب اسم « بيروت » الذي أُطلق فيما بعد على العاصمة اللبنانية ، حيث كانت مركزاً هاماً لتألية هذه الإلهة التي اتخذت رمزاً للبحر . [2]

وورد في الخطط المقريزية [3] أنه « قد بُني بيت للزهرة في منف ، وذلك على عهد تدراس بن صا ، أحد ملوك مصر الأقدمين ، فقال : إنه

---

(١) حبيب ثابت : عشتروت وأدونيس ، ملحمة شعرية ، ص ٩، بيروت ١٩٤٨
ومما جاء في التوراة عن عشتروت ما يلي :
أ – سفر القضاة : الإصحاح الثاني ، العدد ١٢ ، ١٣ : «وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر ، وتبعوا آلهة أخر من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأسخطوا الرب ، وتركوا الرب ، وعبدوا البعل والعشتاروت » .
ب – الإصحاح الثالث ، العدد ٧ : « وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ، ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والعشتاروت » .
جـ – الملوك الثالث : الإصحاح الحادي عشر ، العدد ٤–٥ : « وكان في زمن شيخوخة سليمان أن أزواجه ملن بقلبه إلى اتباع آلهة غريبة ، فلم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه كما كان قلب داود أبيه ، وتبع سليمان عشتاروت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس بني عمون » .
(٢) شوقي عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربي ، ج ١ ، ص : ٧٠ ، القاهرة ١٩٧٤
(٣) المقريزي : الخطط المقريزية ، جـ ١ ص٢٤٥ ، مكتبة إحياء العلوم ، لبنان ، وحبيب ثابت : ص : ١٨ .

بنى في غربي مدينة « منف » بيتاً عظيماً للزهرة ، وأقام فيه صنماً عظيماً من لازورد مذهب ، وتوّجه بذهب يلوح بزرقه ، وسوّره بسوارين من زبرجد أخضر . وكان الصنم في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبرٍ ، وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب ، تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من في الهيكل ، وجعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب ، موشح بحجر اللازورد ، ووجه البقرة تجاه وجه الزهرة ، وبينهما مطهرة من أخلاط الأجساد على عامود رخام مجزع ؛ وفي المطهرة ماء مدبّر يستشفى به من كل داء ... »

ولم يقف الأمر عند الفينيقيين في صيدا أو المصريين في منف ، بل ذكر البعض بأنها كانت تُعبد في الجزيرة العربية ، وأنَّ صنم العزّى الذي كان يعبد في الكعبة هو صنمها .

كما ادعى البعض بأن الزهرة كانت فتاة من أهل فارس ، وأنها كانت ملكة في بلدها ، وكانت غاية في الجمال والبهاء ، وقد تجلت لهاروت وماروت ؛ حيث كانا في عبادتهما على الأرض يبغيان الابتعاد عن المعاصي ، فلما رأياها افتتنا بها ، وشغفا بحبها ، فكلماها وراوداها ، فأبت وانصرفت ثم عادت في اليوم التالي فراوداها ، فقالت : لا ، لا ، إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا للأصنام ، وتقتلا النفس وتشربا الخمر ، فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء ، فقد نهانا الله عنها ، فانصرفت وعادت في اليوم الثالث ومعها قدح خمر ، فلما راوداها ، عرضت عليهما ما عرضت بالأمس ، فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس عظيم ايضا ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربا وسكرا وقعدا معها ، فرآهما أحد البشر ، فخافا من الفضيحة فقتلاه ثم سجدا للصنم ، فمسخ الله الزهرة كوكباً لأنها خدعتهما بخبث طبعها وفتنتهما برونق جمالها . [1]

---

(١) دائرة معارف البستاني ، ج ٩ ص ٢٨٤ – ٢٨٨

وهكذا تدل هذه الأقوال وتلك الآراء على أن ربة العشق والجمال والتي كانت تسمى الزهرة أو عشتروت ، أو فينوس (كما جاء اسمها لدى المقريزي) ، كانت إلهة شرقية ، انتشرت عبادتها في معظم بلدان الشرق القديم من الهند شرقاً وحتى ليبيا غرباً حيث قال البعض بأن الفينيقيين قد نقلوا عبادتها إلى ليبيا عندما أقاموا بها وحكموها .

وفي مقابل هذه الآراء ، هناك من يقولون بأنها كانت إلهة غربية المولد والمنشأ ، فقد ورد في الإلياذة لهوميروس بأن ربة الجمال وتدعى أفروديت (أو فينوس) هي ابنة زيوس كبير الآلهة والذي كان يقيم أعلى جبال الأوليمب . كما جاء في الإلياذة أيضاً أنها إلهة طروادية حاربت مع الطرواد وحاولت نصرهم على أعدائهم من الإغريق .

«وأريس» رب القونس القلق	أم الطرواد بادي الحنــق
مع «أرطميس» في كنــانتها	مع «عفروديت» المبسم الطلق
وكذلك «لاطونا» و«زفث» جرى	من ضفتيــه جري مندفق
وكذاك «فيبوس» من انسدلت	تزهو غدائره لكل مدى[1]

وجاء في الإنيادة لفرجيل كذلك ، أن فينوس كانت تساند الطرواديين وتحاول دفع الأذى عنهم ودرء المخاطر عن جيوشهم ، فقد قال جوبيتر مخاطباً جونو : أختاه ، يا من أنت في الوقت نفسه زوجتي العزيزة ، إن

---

(١) هوميروس : الإلياذة ترجمة سليمان البستاني ، ص ٩٦٣ ، القاهرة ١٩٠٤ ، وهذه الأسماء التي وردت بالأبيات ، أسماء الآلهة التي وقفت تحارب في صف الطرواديين حيث قسم هوميروس الآلهة إلى جناحين ، جناح يؤازر طروادة ، وآخر يناصر الإغريق ، والجناح الأخير يتكون من : هيرا ، وأثينا ، وفوسيذ ، وهرمس ، وهيفست (انظـر حواشي ص ٩٦١ ، ٩٦٢ من نفس المرجع) .

فينوس كما ترددين – ولن يقودك رأيك الى الضلال – هـي التي تعضد قوات الطروادييين ... » [1]



هكذا اختلف مُحبوها في تحديد موطنها الأصلي ، فأهل الشرق قالوا بأنها نبتت في أرض الشرق موطن العبادات ومهبط الديانات ومرتع الأساطير. وأهل الغرب نازعوا أهل الشرق في ملكيتها، وقالوا بأنها ولدت فوق جبل الأوليمب، وشاركت في الحروب التي دارت رحاها بين الإغريق والطرواد. وفي رأيي أن قِدم الحضارات الشرقية عن الحضارات الغربية يثبت شرقية ربة العشق والجمال ، ولا غرابة في ذلك ، فقد عرف الشرق العديدات من الإلهات كإيزيس في مصر ، واللات والعزّى في جزيرة العرب، وأشطار لدى الأشوريين ، فلا غرابة في أن تكون ربة العشق وإلهة الجمال قد وجدت في الشرق كذلك، حيث عرفت بأسماء عدة (عشتار، عشتروت، الزهرة ...) في أقطار الشرق المختلفة . وبعد أن ازدهرت التجارة الفينيقية وربطت بين الشرق والغرب ، انتقلت عبادة هذه الإلهة مع التجار إلى قبرص حيث استقرت هناك فترة فشيدوا لها قصراً ومعبداً بمدينة بافوس [2] ، ومن هناك

---

(١) فيرجيل : الإنيادة : حـ ٢ ص ٢٠٩ (الكتاب العاشر) ترجمة عبد المعطي شعراوي وآخرين ، القاهرة : ١٩٧٧

(٢) ورد في الإنيادة لفرجيل ، أن فينوس بعد أن التقت بابنها آينياس ورفيقه على حدود المملكة البونية ، وقدمت لهما الحماية حتّى يصلا إلى غايتهما ، رجعت قافلة إلى بافوس : « أما فينوس فقد دثرتهما وهما يتقدمان بنسيم غائم ، وطوقتهما بعباءة كثيفة من السحاب كي لا يستطيع أحد أن يلمحهما ، أو يلمسهما ، أو يعوقهما ، أو يتبين أسباب مجيئهما ، بينما اتجهت هي إلى بافوس عبر طرق سماوية سامية ، فزارت مقامها من جديد تخامرها البهجة هناك حيث معبدها بمذابحه المائة ، تفوح بالبخور السبئي ، عبقة بأكاليل فاخرة » .

الإنيادة جـ ١ ص : ٩٦

وورد في مسخ الكائنات لأوفيد أن المدينة عرفت باسم بافوس على اسم ابن بيجمالون=

انتقلت إلى جزيرتي مالطة وكريت ، ومنهما انتقلت إلى اليونان والرومان حيث أطلقوا عليها أسماء جديدةفعرفت بفينوس في بلاد الرومان، وبأفروديت في بلاد اليونان ، ثم شاركتهم في أحداثهم الجسام كحرب طروادة وغيرها .

وعلى كل حال ، فسواء أكانت ربة العشق والجمال شرقية أم غربية ، فقد حظيت بنفس الحظوة والإجلال في الشرق والغرب على السواء ، وكانت أسطورتها وحكاياتها مبعث إلهام لعدد كبير من الأدباء في الغرب والشرق ، وإن بزّ أدباء الغرب أترابهم الشرقيين في هذا المضمار ، ولذلك حظي اسم «فينوس» بالشهرة والذيوع أكثر من أي اسم شرقي عرفت به ربة العشق والدلال ، ولهذا فقد آثرت اختياره عنواناً لهـذه الدراسة المقارنة ، وسأُغلّب ذكره على ما عداه من أسماء عرفت به هذه الإلهة العاشقة اللعوب .



= من عروسه التي كانت تمثالا من العاج أحالته فنوس إلى عروس تدب فيها الحياة (انظر مسخ الكائنات ، ص : ٢٩٠)

وتقع بافوس في الطرف الجنوبي الغربي من جزيرة قبرص وما من شك – كما يقول جيمس فريزر – فى أن بافوس كانت من أرقى الدويلات التي كانت الجزيرة تتألف منها حتى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وأراضيها كلها تلال وهضاب ضيقة تتخللها الحقول والكروم ، وتخترقها أنهار حفرت لنفسها على مر الزمن مجاري بعيدة العمق . وكان هيكل فينوس (أفروديت) في بافوس القديمة (واسمها اليوم كوكليا) من أشهر معابد الزمن القديم وأبعدها صيتاً . وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت بأن منشئي هذا المعبد كانوا مستعمرين فينيقيين جاءوا من عسقلان .

انظر جيمس فريزر : أدونيس أو تموز ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص ٤٠ ، ٤١ ط ٢ بيروت ١٩٧٩

حياة فينوس :

حرصت الأساطير القديمة على أن تخلع على الآلهة خلعة بشرية ، وبهذا يتصرف الآلهة كما يتصرف الإنسان، حيث تكون لهم خصوماتهم ومناقشاتهم ومعاركهم . ويتسم كل واحد منهم بسمات أخلاقية تميزه عن سائر الآلهة فهذا إله الحرب وذاك إله الحكمة ، وتلك إلهة الحب ... ، وهكذا جسّد الأولون الآلهة وجعلوهم إناثاً وذكوراً ، وما دام الإله قد لبس خلعة بشرية ، فله مولد وصبا وفتوة وكهولة وربما موت واندثار .

كل ذلك ينطبق على ربة العشق والغرام فينوس ، فقد تحدثت الأساطير عن ولادتها من زبد الماء : « تعالوا يا أعزائي المحبين نسمع أغنية الجمال والحب ، من ربة الجمال والحب ، بارزة من الثبج ، فوق الموجة الكبيرة وسط اليم .

برزت عرائس البحار يصلين في بكرة الصباح لأبوللو ، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني ، فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين ، متمتماً بصلاة الحب لربة الحب ، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال » . [1]

و أنصار شرقية ربة العشق ذكروا أن ولادتها كانت على شواطىء فينيقيا الهائئة ، ثم حوتها صدفة كريمة كانت لها زورقاً دفعته النسمات إلى شطآن جزيرة قبرص ومنها امتد ملكها صوب الغرب [2] .

وبعد أن بلغت فينوس مرحلة الصبا توافد الخطاب من الآلهة للظفر

---

(١) دريني خشبة : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، كتاب الهلال . القاهرة، ص ١٧٦ — ١٨٦

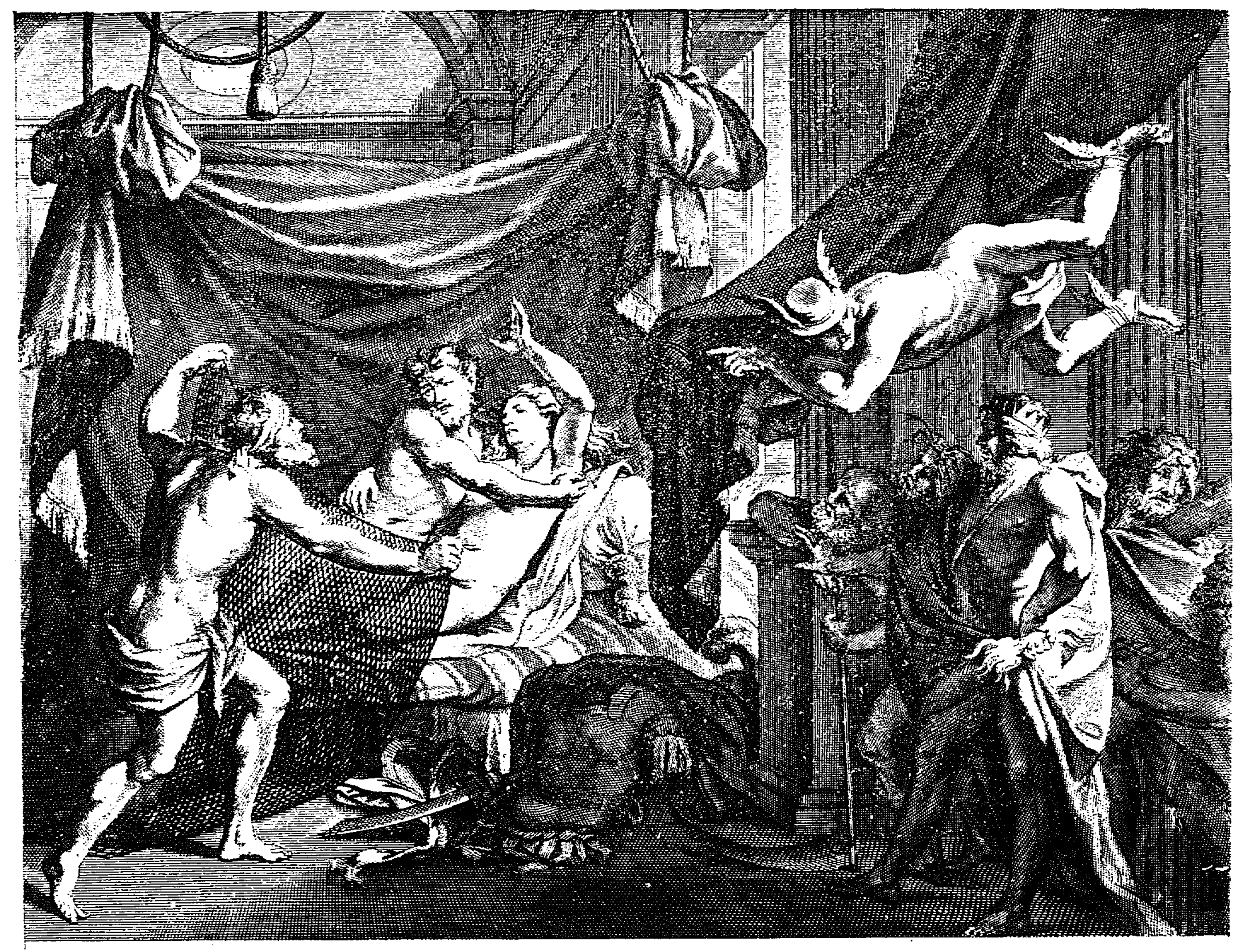
(٢) حبيب ثابت : عشتروت وأدونيس ، ملحمة شعرية ، ص : ١١

بخطبتها ، وكسب ودها . ولكنها رفضتهم جميعاً ، مما أوغر صدور الآلهة ضدها ، وزاد من حنقهم عليها ، فرفعوا شكايتهم إلى رب الأرباب ، فإذا به غضب هو الآخر من مسلكها ، وعدم احترامها لخطابها من الآلهة فحكم عليها أن تتزوج من حداد دميم الخلقة ، غليظ الطباع ، ويدعى فولكان ، ولعل هذا الزواج يردعها ، فتخفف من غلوائها ، وتقلل من كبريائها ، كما كان هذا الزواج ترضية لفولكان بعد أن خلقه رب الأرباب على هذه الشناعة والتشوه ، فأراد رب الأرباب أن يعزيه بأن أعطاه أجمل النساء. غير أن الطبيعة — كما يقول البستاني — تأبى أن يتبادل الحب بين أجمل المخلوقات وأقبحها ، ولهذا نجدها تتمرد على هذه الزيجة ، ولا تقنع بأن تكون زوجة وفية لزوج فُرض عليها فرضاً ، دون أن تجمعهما عاطفة من حب ، لذا نراها تبحث عن عشيق تبادله حباً بحب ، وتمارس معه الهوى. فوقع اختيارها على مارس إله الحرب ، فكانا يلتقيان بعيداً عن الأنظار ، وفي غفلة من زوجها ، إلى أن وقعت الواقعة وانكشف سرهما ، ونُقل خبر خيانتها إلى زوجها . وقد جاءت أخبار هذه الخيانة في كتاب أوفيد « مسخ الكائنات » ، ومما جاء فيه : [1]

« كان رب الشمس أول من شهد خيانة فينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذي يرى كل شيء قبل غيره ، وكان قد حنق على فينوس لسلوكها فأنهى إلى زوجها « فولكانوس » نبأ هذا الاعتداء على حرمة فراشه ، والمأوى الذي التجأ إليه العاشقان ، فطار صواب فولكانوس ، وسقط من يديه الحديد الذي كان يقوم بتشكيله ، غير أنه بدأ لساعته في صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين ، أدق من أدق

---

(١) أوفيد : مسخ الكائنات (وهو الكتاب المعروف باسم أطوار الحب) ترجمة: ثروت عكاشة ص ١٤١ — ١٤٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ القاهرة



٤ ـ ضبط ڤينوس ومارس متلبسين على فراش الهوى

« نقلا عن كتاب مسخ الكائنات »



الأسلاك ، ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، ثم جعلها رهيفة حساسة تهتز لأخف لمسة وأبسط حركة ، ونصبها بمهارة حول الفراش ، فلم تكد زوجته وعشيقها يدلفان إلى الفراش ، حتى أطبق عليهما هذا الفخ الذي ابتكره الزوج ونصبه بحذق وبراعة،وأوثقهما معاً وهما متعانقان — وسرعان ما فتح فولكانوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد فينوس بين أحضان مارس ، ورآها الآلهة في هذه الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها . ولقد تمنى أحدهم لو كانت له هذه المتعة لقاء هذا الثمن ، وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة مثار تندر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك ... »

وبعد أن شهّر فولكان الحداد بهذه الزوجة الخائنة ، وبتلك الإلهة المتكبرة ، فك وثاقها ووثاق عشيقها ، لكي تضرب في الأرض بعيداً عنه.

بعد أن سقطت كل الأقنعة عن وجه فينوس،لم تعد تخشى الفضيحة لأنها تعيش فيها ، ولم تعد تقيم وزناً لهمسات الآلهة وتندرهم ، لأنها سقطت من أعينهم ، وعلى هذا فقد اتخذت العهر طريقاً ، والعشق سبيلاً ، والحب الآثم مسلكاً ، فعلت ذلك مع الآلهة وكذا البشر ، وقد حظي بها من الآلهة كلٌ من باخوس وعطارد والمريخ ، وأحبّت من البشر أنخيس على جبل ايدا ، وبونيس ، ثم سينيراس والد أدونيس ، وأخيراً أدونيس الذي يعد أشهر من تعلقت به وعشقته .

وتقول الأساطير إن فينوس كانت تلبس نطاقاً تعلق اللذات بأكنافه، فإن أرادت أن توقع أحداً في غرامها ظهرت أمامه بهذا النطاق ، فإذا به مستسلم لسهام عشقها . ولم تكن فينوس تكتفي بهذا ، وتقصر لبس النطاق على ذاتها ، بل إنها كانت تلبسه إلى أي إلهة أو فتاة تلجأ إليها طالبة العون منها للظفر بمن تحب ، فقد لجأت هيرا ذات مرة إلى فينوس كي

تساعدها في قهر الإله المتكبر زفس والظفر بحبه ، فسارعت فينوس إلى مساعدتها ، وألبستها ذلك النطاق ، فلم يستطع زفس الفكاك من حب هيرا أو التعالي عليها :

فأجابتها ببشر وابتسام ... أوَ مثلي لا يلبي ذا المرام
كيف لا يا ربةً زفسٌ لها ... بسطَ الذّرعين مفتوناً وهام
ثم حلت على الصدر النطاق ... معلَم الطرز موشّى باتساق
تعلــق اللذات في أكنافــه ... من هوى نفس ووجد واشتياق[1]

ولم تكتف فينوس بأن تعشق وتمارس الهوى ، وتساعد من يلوذ بها من المحبين والعاشقين ، بل إنها اتخذت العشق وسيلة لقهر أعدائها والتغلب على من يقف في طريقها من آلهة وبشر ، وفي هذا المجال لا يمكن أن تنسى فينوس من أفشى حبها ، إنه إله الشمس الذي أخبر زوجها فولكان بما تقترفه من حب محرم مع مارس ، فعقدت العزم على أن تجعل رب الشمس يشرب من نفس الكأس التي شربت منها ، كأس العشق المحرم والحب الآثم ، فرمته بسهامها ، فإذا به يقع في حب «ليوكوثوي» وينفضح أمره ، كما فضح أمر فينوس من قبل ، وقد جاء خبر هذه المكيدة في كتاب مسخ الكائنات ، حيث كتب أوفيد ما ترجمته :

« لم تنس فينوس هذه المكيدة لمن أفشى سر حبها ، وحطم غرامها المستور ، واعتزمت عقابه بإيقاعه في فضيحة غرامية تشبهها . فيم يفيدك الآن جمالك ورونقك وضوؤك المشع يا رب الشمس ، يا ابن هيبريون ؟ ها أنت يا من تتوهج الأرض كلها بلهيبك تلتهب اليوم بنار جديدة ، ها أنت يا من ترى كل شيء في الكون في نفس اللحظة ، قد تعلقت

---

(١) الإلياذة (النشيد الرابع عشر) ترجمة سليمان البستاني ص : ٧٥٢ .

أنظارك بليوكوثوي وحدها في حين أن نظراتك من حق العالم كله ...

أخيراً تخفى إله الشمس في صورة والدة الفتاة ، وذهب إليها متخفياً ثم طلب من خادمتها ترك الحجرة ، لأن الأم تريد أن تتحدث حديثاً خاصاً مع ابنتها ، ولما خلت الحجرة إلا من إله الشمس المتنكر وحبيبته ، حتى أفصح عن هويته وصرح بحبه ، كل هذا والفتاة في ذهول وحيرة ، وإذا به يعانقها دون أن تنبس بأية شكوى ...

وهنا ثارت ثائرة الإلهة زوجته – وتدعى كلينيه ، وكانت تراقبه – ودفعها حنقها على منافستها إلى إشاعة خبر هذه العلاقة الآثمة في كل مكان .

وهكذا انتقمت فينوس لنفسها وفضحت إله الشمس في قصة حب شائنة كذلك » . [1]

ولم يقف انتقام فينوس على التشهير بمن أفشى حبها وحده ، بل إنها أرادت أن يكون حقدها عاماً وشاملاً ، ويتلظى بناره الآلهة والبشر على السواء ، فإذا بها تغري باريس ابن ملك طروادة لكي يوقع هيلينا الإغريقية في هواه ، ويخطفها من زوجها ، فتشتعل نار الحرب بين الطرواد والإغريق وتشارك الآلهة في هذه الحرب ، وينقسمون على أنفسهم ، جماعة في جانب الإغريق ، وجماعة في جانب الطرواد . وهكذا تثور الحرب بين البشر والآلهة على السواء ، وتكون فينوس هي المخططة لها والمزكية لأوارها ، ولكن كيف تم ذلك ؟

التقت فينوس بباريس ابن مريام ملك طروادة ، وكان باريس يعيش بعيداً عن أبويه ، فأقنعته فينوس بضرورة العودة إلى طروادة حيث ينتظره

---

(١) أوفيد : مسخ الكائنات ، الكتاب الرابع ، ص ١٤١ – ١٤٤

أبوه وتتلهف أمه على رؤيته ،وبعد أن يستقر فترة بينهما يذهب إلى اسبرطة حيث يظفر بأجمل امرأة في الوجود،إنها هيلين زوجة مانيلا الإسبرطي ، ومما قالته فينوس لباريس في هذا المضمار . :

« لا تنس يا باريس أنك في حضرة فينوس ، أقولها لك مرة أخرى إن الآلهة لا تكذب ... أجل أنت ابن بريام ملك طروادة ... والآن لقد وعدتك زوجة جميلة ، أجمل امرأة في العالم ... اذهب أولاً إلى طروادة والق أباك ... سيفرح بك بريام يا باريس ، وسيخفق قلب هكيوبا أمك التي تبكي من أجلك ، وتتمناك بنصف ملكها ، فإذا اطمأنوا إليك ، ولبثت فيهم أياماً ، فأبد لهم رغبتك في الإبحار إلى بلاد الإغريق في أسطول كبير ... إلى اسبرطة ... إن هناك المرأة التي وعدتك ... أجمل نساء العالم ... » (1)

عاد باريس إلى أبويه واستقر هناك فترة من الزمن ، سافر بعدها إلى اسبرطة حيث نزل ضيفاً على مليكها ، ولكنه لم يرع حق الضيافة وقام بغواية زوجته هيلين (هيلانة) ، وعاد بها إلى طروادة ، فحاول مانيلا استرجاع زوجه ، ولكن الطرواد رفضوا إرجاعها حتى لا يحطموا قلب أميرهم الماجن باريس ، فلجأ مانيلا إلى أخيه الأكبر وبطل اسبرطة القوي أجامنون الذي استنفر بدوره جميع أمراء الإغريق ، وأعدوا العدة لمحاربة الطرواد واسترجاع هيلين وتأديب باريس الذي لم يرع الأمانة ، ولم يحترم حرمة مضيفه . فثارت الحرب بين الطرفين واستمرت عشر سنوات كما جاء في الإلياذة لهوميروس.وإن لم تتحدث الإلياذة إلاعن بعض الحوادث التي وقعت في أيام قليلة من عامها العاشر فقط (2) .

---

(1) الإلياذة ، ترجمة دريني خشبة ، ص ١٨

(2) مقدمة ترجمة الإلياذة ، لعنبرة سلام الخالدي ص : ٩ ، ص ٢٥ دار العلم للملايين ، بيروت : ١٩٧٤ .

ولم تكتف فينوس بإشعال الحرب والوقوف بعيداً عن ساحتها ، بل انضمت إلى معسكر الطرواد تشجعهم ، وتشد من أزرهم ، وتدفع عنهم الهزيمة ، وتحمي جنودهم كما فعلت مع باريس عندما أوشك مانيلا على النيل منه والفتك بها ، فإذا به تتقدم وتخطفه من أرض المعركة ، وتطير به إلى حيث توجد هيلين ، فتجمع شمل العاشقين الآثمين وتخفف من وقع الهزيمة على قلبيهما ، وتزكي نار الحب في فؤاديهما ، وقد صور هوميروس هذا الموقف ، فقال :

قد كاد يبطش فيه لو لم يبتدر ... قبريس تقطع بالخفا قداته [1]

فخلت لديه خوذة مقطوعة ... فرمى بها فتدحرجت لسراته

فخلا بها أصحابه وهو انثنى ... بشحيذ نيزكه إلى وثباته

لكن عفروذيت وهي قديرة ... من فورها وصلت حبال حياته

حجبته في ركم الضباب مُحلّة ... إياه بالأطياب في حجراته

ومضت إلى هيلانة فإذا بها ... بالبرج جالسة على شرفاته

فدنت إليها والبنات شواخص ... في زي خادمة على علاته

وبثوبها العطري جرتها وقد ... صاحت بها: فاريس في خلواته

يدعوك وهو تَزَيَّنه في غرفة ... ضمتكما ببديع حسن صفاته

حتى تخالي أنه ما كان في ... حرب بها يلقى أشد عُداته

لكنه في مرقص متأهب ... للرقص أو قد عاد من ساحاته

.....

إثرها صامتةً سارت وقد ... حجبتها بكثيف السحب

جاءتا فاريس في منزله ... والجواري بانتظار الطلب

---

(١) قبريس : هي فينوس ، ومعنى البيت أنها قطعت السير الممسك بالخوذة تحت الذقن لتنقذه ، بعد أن كان مانيلا يجذبه من هذه الخوذة وكاد يفتك به خنقاً .

سِرْنَ عنه وأُسيرت نحوه وهو في الغرفة ماضي اللّغب
أجلستها ربّةُ العشق عــلى مجلس دانٍ له مقترب[1]

ولم ترض فينوس بهزيمة باريس ، وما ستؤدي له هذه الهزيمة من عودة هيلين إلى زوجها الإسبرطي ، مما يظهــر فينوس وكأنها هي التي هُزمت ، فإذا بها تلجأ إلى سحر دلالها مــرة أخرى وتلوذ بمارس إله الحرب كي ينصر الطرواد على الإغريق إذا أمكــن ذلك ، أو لتستعر الحرب أكثر وأكثر ، ويزيد ضحاياها ، وترقص هي على دقّات طبولها، فقد جاء في الإلياذة :

« ... عز على فينوس أن ينهزم جند طروادة ، وهم أولياؤهــا وصنائعها ، فذكرت أن لها في أرباب الأولمب إلهاً هيماناً يترضاها ، ويلتمس كلمة منها تشفي قلبه الخفق ، وتداوي هواه الثائر ، وأعصابه التي مزقها الحب ، وأذابها حر الهوى ، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد ، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر ، فيقوم من فوره لينفخ من روحه في قلوب الطرواديين ويؤيد بنصره صفوفهم .

ذلك هو مارس [2] ، مسعّر الحروب وموري لظاها .

وطرب الطرواديون لوجود رب القتال إلى صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضراماً ، ويصلصل دروعه فيوقع في قلوبهم الرعب ويثير في نفوسهم الهلع ، ويروعهم ترويعاً ...

وكانت إلى جانبه فينوس تنفث فيه سحرها ، فكان لا يلقى فارساً

---

(١) الإلياذة ، النشيد الثالث ، ترجمة سليمان البستاني ، ص ٣٤٠ – ٣٤٤

(٢) لعلنا نتذكر أن مارس هذا هو الذي عشقته فينوس أثناء زواجها بفولكان

إلا طعنه ، فيُكبّه على وجهه ، ثم يشكه فيجفوه من الأرض ، كأنما يتخذ منه هزواً وسخرياً ... » [1]

وهكذا استخدمت فينوس سلاح عشقها ومجن دلالها في إذكاء نار الحرب من جديد ، وكأنها أرادت ألا ينطفىء أوارها، وألا يخبو لهيبها ، مواصلة الانتقام من الآلهة والبشر بعد أن فضحت في عشقها ، فرغبت في أن يظل هذا العشق ناراً يكتوي بها جميع مَنْ في الأرض والسماء على حد سواء ...

ومن الشائع عن فينوس أنها كانت تصطحب معها دائماً ملاكاً — وتقول بعض الأساطير إنه ابنها — يدعى كيوبيد ، يحمل معه على الدوام جعبة مليئة بالسهام ، فإذا رشق بواحد منها أي إنسان ، سرعان ما يقع أسير الحب والهوى ، ولم يفلح أحد من البشر أو الآلهة في النجاة من هذه السهام ، وقد ورد في الإنيادة ما يفيد ذلك حيث قالت فينوس موجهة حديثها لكيوبيد إله الحب :

« ولدي ! أنت وحدك قوتي ، أنت وحدك قدرتي الفائقة ... إليك ألتجىء ضارعة ... إن أخاك آينياس قد دار به البحر يلقيه على كل شاطىء بسبب كراهية جونو القاسية ... إن ديدو الفينيقية تستبقيه ، وتمهله بألفاظ عذبة ، وإني لأخشى عاقبة ذلك الكرم الجوني ، فإن جونو لا تقف مكتوفة اليدين عندما تتحول الأمور ، ولذلك فإني أفكر في أن أهزمها بالخديعة ، وأن أحاصر الملكة بلهيب الحب ، كي لا تستطيع أية

---

(١) الإلياذة ، ترجمة دريني خشبة ، ص ٧١ ، ٧٢ .

قوة مقدسة أن تبدل مشاعرها ، ولكنها عن طريقي سوف ترتبط مع آينياس بحب عظيم ... [1]

وأخيراً تكلف فينيوس كيوبيد بإصابة ديدو بسهام عشقه . وذلك بأن أمرته بالسفر إليها والتخفي في صورة آينياس حتى تقبل عليه، فيرشقها بسهام الحب ، وبهذه الطريقة يتم المهمة، ويوقع بها في حب جارف لا تستطيع منه فكاكاً .

★ ★ ★

وكما اهتم واضعو الأساطير بفينوس ، وأطلقوا لأفكارهم العنان في التحدث عن عهرها ودلالها ، اهتم أيضاً الرسامون والنحاتون في مختلف البلدان وعلى مر العصور بتشخيص فينوس ، لذا وجدت تماثيل كثيرة لربة العشق ، على أن كل أمة من الأمم الغابرة كانت تشخصها على النحو الذي يوافقها . فكان أهل « ايس » يشخصونها واقفة على عنز وإحدى رجليها على ظهر سلحفاة ، ويشخصها أهل اسبرطة مسلحة مثل «منيرفا» ، وتمثل في أولمبيا خارجة من الماء وحولها معبودات العشق مكللة بالأكاليل، وفي « سيكونية » حاملة بإحدى يديها زهرة خشخاش وبالأخرى تفاحة ، وعلى رأسها إكليل من زهر الخشخاش ، وكانت تمثل غالباً وهي جالسة مع كيوبيد على مركبة يطير بها الحمام أو البجع أو العصافير ، ومنظرها من أجمل وأبهى المناظر المبرزة للجمال . [2]



(١) الإنيادة جـ ١ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، وليست تعني فينوس بالكرم الجوني بأن جونو كريمة مع آينياس ، بل إنه كرم مفتعل المقصود منه الانتقام ، وجونو هذه هي زوجة جوبيتر رب الأرباب في الأساطير الرومانية .

(٢) حبيب ثابت : عشتروت وأدونيس ، ملحمة شعرية هي ١٧ ، ١٨ .

هذه فينوس ربة الجمال والدلال ، رمز الفتنة والعهر ، محركة اللذات وموقدة نار العشاق . ولكن إلى جانب هذه السمات المتعارف عليها بين الجميع ، والتي طالما تحدث عنها الشعراء والرواة ، وعبر عنها الفنانسون والنحاتون في رسومهم وتماثيلهم ، فإن سيرة حياتها ، والأقوال المتواترة عنها ، تضيف إلى هذه الرموز رموزاً أخرى بالنسبة لشخصيتها ، منها :

فينوس رمز البحر : حرص الفينيقيون على القول بأن فينوس قد برزت إلى الوجود من زبد الماء على السواحل المتاخمة لأراضي لبنان الحالية ، وهذا يعني في رأيهم أنها إلهة بحرية ، ولعل ولوع الفينيقيين بركوب البحر والتجارة عبر البحار إلى كل البلاد المعروفة لديهم في هذا الوقت السحيق ، جعلهم يتخذون من ربة الجمال رمزاً للبحر ، وكأنهم يلتمسون منها العون والمساعدة ضد مخاطر البحار ، وحتى ترعى سفنهم وبحارتهم منذ خروجهم من الأراضي الفينيقية وحتى عودتهم إليها مرة أخرى ، وقد حققوا مكاسب تجارية طائلة وعادوا سالمين جميعاً دون أن يموت أحدهم في أية رحلة .

فينوس رمز الخصوبة والإنجاب : من يطالع الصورة التي صوّر بها المقريزي فينوس ، يدرك أن المصريين كانوا يتصورون فينوس امرأة منجبة ولودة ، وقد رمزوا لذلك عندما صوروها امرأة ترتدي حذاءً به تمثال بقرة ذات ضرعين كبيرين ، وهذان الضرعان رمز الخصوبة والإنجاب . وقد وافق هذا الرمز رأي اليونانيين والرومان فيها ، فهم يعتبرونها الإلهة الأم التي تحتضن كل عاشق وعاشقة كي يمارسا الحب ، أملاً في استمرار الإنجاب وبذلك يستمر الوجود والحياة . وليس عهرها رغبة في العهر نفسه وإنما الهدف منه تحريك الشهوة لدى الجنسين وإذكاء نار اللذة حتى تواصل البشرية — وكذلك كل ما في الوجود من حيوان ونبات — التزاوج والتناسل ، وبالتالي يستمر الوجود وتواصل الحياة مسيرتها .

فينوس رمز الحقد والثأر : لقد حرصت فينوس بعد أن افتضح أمرها مع مارس إله الحب ، على أن تنتقم ممن شهّر بها ، وأشاع قصة عشقها ، وذلك عندما أخبر إله الشمس زوجها بأنها تخونه مع مارس ، فتم إلقاء القبض عليها متلبسة بالخيانة مع هذا العشيق الذي وقع فريسة دلالها وعهرها وغوايتها ؛ لذا نجدها تحيك الحيل والمكايد حتى نجحت في إيقاع إله الشمس في حب آثم ، يجعله موضع سخرية الآلهة وتندرهم ، كما كان الحال بالنسبة لها .

وقد واصلت الانتقام من الآلهة والحقد عليهم عندما أثارت حرب طروادة حتى تجعل الآلهة ينقسمون على أنفسهم إلى فريقين متحاربين ، فريق منهم يحارب مع الطرواد ، وقد انضمت فينوس نفسها إلى هذا الفريق الذي يمثل قوى الشر والطغيان والاعتداء ، وفريق آخر يحارب مع الإغريق وهكذا كان حقدها مثيراً لحرب ضروس اكتوت البشرية والآلهة بنارها طوال عشر سنوات متوالية .

وسيبدو لنا ميلها إلى الانتقام واضحاً كذلك عندما نعرض لقصة ميلاد « أدونيس » ، وكيف كانت ولادته نتيجة خلاف وقع بين فينوس ووالدة أدونيس ، فانتقمت منها بأن ألقت بها في شباك حب آثم ، أنتج حملاً آثماً .

أدونيس

الحضارة البابلية أول من قالت بوجود إله للجمال والحب ، وأن اسمه لديهم هو « تموز » ، وأنه كان يسكن في ظل شجرة الحياة في بستان « أريدو » الذي تسقيه مياه دجلة . وقد صوره الشعراء البابليون راعياً مات في ريعان الشباب ، فنزلت إليه عشتروت محاولة إعادته إلى الحياة من جديد ، وكان موته يوافق الثاني من الشهر الرابع من السنة البابلية ، وهو يقابل في عرفنا اليوم أول تموز (يوليو) — ولهذا السبب دُعي الشهر تموز — ، وكان البابليون في مثل هذا اليوم من كل عام يقيمون المناحات حيث تنشر القصائد والمراثي التي تحكي قصة معبودهـم وكيف ودع الحياة . (١)

بعد ذلك سرت عبادته من بابل إلى فينيقيا . فعُبد في جبيل منذ القدم ولكن باسم جديد هو « آدون » أو « أدوناي » ، وهذه الكلمة تعني في السامية « السيد » (٢) ، ولعل هذه الكلمة قد أصابها التحريف عندما نقلت عبادة هذا الإله إلى اليونان . فأصبحت لديهم « أدونيس » (٣) .

---

(١) حبيب ثابت : عشتروت وأدونيس ، ص : ١٩ ، ٢٠

(٢) دائرة المعارف اللبنانية : بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، ج ٨ ، ص ٢٧٤ .

(٣) يقول جيمس فريزر في كتابه أدونيس أو تموز : كان يعبد أدونيس الأقوام السامية في وادي الرافدين وسوريا ، ثم أخذ الإغريق عنهم عبادته حوالي القرن السابع قبل =

وعلى كل حال فوجود مدلول سامي لكلمة « آدون » سواء أكان لقباً أو اسماً يثبت أن منبت أدونيس كان سامياً ، وقد أيد ذلك ما ذكره القديس « جراسيموس » من وجود غاب في بيت لحم قُدس على اسم أدونيس ، حيث كان ملاحدة اليهود يقيمون المناحات عليه يوم ذكرى موته ، وذلك في المغارة التي ولد فيها السيد الناصري [1] .

كما ربط الكاتب الدمشقي — « ماسيوس » المولود عام ٤٨٠ م — بين أدونيس إله الحب والبعث ، وآشمون إله الطب ، ولا غرو في أن يوجد هذا الترابط والترادف بين إله الطب الشافي والواهب للصحة والحياة ، وبين أدونيس العائد إلى الحياة بعد الموت [2] .

وإذا كانت أسطورة أدونيس تتحدث عن البعث والحياة من جديد فإن هذا يثبت أن أدونيس سامي المنبت . وليس يوناني الأصل كما ادعى البعض . فاليونانيون يرفضون فكرة البعث وعودة الحياة من جديد ، بل إنهم ينفرون من هذه الفكرة ، ويجعلونها ضرباً من الجهالة [3] . فإذا أضفنا هذا إلى أن كلمة أدونيس ليس لها مدلول في مفهوم اليونانيين ولا معنى خاص في لغتهم ، فإننا نخرج بنتيجة تقول بأن عبادة أدونيس وافدة على بلاد اليونان ، وأنها ذات أصلى سامي ، وقد انتقلت إلى اليونان — كما هو

= الميلاد وكان اسم الإله الحقيقي « تموز »، وما التسمية « أدونيس» إلا الكلمة السامية ومعناها «السيد»وهو لقب احترام كان يطلقه عليه عباده. وفي النص العبري لكتاب العهد القديم كثيراً ما يطلق هذا الاسم على يهوه بشكل « أدوناي »، ولعلها أصلا أدوني أي « سيدي » غير أن الإغريق أساءوا الفهم فحولوا لقب الاحترام هذا إلى اسم علم . انظر : جيمس فريزر : أدونيس أو تموز ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص ٢٨ الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩ .

(١) حبيب ثابت ، ص : ١٩ .

(٢) دائرة المعارف اللبنانية ، ج ٨ ص ٢٧٧ — ٢٩٩ (مادة أدونيس) .

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحات .



تمثال أدونيس «نقلا عن ملحمة عشتروت وأدونيس»

الحال بالنسبة لفينوس — بعد أن اتصل اليونانيون بالفينيقيين وتبادلوا التجارة معهم .

ودليل آخر على انتشار عبادة أدونيس بالشرق ، ما جاء في تاريخ الأسرة السادسة عشرة الفرعونية من ربط بين عبادة أوزيريس المصري وأدونيس الفينيقي ، فقد ذكر مؤرخو الإسكندرية القدماء أن الإلهة ايزيس قد سافرت إلى جبال لبنان تبحث عن حبيبها أوزيريس ، فوجدت أشلاءه المبعثرة في منطقة جبيل ، والمعروف أن جبيل كانت مقر عبادة أدونيس الفينيقي ، وهكذا التقت عبادة الإلهين المصري والفينيقي في منطقة جبيل اللبنانية ، وكلا العبادتين من نتاج الشرق ؛ أرض العبادات والأساطير .

كيف جاء أدونيس إلى الوجود ؟

أجاب أوفيد عن هذا السؤال تفصيلاً في كتابه « **مسخ الكائنات** » ، وأكتفي هنا بذكر ملخص وافٍ لما قاله : [1]

كان لسنيراس [2] فتاة غاية في الجمال تدعى « مورها » (أو مورة أو مورا) تقدم لخطبتها الخاطبون من كل الأنحاء ، ولكنها رفضتهم جميعاً دون أن تصرح بالأسباب ، ولكن كان السر الكامن وراء هذا الرفض ماثلاً في عشقها لأبيها ، ورغبتها في الظفر به زوجاً وعشيقاً [3] ، ولكن

---

(١) أوفيد : مسخ الكائنات ، الكتاب العاشر ، ص ٢٢٩٠ — ٩٦، وقد وردت قصة ولادة أدونيس تحت عنوان « مورها » ، وهو اسم أم أدونيس .

(٢) تذكر بعض الكتب أنه قياس ملك سوريا ولبنان ، انظر دائرة المعارف اللبنانية ص ٢٧٧ — ٢٩٩ .

(٣) قيل إن هذه الرغبة الآثمة قد تولدت عند الفتاة ، نتيجة لخلاف وقع بينها وبين فينوس بسبب تفاخر مورها بنعومة شعرها ، مما أثار حنق فينوس عليها ، وحكمت عليها بذلك الحب الأثيم لوالدها ، إذ كلفت كيوبيد ملاك الحب بأن يلقيها بسهم وهي نائمة ، ويكون من نتيجة هذا السهم الطائش أن تتعلق الفتاة تعلقاً مرضياً بوالدها . انظر المرجع السابق .

كيف يتم هذا الزواج الآثم ؟ هذا ما نغص عليها حياتها ، وأشعرها بالإثم مما جعلها تفكر في الخلاص من حياتها ، ولكن جاريتها تنقذها قبل أن تلفظ أنفاسها ، وتحاول تهدئتها ومعرفة سرها ، ولكن الفتاة امتنعت عن البوح به ، فواصلت المربية التلطف معها حتى اعترفت لها الفتاة بما سيطر عليها من رغبة جامحة في معاشرة أبيها ، فأخذت المربية تفكر في طريقة تحقق للفتاة ما أرادت دون أن يعرف الوالد حقيقة الأمر ، وأخيراً اهتدت إلى حيلة ماكرة ، فانتظرت حتى ثمل الأب ، ودخلت عليه المربية وأخبرته بأن فتاة من جواريه قد هامت به ، وتريد أن تعاشره ، فوافق الوالد حيث كانت زوجته في سفر بعيد عن القصر ، وأخيراً دخلت الفتاة متشحة بغطاء على وجهها لا يسمح لأبيها بالتعرف عليها . دخلت ، وتم لها ما أرادت !

غادرت مورها مخدع أبيها وفي أحشائها نطفة منه ، وهكذا استقر في رحمها الدنس حمل دنس ، ثم عاودت الكرة المرة بعد المرة ، إلى أن تشوق سينيراس إلى معرفة من يضاجع ، فأحضر مصباحاً وأخفاه حتى إذا ما دخلت الفتاة أشعل المصباح ، وكم كانت المفاجأة قاسية مذهلة ! إنها ابنته ! إنها جريمة لا تغتفر ، كيف جرأت على هذه الفعلة الشنعاء ؟ لا بد من سفك دمها ! نهض من فراشه مزمجراً وأمسك بالسيف يريد أن ينهي حياة ابنته العاهرة الدنسة ، ولكن الفتاة سارعت بالهرب في جنح الظلام ، وخرجت من القصر تضرب في الفيافي والقفار ...

لقد ظلت مورها في هروب دائم وعدم استقرار طوال تسعة أشهر . إنها تواصل الهرب ، ويواصل الجنين الحياة والاكتمال والاستعداد لمغادرة ظلام الرحم إلى نور الحياة ، ولكن كلما اقترب الموعد ، أحست مورها بالرغبة في وداع الحياة ، ولكنها لم ترغب في أن تدنس عالم الأموات



٩٩ ـ مسخ مورها شجرة ، ومولد أدونيس

(نقلا عن كتاب مسخ الكائنات)

ببشاعة جرمها [1] ، كما أنها لا ترغب في الحياة حتى لا تدنس عالم الأحياء كذلك . وأخيراً تلجأ إلى الآلهة ضارعة أن يعينوها على حل معضلاتها ، بأن يحيلوها إلى شيء لا هو بالحي ولا هو بالميت .

... « لم تذهب ضراعاتها عبثاً ، إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقيها،وتنشق أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس في الأرض ، وإذا هي ساق شجرة شامخة ، وإذا عظامها تخشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحول دمها إلى عصارةنباتية ، وأصبحت ذراعاها غصوناً ممتدة ، وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجف جلدها ، وغدا لحاءً طوى فيما طوى رحم الفتاة بما فيه ، كما لف صدرها . وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها في طيات اللحاء . ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مرة تذرفها،وظلت حديث الناس من بعد ، وحملت — أي الشجرة الجديدة — اسم « المر » [2] .

وأخيراً جاءها المخاض ، فانشق الجذع وخرجت من خلال اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهَلَّ ، فأسرعت الحوريات يتلقين الطفل ووضعنه فوق العشب الغض بعد أن غسلنه بدموع أمه ، ولقد كان الوليد في جمال كيوبيد وليس ثمة من فارق بينهما غير جعبته المليئة بالسهام ، حتى أن إلهة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .



(١) لعل هذا التفكير نابع من موقف الحضارات الشرقية من الحياة الآخرة ، وأنها أطهر وأذكى من الحياة الدنيا ، فلا يجب تدنيسها ، وخير دليل على ذلك نظرة المصريين للحياة بعد الموت .

(٢) يقول جيمس فريزر : لعل استعمال المر بخوراً في أعياد أدونيس هو السبب في اختلاق هذه الخرافة ، انظر : جيمس فريزر : أدونيس أو تموز ، ص ١٥٦ .

هكذا انتهت رواية أوفيد المتعلقة بمولد أدونيس رب الجمال والحب، ولم يكن يعرف أحد أن ولادة هذا الطفل ستنتج عنها أشهر قصة حب تقع فينوس فريسة لها ، وهي التي طالما أوقعت الآلهة والبشر في حبها وقد صرعتهم جميعاً ، وتدللت عليهم ، فإذا بهذا الصغير ينسيها دلالها وكبرياءها ويحيلها عاشقة ولهة لا معشوقة مدللة متغطرسة :

كانت فينوس (عشتروت أو الزهرة السماوية) ترقب مشهد ولادة الصغير ، فإذا بنظرها يقع على طفل لم تر عيناها أجمل منه ، فعلق فؤادها به ، فتناولته وأخفته في صندوق ، ثم دفعت به إلى أختها برسيفونة (الزهرة السفلى) ملكة الجحيم ، وإلهة الأعماق لتحتفظ به بعيداً عن أنظار الحساد[1] .

ولما يفع الفتى حاولت فينوس استرجاعه من أختها ، ولكن الأخت أبت ، حيث علقت به هي الأخرى مما جعل فينوس ترفع الأمر إلى الإله زفس (المشترى) حتى يحكم بينهما ، فإذا به يحكم بأن يقسم عام الفتى إلى ثلاثة أقسام كل قسم مدته أربعة أشهر ، فيكون الثلث الأول في حوزة فينوس ، ويقضي الثلث الثاني تحت رعاية برسيفونة ، ثم يترك للفتى قضاء الثلث الأخير وفق هواه واختياره ، فإذا بالفتى يختار قضاءه مع فينوس .

وهكذا اختار أدونيس أن يقضي ثلثي العام مع فينوس (عشتروت أو الزهرة العليا) ، فتوطدت العلاقة بينهما ، وزاد لهيب العشق في قلب فينوس ، فإذا بها تلازمه على الدوام هاجرة السماء إلى الأرض حتى ترافقه في تنقلاته بين المروج والغابات غير عابئة بنظرات الحاسدين ولا بتقولات الحاقدين ، غير آبهة بما يمكن أن تتعرض له من الأخطار بين وحوش الغابات الضارية حيث كان أدونيس يقضي نهاره كله مفتشاً عن الطرائد

---

(١) أحداث قصة خطف فينوس (عشتروت) لأدونيس جاءت تفصيلا بدائرة المعارف اللبنانية الجزء الثامن ، يمكن لمن يريد المزيد الرجوع إلى هذا المرجع الهام .

يصطادها بدقة ومهارة ، ثم يعود فيلقى حبيبته في أوقات السمر واللهو .

لم تمض الحال كثيراً على هذا المنوال فقد تدخل رب الحقد آرس وقرر الخلاص من أدونيس الذي حرمه من فينوس ، فأرسل له المنية على شكل خنزير بري متوحش ، يحاول أدونيس اصطياده فيطيش سهمه وينقض الخنزير عليه ، فيفتك به ، وتُحرم فينوس من عشيقها الذي ملأ عليها حياتها وجعلها تهجر الآلهة والسماء ، وهكذا تضطر بعد مصرع هذا الحبيب لمغادرة الأرض والعودة إلى السماء من جديد . ولكن كيف تم مصرع أدونيس ؟

هذا ما تحدث عنه أوفيد في أسطورته عن أدونيس وفينوس ، فلننتقل إلى الأسطورة ، كي نعرف الإجابة عن هذا السؤال .

* * *

أسطورة : أدونيس وفينوس

كما جاءت بكتاب مسخ الكائنات لاوفيد [1]

مرت الأيام في تعاقبها ، وما بالى بها أحد ، وما أسرع ما تمضي السنون فسرعان ما كبر الطفل الجميل ، الذي يقال إن أخته أنجبته من جدّه ، والذي كان خبيئاً في جذع الشجرة إلى عهد قريب ، وها هو ذا يصبح شاباً ، ثم ها هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله فينوس ، وينتقم منها لما أشعلته في أمه من شبق ، فلقد كان كيوبيد وهو يحمل جعبة سهام الحب قد أخذ يقبل أمه فينوس ، فإذا به يخدش عن غير قصد أعلى صدرهـا بطرف سهم كان يطل من جعبتـه ، فدفعت فينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذي لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه ، غير أن افتتانها بجمال الشاب أدونيس أنساها رعاية شطآن جزيرة كيثيرا [2] ، كما لم تتردد كثيراً على جزيرة فينوس تلك الجزيرة التي قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ... كما لم تعد تظهر في السماء إذ فضلت أدونيس على السماء.

وأصبحت فينوس رفيقة أدونيس تصحبه أنّى ذهب ، وتركت ما

(١) وردت الأسطورة في كتاب مسخ الكائنات تحت عنوان « أدونيس وفينوس — أتالا نتا وهيبومينيس » . وذلك في الكتاب العاشر ، انظر مسخ الكائنات ص : ٢٩٦ ٣٠٣ .

(٢) جزيرة على شواطىء المورة مكرسة للالهة فينوس ، « تعقيبات مسخ الكائنات ص ٤٣٣ » .

ڤينوس تهيم حبا بأدونيس

(نقلا عن كتاب مسخ الكائنات)

تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار ، والعناية بجمالها وزينتها ، وأصبحت تجول في الغابات والجبال مشمرة ثيابها حتى ركبتيها على غرار ديانا إلهة الصيد ، تطارد الحيوانات السهلة القنص كالأرانب البرية السريعة العدو والغزلان والوعول الشامخة القرون ، لكنها تجنبت الخنازير البرية الوحشية،ولم تخاطر بالتعرض للذئاب المتلصصة ، والدببة الحادة المخالب ، والأسود التي تحيا على دماء البهائم،وأخذت تنصح أدونيس باتباع نهجها ، محذرة إياه من الوحوش ، مؤملة في أن يصغي لنصحها ، ثم قالت له :

كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفر منك ، ولا تأمن الحيوانات التي زودتها الطبيعة بأسلحة،حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن مجدك الذي تبلغه، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذي يفتن فينوس أثر على الأسود والخنازير البرية المشعثة الشعر ، فهي لا تخيف الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البري كالبرق في انقضاضه بمخالبه ، وإن الأسد إذا أثير يتوثب دوماً للهجوم . لشد ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات !

وتساءل الفتى عن سر كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : « سأخبرك بما يثير دهشتك حين تستمع إلى قصة تلك الجريمة التي حدثت منذ أمد بعيد . إن ما أبذله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابني بالإرهاق وها هي ذي شجرة حور يدعونا ظلها الوارف أن نتفيأه ، فلأضطجع تحتها إلى جانبك » . وتمددا على العشب ووضعت هي رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها التي كانت تتخللها القبلات .

بعد ذلك حكت فينوس قصة فتاة غاية في الجمال والافتتان وكانت تدعى أتالانتا ذات المقدرة الفائقة في العدو ، حتى أنها أعلنت أنها ستتزوج من يسبقها في العدو ، أما من ينافسها ويفشل في سبقها ، فجزاؤه القتل ؛ فتقدم الخاطبون لكسب ودها ، ومحاولة التغلب عليها في مضمار العدو ؛

ولكنها كانت تقهرهم جميعاً ، وترديهم صرعى تطاولهم عليها ، والطمع في الاقتران بها وهم أقل سرعة منها ، إلى أن نازلها هيپومينيس ، وتمكن بمساعدة فينوس من سبق أتالانتا ، وهكذا حق له أن يتزوجها . ولكنه نسي أن يشكر فينوس على حسن صنيعها معه ، لذا أقسمت على أن تنزل به وبعروسه العقاب حتى يكونا عظة للآخرين ، فلا يسلكوا مسلكه .

وذات مرة كان هيپومينيس وزوجته أتالانتا يمران بجانب أحد المعابد فأوحت اليهما فينوس بأن يدلفا إلى المعبد كي يستريحا من مشقة السير ، ثم أوعزت إلى هيپومينيس أن يضاجع زوجه في المعبد ، وما أن فعلا حتى غضبت عليهما الآلهة إذ دنسا المحراب ، وكان جزاؤهما أن غشي رقبتهما شعر أسود ، وتبدلت أصابعهما بمخالب ، وتحولا إلى حيوانين يعتمدان على صدريهما ، ثم نما لهما ذيلان ، واتسم وجهاهما بالعبوس والقطوب وأصبح حديثهما زئيراً . وأُسكنا الغابات التي أصبحت مأواهما الوحيد ، إذ قد أصبحا أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس ...

وتنهي فينوس قصتها موجهة الحديث إلى أدونيس ، فتقول : وحذار **يا حبيبي العزيز أدونيس أن تقرب منهما ، بل عليك أن تفرّ منهما كما تفر من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التي لا تولي هاربة بل تواجه من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سبباً في هلاكنا نحن الاثنين »**

ثم يعود أوفيد ليكمل أسطورة أدونيس وفينوس ، فيقول :

حلقت فينوس في الأجواء منطلقة بمركبتها التي يقودها البجع بعد أن حذرت أدونيس غير أن الشجاعة لا تجدي معها التحذيرات [1] ، فقد

---

(١) تذكر بعض الأساطير اليونانية أن سبب إصرار أدونيس على الخروج للصيد ، وعدم امتثاله لنصح فينوس ، يرجع إلى شعوره بالملل من فينوس ذاتها ، فأراد أن يسري عن نفسه ويبعد الملل عن روحه ، ولعل هذا الشعور بالضيق هو الذى جعله يخفق في صيد الخنزير مماعرضه للموت ، وهو المشهود له بالشجاعة والتفوق في فنون الصيد والقنص .

لمح خنزيراً برياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته من جُحره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، ولكن أسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه الملتوي ، فدب الذعر في قلب أدونيس ، وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه وعض فخذه قريباً من خصيته بنابه ، فتلوى فوق الأرض محتضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنات أدونيس أسماع فينوس التي لم تكن مركبتها الخفيفة بجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص [1] ، فأدارت طيورها البيضاء مركبتهاواتجهت إليه وشقت ثوبها عندصدرها ،وشدتشعر رأسها،وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لذلك ، وأخذت تلوم الأقدار ، وصاحت فيها قائلة : لا ، لن يخضع لك كل شيء ، وسوف يبقى أدونيسذكرىحزنٍ خالد إلى الأبد! أما أنتَ يا أدونيس فسوف يُمثل كل عام مشهد موتك بما كان فيه من نواحي عليك ، ولتنبثقن زهرة من دمائك . لقد استطعتِ يا بيرسيفونة [2] أن تحولي امرأة إلى شجرة نعناع عطرة ، فهل أُلام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم هيئة جديدة ؟

وصبّت فينوس على دم أدونيس — بعد كلماتها هذه — رحيق زهرة عطرة ، لم يكد يمسه حتى غلى الدم وتصاعدت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشفافة فوق المياه المصفرة في الأماكن الموحلة ، ولم تكد تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة بلون الدم شبيهة

(١) كانت مسافرة من جبيل بلبنان حيث يعيش أدونيس — كما سنعرض لذلك بعد قليل — متجهة إلى قبرص حيث قصرها في بافوس .
(٢) أخت فينوس التي تنازعت معها ملكية أدونيس يوم كان صغيراً .

بزهرة الرمان التي تخفي بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر ، لأنها زهرة واهنة الساق تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها [1] ، وهي زهرة شقائق النعمان . [2]

* * *

إلى هنا تنتهي الأسطورة كما كتبها أوفيد ، وقد ذكرت الأساطير الفينيقية أن هذه الكارثة وقعت فوق جبال مدينة جبيل اللبنانية حيث كان يعيش آدونيس ، وأن دماءه عندما سالت وصلت إلى مغارة أفقا حيث يوجد نبع ماء [3] ، فاكتست المياه بالإحمرار ، واحمرت معها مياه ذلك النهر الذي ينبع منها ، وهو نهر إبراهيم الحالي ، والذي كان يعرف قديماً باسم نهر آدونيس إكراماً لهذا المعبود الذي اختلطت دماؤه بمياه هذا النهر ، ويقول العامة إن مياه نهر ابراهيم ما زالت حتى اليوم تخضب باللون الأحمر في ربيع كل عام ، وذلك في ذكرى مصرع أدونيس ، ولكننا ندرك أن مياه هذا النهر قد اكتسبت اللون الأحمر من اختلاطها بالمواد البازلتية والطينية الحمراء ، والمفتتة من غرب منطقة العاقورة ومن منطقة قرطبة ،

---

(١) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيموني » وهي مشتقة من كلمة أنيموس أي الريح (الترجمة العربية لمسخ الكائنات ، حاشية ص ٤٢٣) .

(٢) كلمة « نعمان » تعني الحبيب ، وهي إحدى صفات أدونيس وكلمة « شقائق » أي جروح ، وعلى هذا فمعنى « شقائق النعمان » هو جروح الحبيب ، وذلك إشارة للجروح التي أودت بأدونيس والتي انبثق الدم منها غزيراً ، وتحول هذا الدم إلى زهرة الشقائق بعد ذلك : انظر : أدونيس أو تموز ، ص : ١٥٤ .

(٣) أفقا قرية صغيرة تابعة لقضاء كسروان في شمالي جبل لبنان ، وهي تقع شمالي نهر إبراهيم وعلى مقربة من منبه ، وفي مقابل القرية توجد آثار قلعة أو هيكل كان يجتمع فيه عباد الزهرة (فينوس) . وإلى هذه القرية تنسب المغارة التي يخرج منها نهر إبراهيم ، وهي المغارة التي قيل إن أدونيس قتل على مقربة منها ، فسالت دماؤه حتى وصلت إليها ...(دائرة المعارف اللبنانية) ، وسوف نتحدث عنها في الفصل الاخير .

وهكذا فإن احمرار مياه هذا النهر ليس له صلـــة على الإطلاق بمصرع أدونيس ولا بدمائه المراقة كما يدعي العامة [1] .

وقد حفظت لنا الآثار المتبقية حتى الآن في الطريق المؤدية إلى مغارة أفقا ، في الغينة حيث يتفجر نهر إبراهيم نقشاً يمثل قصة مقتل أدونيس ، ولعله النقش الوحيد المتبقي عن العصور الماضية مصوراً هذه الحادثة وتلك الفاجعة ، وربما كان عـــلى تلك الطريق الموصلة إلى أفقـــا ألوف التماثيل والنقوش لأدونيس قائمة على الجانبين ، ولكن اختلاف الأزمنة وتعاقب الأحداث ومرور السنين وما يتبع ذلك من عوامل تعرية وتقلب أجواء ، قد ذهب بكل هذه التماثيل وتلك النقوش ، وغطاها غبار الماضي الكثيف[2]

★ ★ ★

وتقول بعض الأساطير أن فينوس تهاوت على جسد أدونيس تبكيه وتحاول عودته إلى الحياة من جديد ، حتى أنها ضرعت للآلهة كي يحققوا لها أمنيتها ، وبذلت في ذلك كل جهد ، وأظهرت من الخضوع والخشوع للآلهة الشيء الكثير ، مما جعل كبير الآلهة زيوس يرثي لحالهـــا ، فسمح لأدونيس بالعودة إلى الحياة مدة ستة أشهر فقط من العام ، على أن يقضي الشهور الستة الباقية في موت واندثار [3] ، ولعله في ذلك شبيه بالشمس التي تظهر قوية سافرة بعض الربيع وطوال أشهر الصيف ، وبعض الخريف ثم تضعف وتخبو وراء الغيوم بقية العام ، أو كالنبات يمر بفترات من الوجود والعدم ، ثم إلى وجود ، فعدم ، وهكذا ....

---

(١) د . حسن أبو العينين : لبنان ، دراسة في الجغرافيا الطبيعية ، ص ٤٩٣ — ٤٩٥ بيروت : ١٩٨٠ .

(٢) حبيب ثابت : عشتروت وأدونيس ، ص : ٣٩ .

(٣) دائرة المعارف اللبنانية ، جـ ٨ ، ص : ٢٨٢ ، ودائرة المعارف فارسي ، جـ ١ ، ص : ٧٧ « مادة أدونيس » .

المغزى من الأسطورة :

حفلت أسطورة أدونيس بالعديد من الرموز ، ولكن أهمها على الإطلاق أن أدونيس يمثل روح النبات ، إذ ليس مولده وموته ثم بعثه من جديد إلا رمزاً للطبيعة المتقلبة بين حياة وموت وبعث ، ولعل خير مظهر يمثل الوجود والعدم والبعث في صورة ملموسة للعقل البشري في هذه المرحلة المتقدمة من التاريخ ؛ يتمثل في البنات ، حيث تلقى البذرة في جوف الأرض ، وسرعان ما تتحول البذرة نبتة صغيرة ، يتولاها الزارع بالعناية والرعاية ، بعد ذلك ينضج النبات ويأتي وقت الحصاد ، فيفرح الزارع بحصاده ، يأكل بعضه ويحفظ بعضه ليعاود زراعته من جديد .

هذا ما حدث بالنسبة لأدونيس ، فقد ذكرت الأساطير أن فينوس هي التي أوحت لمورها — والدة أدونيس — بمعاشرة أبيها ، ونتج عن هذه المعاشرة بذر البذرة الدنسة في رحمها الدنس — كما يقول أوفيد — وبعد فترة جاءها المخاض فخرجت البذرة نبتة صغيرة عرفت باسم أدونيس . حدث كل هذا تحت سمع وبصر فينوس ، لذا نراها تسعد بهذه النبتة وتسارع باحتضانها وتولت رعايتها بالمشاركة مع أختها برسيفونة ، وعندما نضجت النبتة وحان وقت الحصاد — أي بلوغ أدونيس مرحلة الشباب والفتوة — حرصت فينوس على استخلاصه لنفسها ، فعشقته وهامت به ، وتمنته حبيباً وعشيقاً ، ولكن لكل نبات نهاية وجفاف ، ولكل حي موت واندثار ، وهنا تظهر النهاية والمنية في صورة خنزير بري يصرع أدونيس . ثم تظهر فينوس الزارعة الحاصدة ، تحاول استزراعه من جديد بأن تضرعت إلى الآلهة كي يعيدوه إلى الحياة مرة أخرى ، وتنجح فينوس في إقناع الآلهة ، وتعود الحياة إلى أدونيس مدة ستة أشهر من كل عام . وهذه مدة كافية لزراعة أي محصول وبخاصة القمح .

والأدلة على أن أدونيس يمثل روح النبات وتطوره كثيرة ، أذكر منها :

١ — كانت ولادة أدونيس من جذع شجرة المر ، أي أنه وثيق الصلة بالنبات وروحه منذ اللحظة الأولى التي خرج فيها إلى الحياة ، بل إنه كان على صلة بالنبات من قبل أن يولد ، حيث كان غذاؤه وهو جنين من عصارة النبات بعد أن تخلت أمه عن صفتها البشرية ، وعاشت بعد ذلك بطبيعة النبات في شكل شجرة المر .

٢ — ذكرت الأسطورة أن الآلهة قبلت رجاء فينوس بعودة أدونيس إلى الحياة فوق الأرض مدة ستة أشهر ، على أن يقضي الستة أشهر الباقية في باطن الأرض . وهذه سنة الحياة بالنسبة للنبات حيث يظهر على وجه الأرض في موسم وجوده ، وهذا لا يتعدى — في الأغلب — ستة أشهر ثم يختفي بقية العام ، واذا أخذنا القمح على سبيل المثال — لكونه أهم المحاصيل في ذلك الوقت وحتى اليوم — فإنه يزرع بمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط — حيث مسرح الأسطورة — في أواخر الخريف ويظل في أرضه حتى منتصف الربيع ، فيكتمل نضجه ويتم حصاده .

ولهذا فقد ربط جيمس فريزر [1] بين أدونيس روح النبات وبين الحبوب وبخاصة القمح ، وقال إن العبادة في هذه الحقبة التاريخية كانت مرتبطة بالحاجة ، وبخاصة حاجة الناس إلى الطعام ، ولهذا كانوا يعبدون في أدونيس حبهم للحياة والخصب والنماء ، وكانت احتفالاتهم بذكراه تقرباً للآلهة حتى يزداد محصول القمح بركة ، وبهذا يتجنبون القحط والجوع . ولو لم يكن أدونيس يمثل روح النبات ولم تكن عبادته الهدف منها

---

(١) أدونيس أو تموز ، ص : ١٥٦ وما بعدها .

إرضاء الآلهة للحصول على المزيد من الحبوب ، لما كانت مراسم الاحتفال بذكراه تشمل ضمن ما تشمل ما يعرف باسم جنائن أدونيس ، وهي عبارة عن سلال أو أصص تملأ بالتراب وتزرع فيها بذور القمح والشعير والخس وألوان من الزهر ، وتُعنى النساء دون غيرهن بهذه الجنائن مدة ثمانية أيام وهي موضوعة تحت أشعة شمس الربيع الدافئة ، فتنمو بسرعة وبذا تبرز وكأنها المضجع المخضوضر الذي سُجي عليه أدونيس المحتضر ، ولكن سرعان ما تذبل لعدم وجود جذور لها . وفي ختام الأيام الثمانية تحمل مع تماثيل أدونيس الميت ويقذف الكل إلى الينابيع أو البحر ، كما سأشير إلى ذلك عندما أتحدث عن الاحتفال بذكرى أدونيس أو ما يعرف باسم « الأدونيات » .

أراني أوافقه على هذا الرأي ، والدليل على ذلك يتضح بالعودة إلى أسطورة ولادة أدونيس، حيث تم الحمل في أثناء الاحتفال بعيد إله القمح. فقد كان من عادة الفينيقيين في تلك الأيام إقامة احتفال كبير لإله القمح وفيه تتسربل الزوجات بالبياض ، ويقدمن إكليلاً من السنابل كباكورة للحصاد، وفي هذا الاحتفال تلتزم الزوجات بالعفاف وعدم الإقتراب من الأزواج لمدة تسعة أيام ، حيث يغادرن بيوتهن ويعشن في ساحة الاحتفال التي كانت على الدوام خارج المدينة أو القرية . فكان في وجود والدة مورها — أم أدونيس — خارج دارها طوال الأيام التسعة ، فرصة لمورها حتى تحظى بأبيها وعشيقها ، وتحصل منه على بذرةأدونيس ، وكأنها أرادت أن تشارك في الاحتفال بإله القمح ، بأن تكون خصبة منتجة ، وكأنها حريصة على الاستمرار في استزراع القمح وزيادة محصوله !

٣ — ذكرت الأسطورة أن عودة أدونيس إلى الحياة من جديد ، كانت في صورة شقائق النعمان ، أي أنه عاد مرة ثانية في صورة نبات تسري فيه روح أدونيس ، وهكذا كان وجوده أول مرة من جذع شجرة

المر ووجوده في المرة الثانية في صورة الشقائق ، وقد اختلف النبات في كلا الحالين لاختلاف الظروف في كل مرة عن الأخرى ، فالمرة الأولى كانت أمه تعتصرها الآلام وتكاد الهموم تقتلهـــا ، فأحست بالمرارة في كل شيء ، لذلك تحولت إلى شجرة أطلق عليها اسم « المر » ، بينما كانت عودته إلى الحياة بعد سفك دماء ومصرع وكارثة ، فحرصت الأسطورة على عودته في صورة وردة حمراء وكأنها مخضبة بالدماء ، حتى إذا ما وقع عليها بصر إنسان ورأى لونها القاني ، تذكر ما أصاب أدونيس ، وكيف سالت دماؤه أنهاراً فوق سفوح لبنان !

٤ ــ من الأدلة على أن أدونيس يمثل روح النبات كذلك ، ادعاء الأسطورة بأن دماء أدونيس قد سالت إلى نبع أفقا حيث ينبع نهر إبراهيم (نهر أدونيس سابقاً) ، وهكذا اختلطت دماؤه بمياه النهر . وكلنا نعرف أن الماء روح النبات ، واختلاط دماء أدونيس بمياه النهر تم ليشارك أدونيس في إحياء النبات وبعثه من جديد مع بداية كل ربيع حيث تتدفق مياه النهر مختلطة بدماء أدونيس .

٥ ــ يقول البعض[1] بأن أدونيس يرمز إلى الشمس، ويفسرون ذلك على أن الآلهة اشترطت بعد بعثه أن يظهر ستة أشهر ويختفي ستة أخرى . وهذا يعني ظهور أدونيس خلال الربيع والصيف ظهوراً قويـــاً يافعاً كالشمس خلال هذه الشهور من السنة ، وأن يختفي خلال الخريف والشتاء اختفاء الشمس وراء الغيوم والسحب في نفس الفترة من العام ، كما يقولون بأن ظهور أدونيس في الستة الأشهر الأول كظهور الشمس قوية على نصف الكرة الشمالي حيث المنطقة التي عُبد فيها أدونيس ، أما اختفاؤه فيعني

---

(١) ومنهم الدكتور فؤاد أفرام البستاني في دائرة المعارف اللبنانية (مادة أدونيس) ج : ٨ ، وكذلك جاء هذا الرأي في دائرة معارف البستاني (تحت مادة أدونيس) .

انتقال الشمس إلى نصف الكرة الجنوبي ، واتسامها بالضعف والاختفاء وراء الغيوم في النصف الشمالي من الكرة الأرضية . وهكذا تكون دورة الشمس بين شمال وجنوب ، أو بين قوة وضعف وما ينتج عن ذلك من تعاقب الفصول . وعلى الرغم من وجاهة هذا التفسير فإنني أرى أن اتخاذ الشمس رمزاً لأدونيس مرتبط كذلك بروح النبات ، فالشمس مثلها مثل الماء ضرورة لازمة لنمو النبات وسرعة نضجه ، فالقمح مثلاً لا يتم نضجه إلا إذا اشتدت حرارة الشمس خلال أشهر الربيع بعد احتجاب وضعف طوال أشهر الشتاء ، كما أن جميع النباتات ــ عدا نباتات الظل ــ لا تستطيع الحياة بعيدة عن الشمس وأشعتها .

والمتصفح لما تبقى من الأدب البابلي ، يجد الكثير من القصائد الدينية التي قيلت في رثاء تموز ــ أدونيس ــ وقد شُبِّه فيها بالنباتات السريعة الذبول ، حيث كانت حياته سريعة الذبول كذلك :

طرفاء في الجنينة لم يسقها الماء
ولم تزهر بالنّور قمتها في الحقول
صفصافة لم تسعد بالمياه الجارية ،
صفصافة تمزقت جذورها
حشيشة في الجنينة لم يسقها الماء . (١)

وجاء في مرثية أخرى عنوانها « نوح المزامير على تموز » :

« ترفع صوتها في النواح إذ فارق الدنيا
ترفع صوتها في النواح قائلة : وا ولداه !
ترفع صوتها في النواح إذ فارق الدنيا قائلة : أواه يا دامو !

---

(١) نقلا عن : أدونيس أو تموز ، ص ٢٠ - ٢١ .

ترفع صوتها في النواح إذ فارق الدنيا لتقول : يا ساحري ، يا كاهني !
هناك حيث أرسلت شجرة الأرز المشرقة جذورها في المكان الفسيح
في « عيانا » في التلال والوهاد ، ترفع صوتها في النواح .
وهي تنوح نوحها على الحشيشة التي لا تنمو في تربتها
تنوح نوحها على القمح الذي لا ينبت في سنابله
غرفتها مُلْك لا ينتج مُلكاً ،
امرأة قد نال الإعياء منها ، طفلة أصابها التعب ، فخارت قواها
تنوح على نهر عظيم حيث الصفصاف لا ينمو
تنوح على حقل حيث القمح والأعشاب لا تنمو
تنوح على بركة حيث لا سمك ينمو
تنوح على غابات حيث لا طرفاء تنمو
تنوح على أعماق حديقة كلها شجر حيث لا عسل ولا خمر ، ينمو
تنوح على مروج حيث لا نبات ينمو
تنوح على قصر حيث طول الحياة لا ينمو ! » [١]

★ ★ ★

ولكن إذا كان أدونيس يرمز إلى روح النبات والبعث من جديد ، فإن الخنزير البري يرمز إلى عكس ذلك ، إنه يمثل المنية والموت ، فقد حركته الآلهة كي يقضي على أدونيس ، وتم لها ما أرادت !

وإذا كان أدونيس يرمز إلى الخصب والنماء والنضج والحصاد . فإن الخنزير يرمز إلى الجدب والقحط والجفاف .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ ، ٢٢ .

وإذا كان أدونيس يرمز إلى الشمس والإشراق والنور ، فإن الخنزير يرمز إلى الليل والظلام .

وهكذا كانت المعركة محتدمة بين قوى الخير المثلة في أدونيس ، وقوى الشر ممثلة في الخنزير ، وإذا كان الخنزير قد بدا منتصرا ، فسرعان ما تدخلت فينوس وأعادت الحياة إلى أدونيس مرة أخرى، وكأن الأسطورة تريد القول بأن النصر في النهاية لقوى الخير مهما كانت الصعاب والمحن فالتفاؤل والأمل أساسا الوجود ، وبهما تستمر الحياة وتبعث من جديد !

* * *

الأدونيات :

كان الناس في كل من فينيقيا وبابل ومصر واليونان يحتفلون بذكرى أدونيس في كل عام، وكانوا يؤدون بعض الطقوس الدينية خلال احتفالاتهم. عرفت هذه الطقوس باسم الأدونيات نسبة إلى أدون ، أو أدوناي الاسم السامي لأدونيس ، وقد ورد ذكر هـذه الاحتفالات في دائرة معارف البستاني ، أنقل بعضاً منها هنا : [1]

أعياد أدونيس التي كان يحتفل بها لدى اليونانيين والفينيقيين والإيطاليين والمصريين ، كانت تنقسم إلى قسمين مختلفين الأول : « الأفانيسم » Aphanisme ، وهو عيد يُمثّل فيه غياب المعبود ، حيث يشخص موته الموهوم ، والثاني « المفريس » Hevrese ، ويمثل اكتشاف عُبّاده لجثته ويعني هذا الاكتشاف قيامته من الموت ..

---

(١) دائرة معارف البستاني ، « مادة أدونيس » ، وقد نقلتها عنها دائرة المعارف اللبنانية ، وإن زادت عليها بعض المعلومات .

وكان يقام للأفانيسم احتفال تصدح فيه أصوات القيثارات ، ثم يتقدم القوم إلى ناووس مزين بأحسن زينة ، وفي مقدمتهم الكهنة ، وتسير خلفهم فتيات حاملات سلالاً مملوءة كعكاً وزهوراً وطيباً ، وكذلك جم غفير من النساء متشحات بملابس الحداد نائحات مولولات . أما الناووس فقد وضعت فيه جثة أدونيس ،وقد علاها لون أصفر ، والدم يتدفق من جرحه، ويضعون إلى جانبه – أو في فراش منفرد في الأغلب الأعم – صورة الزهرة (فينوس) الباكية . وكانت تقوم بهذا العمل غالباً فتاة ذات جمال فتان [1] وعند غياب الشمس ، كانوا يتممّون الاحتفال حيث يضعون الجثة المقدسة في القبر ، وهنا تأخذ النساء في قص شعورهن حزناً عليه .

أما في الإسكندرية فكان القوم يسيرون في احتفال ضخم وحشد هائل إلى الشاطىء لكي يطرحوا جثة أدونيس في البحر ليصير لها ضريحاً كالشمس التي تأوي إليه [2] ، وكانوا يطرحون معه سلاً من البردي به رأس مصنوع من الورق السميك ،وكذلك رسالة موجهة لأهل سورية وفينيقية يعلنون لهم فيها بانقضاء أوقات الحزن ، وبقيامة المعبود من الموت [3] . وهنا تتدخل الرياح وتدفع السل إلى بيبلوس (جبل لبنان) وما إن يصل السل والرسالة حتى ينتهي الحداد وتقام الاحتفالات بالعيد الثاني ، وهو المفريس .

وكانت تلك الأدونيات تدوم أسبوعاً كاملاً ، ويوافق هذا الأسبوع أعياد الربيع ، وخلال السبعة أيام تعم مظاهر الحداد كل ألوان الحياة ، حيث تعرض أشكال أدونيس من الشمع والفخار ، وتسجي أمام مداخل

---

(١) يقول البعض إنها ابنة الملك أو الحاكم الذي يتم الإحتفال على عهده .

(٢) لعل هذا الموقف شبيه باحتفال المصريين بعيد «وفاء النيل » ، حيث كانوا يلقون عروساً جميلة إلى النيل اعترافاً منهم بفضله على مصر والمصريين .

(٣) ومن الأشياء التي كانت النساء تقذف بها كذلك ما عرف باسم جنائن أدونيس وقد سبق الحديث عنها قبل بضع صفحات .

البيوت أو على سطوح المنازل ، وفي الموعد المحدد يطاف بها في أسواق المدينة وشوارعها ، ترافقها الباكيات يرثين موت الإله ومحاسن الطبيعة التي يعبر عنها ، والنادبات الناحبات يقرعن صدورهن ، والراقصات والمغنيات ينشدن أناشيد الحزن والأسى ، ويُصعدن الأنات والزفرات على وقع الدف ونغمات الناي ، ويهتفن « لقد مات أدونيس الجميل البهي ، حقاً مات ! » .

وفي اليوم الثامن يحتفل بقيامته وبعثه من جديد ، حيث تتجه كاهنات أدونيس إلى المرفأ كي يستلمن سل البردي الذي كانت نساء الإسكندرية قد ألقين به في البحر رمزاً لامتنان إيزيس لأدونيس ، بعد أن وجدت أشلاء أوزيريس في جبيل حيث كان أدونيس يعيش ويُعبد . وفي هذا العيد (الهفريس) تنطلق البشرية في أفراح تفوق الوصف ، في هرج متصاعد إلى الأجواء ، في هتافات النشوة والانشراح ، في صرخات النصر والظفر تتزايد حتى الإباحة والفحش والفجور ، معلنة انتصار الحياة على الموت بعد عراك طويل : « قد قام أدونيس ، حقاً قام » .

وإذا كان الفينيقيون والمصريون يحتفلون بموت أدونيس وبعثه ، فذلك لأن خضارتهما تؤمن بالبعث من جديد ، أما اليونانيون ، فلم يكونوا يحتفلون إلا بموته فقط ، وذلك لأنهم يشمئزون من فكرة البعث ، أي أن العيد قد تحوّل عندهم إلى عيد تأبين دون سواه . وكانت التراتيل المنغمة ترافق هذا العيد في طول البلاد وعرضها ، والقصائد تنشد لهذه المناسبة على وزن جنائزي خاص ، على بحر خاص عرف باسم أدونيس لاستعماله فقط في مراثي الإله أدونيس .

* * *

هذه أهم مظاهر الاحتفال بالأدونيات ، وإن كانت مـدة هذه الاحتفالات ليست واحدة في جميع البلاد التي عبدت أدونيس ، وأقامت الاحتفالات في ذكراه السنوية ، فبعض البلاد كان الاحتفال يستمر ثمانية أيام كالإسكندرية على سبيل المثال ، ويستمر ثلاثة أيام في بلدان أخرى كما كان عليه الحال في جبيل ، ويومين في بلاد أخرى يوم للموت ويوم للبعث .

كما اختلف موعد الاحتفال من بلد إلى بلد،فقد ذكرت الأساطير أن الاحتفال كان يتم في جبل لبنان في أول الربيع ، وذلك عندما تذوب الثلوج وتحمل معها ذرات من التراب الأحمر فتختلط هذه الذرات مع مياه نهر إبراهيم (أدونيس) ، وكأنها بمثابة إعلان وتذكير بموت أدونيس،فيسارع الفينيقيون بتأبينه والنواح عليه ، ثم يحتفلون بعد ذلك بقيامته . كما قيل بأن احتفال الإسكندرية يتم خلال النصف الثاني من شهر تموز (يوليو) ، كما قيل إنه كان في الربيع ليتوافق مع احتفالات جبيل بلبنان . إلى غير ذلك من مظاهر الاختلاف بين مواعيد الاحتفالات من بلد إلى آخر .



الفصل الثاني

قصيــــدة فينــــوس وأدونيس

شعر وليام شكسبير



تقـــديم

تعد قصيدة « فينوس وأدونيس » للشاعر الإنجليزي الكبير وليـــام شكسبير من أعظم أعماله التي نالت شهرة كبيرة منذ تأليفها ، فقد أقبل القراء على اقتنائها ، وقراءتها المرة تلو المرة ، حتى قيل بأنها طبعت ست عشرة طبعة منذ نشرها لأول مرة في الثامن عشر من أبريل عام ١٥٩٣ (١) وحتى عام ١٦٤٠ (٢) ، وهذا الاهتمام وحب الاقتناء لم تحظ به أي قصيدة أو رواية أخرى لنفس الشاعر ، ولا لغيره من الشعراء في ذلك الوقت ، ولا بعده .

وقد اختلف الباحثون حول تاريخ نظم القصيدة وتاريخ نشرها لأول مرة ، وتساءل البعض هل نظمها الشاعر ونشرها مباشرة ، أم نظمهـــا واحتفظ بها بعض الوقت ليعيد النظر فيها وينقحها ، ثم نشرها بعد ذلك ؟ وهل المدة التي احتفظ فيها بالقصيدة لديه قبل النشر كانت عدة أسابيع أم امتدت إلى بضع سنوات ؟

أشار معظم الباحثين إلى أن شكسبير نظم هذه القصيدة في عام ١٥٩٣

---

(١) M. C. Bradbrook : Beasts and Gods, Shakespeare Survey vol. 15, p. 63

(٢) Geoffery Bullough : Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare vol. 1, Fourth impression 1966, p. 161

وذلك عندما توقفت الحركة المسرحية في انجلترا وأغلقت مسارح لندن بسبب انتشار الطاعون وذلك في الفترة ما بين الثالث والعشرين من يونيو ١٥٩٢ وصيف عام ١٥٩٤ (١) ، فاضطر شكسبير إلى ترك لنـــدن والعودة إلى قريته ستراتفورد ، وهناك أراد أن يشغل وقت فراغه ، فنظم هذه القصيدة وتبعها بقصيدته الثانية « اغتصاب لوكريس » ثم تبعها بنظم بعض الأناشيد التي أهداها إلى بعض رفاقه وأصدقائه . (٢)

ولكن هناك فريق من الباحثين يرون أن شكسبير نظم هذه القصيدة قبل ذلك بعدة سنوات ، وأنه نظمها وهو في بلدته ستراتفورد ، واحتفظ بها معه عندما ذهب إلى لندن وشُغل بالمسرح والروايات فلم يجد الفرصة كي يعيد النظر في القصيدة ويخرجها في الصورة التي يرضى عنها . ومن القائلين بهذا الرأي سيرسدني لي Sir Sidney Lee ؛ حيث يقول : إن شكسبير كتب قصيدة فينوس وأدونيس وبقيت في حوزته أربع أو خمس سنوات حتى أعاد النظر فيها مرة أخرى بعد توقف المسرح ، ثم دفع بها إلى المطبعة في صورتها الأخيرة . (٣)

ولعل أصحاب الرأي الأخير قد وجدوا سندهم في الإهداء الذي كتبه شكسبير للقصيدة ، وقوله فيه بأنها أول عمل له (٤) ، ولكن هذه الكلمة

---

(١) Peter Alexander : Shakespeare, London 1964 p. 95

(٢) Emilé Legouis and Loais Cazamian, History of English Literatue, London 1960, P. 314,
Oscar James Cambell & Edward G. Quinn : Shakespeare Encyclopeadia, London 1966, p. 929,
Chambers : William Shakespeare, Vol. 1. Oxford 1930, p 545, etc.

(٣) المرجع الأخير ، ونفس الصفحة .

(٤) William Shakespeare : The Complete Works, London 1961, p : 1286 .

لا تعني أن القصيدة أول عمل يؤلفه شكسبير ، فقد ورد في الجداول التي كتبت لتاريخ أعمال شكسبير أن هناك روايات وأعمالاً أدبية أخرى سبقت هذه القصيدة في النظم والتأليف ، ولعل شكسبير يعني أنها أول عمل ينشر له ،حيث لم يكن يُهتم في أيامه بنشر الروايات والمسرحيات ، إذ لم يكن ينظر إلى المسرحيات على أنها عمل أدبي يستحق النشر ،بل كان ينظر إليها على أن مجالها المسرح وبين الممثلين فقط ، أما دَور النشر لهذه المسرحيات ، فقد جاء بعد موت شكسبير نفسه في عام ١٦١٦ .

وفكرة القصيدة ليست بنت أفكار شكسبير ، بل إنه أخذ خطوطها العريضة من أسطورة أدونيس وفينوس التي كتبها الشاعر الروماني أوفيد في كتابه « Metamorphoseon »[1] ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، هل أخذ شكسبير هذه الخطوط العريضة عن الأصل الروماني ، أم عن إحدى الترجمات الإنجليزية لكتاب أوفيد ؟

مما لا شك فيه أن شكسبير كان على قدر من المعرفة باللغة اللاتينية ، حيث كانت مدارس الأجرومية التي أمّها الشاعر وهو في مرحلة التعليم، تُعَلّم من بين موادها بعضاً من اللغة اللاتينية ، حيث يقرأ الطلاب حكايات

---

(١) يترجم اسم هذا الكتاب عامة في اللغة العربية باسم « أطوار الحب » انظر : العقاد في كتابه التعريف بشكسبير ص ١٠٧ ، ولكن الدكتور ثروت عكاشه قد ترجم الكتاب واختار له اسماً أكثر دلالة على ما يحتويه من أساطير وهو « مسخ الكائنات » وأوفيد شاعر ولد عام ٤٣ ق . م أما وفاته فكانت عام ١٨م ، ويعد أكبر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطيين » ومعظم كتابات هؤلاء الشعراء كانت ذات أصالة فيما عدا ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق . وأول أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمى بالغزليات « Amares » ، وكتابه الثاني « البطلات » أي بطلات في الحب والعشق ، وكتابه الثالث «فن الهوى» « Ars Amatoria » ومن كتبه كذلك « المنظومات الحزينة » وقد ألفه في فترة نفيه ، هذالإضافة إلى كتابه « مسخ الكائنات » وغيره من الكتب الأخرى . انظر مقدمة مسخ الكائنات ص ١٠ — ١٥ .

ايسوب ومختارات من شيشرون وفرجيل وهوراس وأوفيد . كما يستظهرون نبذاً من كتابات البلغاء من القرون الوسطى . [1] وعلى هذا فإن شكسبير قد اطلع على الأصل اللاتيني وقرأ فيه حكاية أدونيس وفينوس ، وغيرها من الحكايات التي ألهمته نظم قصيدته ، كما يكاد يكون من المرجح كذلك أنه قرأ أهم الترجمات الإنجليزية لكتاب أوفيد . وأعني بها الترجمة التي قام بها آرثر جولد نج والتي نشرت في عام ١٥٦٧ م [2]

وإذا كان شكسبير قد أخذ الخطوط العريضة للقصيدة عن أوفيد ، فإن روح العصر قد كانت عاملاً مهماً في هذا الاتجاه ، وهو الاتجاه نحو إعادة كتابة الأساطير القديمة ، واستنباط أعمال أدبية تكون الآلهة والشياطين أبطالاً لها ، فقد كتب توماس لودج قصة سيسيلياز ميتامورفوزيس « Scillaes Metamorphosis » ونشرها عام ١٥٨٩ ، وألف مارلو الشاعر الإنجليزي المشهور والمعاصر لشكسبير مجموعة قصصية أسطورية باسم « هيرو وليندر Hero and Leander » والتي لم يقدر لها أن تنشر إلا

---

(١) العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ٣٤ .

(٢) يعتقد دورنهوفر Durnhover أن الأصل اللاتيني هو الأصل الوحيد الذي أخذ عنه شكسبير بينما يرى هازلتون سبنسر Hazelton Spencer بأن ترجمة جولدنج كانت ولا شك على مكتب شكسبير وهو ينظم قصيدته « فينوس وأدونيس » . وعلى كل حال فالرأي السائد والأعم أن شكسبير استعان على نظم هذه القصيدة بكل من الأصل اللاتيني والترجمة الإنجليزية ، انظر .

J.W. Lever : The Poems وهي إحدى مقالات Shakespeare Survey vol. 15, p 29, Shakespeare Encyclopeadia, p. 810, History of English literature p. 314, Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare, p. 161, etc .

وكذلك العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ١٠٧ .

في عام ١٥٩٨ (١) أي بعد نشر قصيدة فينوس لشكسبير بخمس سنوات ولكن على الرغم من عدم نشرها ، فقد كانت معروفة للأدباء المهتمين بهذا النمط من التأليف ومنهم شكسبير نفسه ، وإلى غير ذلك من الأعمال الأدبية الأسطورية التي أراد شكسبير أن ينسج على منوالها ، والتي يقال إنه رغب بهذه القصيدة وغيرها من القصائد الأسطورية أن يصل إلى البلاط ؛ حيث أن المسرحيات لم يكن كاتبوها يدخلون في زمرة الأدباء ذوي المكانة المرموقة من الشعب والبلاط ، فأراد أن يصل إلى حد الاعتراف به كأديب من خلال القصائد والأناشيد ، لعله يدرك الرفعة والمكانة التي لم يدركها من خلال رواياته ، وقد فُهم هذا الاتجاه من قوله على لسان فينوس : « ... ربما يخدمني أبوللو الذهبي ، ويقدم لي الأقداح مملوءة من ينبوع الحياة ... ! » (٢)

وعلى عادة الشعراء في ذلك الوقت ، قام شكسبير بإهداء القصيدة ، وكذلك القصيدة التالية لها وهي « اغتصاب لوكريس » إلى لورد سوثامبتون الذي كان خير سند للشاعر في هذا الوقت المبكر من حياته ، كما كان من نفس المقاطعة التي ينتسب إليها الشاعر ، وعلى هذا فقد كانت الصلة فيما بين الشاعر وهذا اللورد قائمة قبل رحيله إلى لندن وبعد عودته إليها أثناء توقف المسارح ما بين عامي ١٥٩٢ ، ١٥٩٤ . ولعل شكسبير قد حرص على إهدائه هذه القصيدة وغيرها أملاً في مساندته للوصول إلى البلاط ، حيث كان اللورد سوثامبتون ذا حظوة لدى الملكة «اليصابات» ومقرباً من كل رجال البلاط (٣) .

---

(١) Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare, p. 161.

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) اللورد سوثامبتون الثالث : اسمه هنري ورثزلي ولد عام ١٥٧٣ ، وكان نابغة =

أما الشكل الشعري الذي درجت عليه أبيات القصيدة ، هو أنهـا مقسمة إلى مقاطع كل مقطع منها يشتمل على ستة أبيات مسجعة على هذا النمط ab ab cc ، أي أن البيتين الأول والثالث متحدان في القافية. والبيتين الثاني والرابع متحدان في قافية ثانية ، وأخير أيوجد اتفاق في قافية ثالثة بين البيتين الخامس والسادس ، وعدد مقاطع القصيدة هو مائة وتسعة وتسعون مقطعاً ، أي أن مجموع أبيات القصيدة يصل إلى أربعة وتسعين ومائة وألف بيت. والأبيات مختلفة فيما بينها من حيث الطول والقصر ، فبعضها قد يقتصر على كلمة أو كلمتين ، في حين يطول بعضها حتى يصل عدد الكلمات في البيت إلى تسع أو عشر كلمات . (١)

وهناك سؤال أخير نطرحه في هذا التقديم ، هل كانت قصيدة شكسبير مجرد ترجمة لما نظمه أوفيد من قبل ، أم أن شكسبير موجود بفكرة وفنه وعصره في قصيدته ؟

للاجابة على هذا السؤال ، يجمل بنا أن نطرح ملخصاً وافياً للأسطورة كما نظمها شكسبير ، ثم نناقش بعد ذلك مدى الاتفاق أو الاختلاف بين ما نظمه أوفيد وما نظمه شكسبير .

= عصره ، حتى أنه حصل على لقب لورد وله من العمر ثماني سنوات أي في عام ١٥٨١ ، والتحق بجامعة كمبريدج لدراسة الآداب فأظهر تفوقاً ونبوغاً لا نظير لهما ، حتى أنه حصل على درجة الماجستير وله من العمر ستة عشر عاماً أي في عام ١٥٨٩ ، وفي عامه السابع عشر استدعته الملكة اليزابث «اليصابات» الأولى إلى البلاط حيث أكرمت وفادته ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا اللورد الملهم والسند لكثير من الشعر والأدباء ، ومن بينهم شاعرنا شكسبير الذي أهداه قصيدتيه فينوس وأدونيس واغتصاب لوكريس ، وكذلك عدداً من أناشيدة للمزيد من المعلومات راجع :

Shakespeare Encyclopeadia, P. 815

(١) يمكن معرفة ذلك بالإطلاع على القصيدة في :

The Complete Works, P. 1268 - 1283

الأسطورة في شعر شكسبير[1]

تبدأ الأسطورة مع تباشير يوم جديد ، فقد بكر أدونيس في الخروج إلى الصيد ، وقد أعد العدة للتوجه نحو الغابة كي يمارس هوايته المفضلة وهي القنص وتعقب الطرائد ، وإذا بربة الجمال فينوس تخف في إثره ، وقد شغفها حبا ، ولم تستطع مقاومة ما يتمتع به من جمال أو سحر أخاذين ، فإذا بها تتخلى عن تكبرها ودلالها ، وتحاول الاقتراب من أدونيس تستعطفه ، وتستميله إليها ، مفيضة في الحديث عن جماله وحسنه ، وكيف وقعت أسيرة هذا الجمال ، ومفتونة بذاك الحسن الذي يفوق كل ما عرف عنها من جمال وحسن وبهاء ، فحسنه يفوق حسن كل جميل ، بل إن حسنه قد بزّ حسنها بثلاثة أضعاف ، وحسنه هذا قد جعل الحور يشعرن بالخجل ، لأنه قد فاقهن جميعاً في مجال البهاء والجمال .

ثم دعته للترجل عن ظهر جواده ، والتخلي عما يتصف به من عجب وتكبر ، فإن فعل هذا كانت له جَدّ ممتنة ، وستكافئه على هذا الفضل

---

(١) أوجه شكري العميق للأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد الذي أتحفني بالاطلاع على ترجمة خطية منظومة أعدها لقصيدة شكسبير ، وقد دفع بها إلى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، كي تقوم بطبعها ، وما زالت تنتظر الدور في الطبع ، وكم آمل أن تخرج إلى القراء في القريب العاجل ، حتى يسعد قراء العربية بأول ترجمة عربية دقيقة لقصيدة شكسبير «فينوس وأدونيس» . وقد ساعدتني هذه الترجمة في فهم كثير من مواقف الحوار وصور الخيال التي غلق علي فهمها . فشكراً لسيادته ، وليوفقه الله إلى مزيد من الأعمال الجادة التي تثرى مكتبتنا العربية .

بالعديد من القبلات ، وستكون قبلاتها ذات أصناف وألوان ، فبعض القبلات قصار ، حتى تبدو عشر منها كواحدة ، وبعضها طوال ، فتبدو إحداها كعشرين قبلة متواصلة . وخير له أن يصرف النظر عن الصيد وما يتحمله من مشاق ومتاعب ، وأن يقضي الوقت بجانبها يمارسان الحب ، ويتبادلان العناق والقبلات .

تحدثت فينوس ، وما أكثر ما تحدثت ، وأدونيس غير عابىء بما تقول ، وكم توسلت ، وأدونيس غير آبه بتوسلاتها ، وكأنه قد وضع إصبعيه في أذنيه ، فلم يسمع أي شيء من إغراءاتها لذا همّ بالانصراف مخلفاً فينوس وراءه . ولكن هل تدعه فينوس يرحل دون أن تحقق بغيتها وتروي ظمأ عشقها ولو بقبلات قصار ؟

فجأة تستجمع فينوس ربة العشق والدلال كل قوتها ، تلك القوة التي تحركها الشهوة الطاغية ، وجذبت الفتى الغض الإيهاب جذبة عنيفة لم يستطع مقاومتها ، فإذا به ينبطح على الأرض ، وقد سرت في جسده برودة ورعدة ، حتى صار كقطعة من الثلج ، فهيهات أن تؤثر فيه نار العشق المتأججة في قلب فينوس ! وبسرعة ألقت فينوس بنفسها إلى جواره ، تداعبه وتلاطفه وتثيره ، ولكن دون جدوى ، لذا نراها تنتقل إلى اللوم والتأنيب لعله يلين ، ويشاركها العشق والهوى ، ولكن دون فائدة كذلك .

لم يعد أمامها من سبيل إلا أن تأخذ بزمام المبادرة ، إنها ظمئة للحب وهو لا يريد أن يروي ظمأها ، إذاً ما عليها إلا أن ترتوي بنفسها ، لذا سارعت بتطويقه بين ذراعيها ، وأمطرته بالعديد من القبلات ، قبلات على وجنتيه وقبلات على جبهته ، وأخيراً أطبقت على شفتيه ... ها هي الآن تروي غلتها وتشبع جوعها ...

كلما زادت قبلاتها وتنوعت ، زاد خجله وتصبب عرقه ، وتوردت

وجنتاه ، فزاده تورد الوجنتين إشراقاً وجمالاً وبهاءً ، وكلما زاد جماله زاد تعلق فينوس به ، وزادت من توسلاتها بأن يبادلها قبلة بقبلة ، وحباً بحب ، وشهوة بشهوة ، ولكن الفتى غارق في خجله ، مفعم في غضبه ، يحاول الفكاك ، ويروم الإفلات من قبضتها ، ولكن أنّى لها أن تتخلى عن صيدها الثمين ، ولم ترتوِ بعد ... !

ولما زاد أدونيس من حنقه وغضبه ، وضاعف من تبرمه ، وأصر على مغادرة المكان ، إذا بها تنام على صدره منتحبة باكية ، ثم أقسمت ألا تسمح له بمغادرة المكان إلا إذا مسح دموعها بشفتيه ، ولو بقبلة وحيدةيتيمة فأظهر أدونيس الموافقة على هذا العرض رغبة في الخلاص والفكاك ، وهمت فينوس بالاقتراب منه ووضع شفتيها على شفتيه ، وإذا به يشيح بشفتيه بعيداً عن شفتيها ، ويتراجع عن وعده بتقبيلها ...

وهنا تثور ثائرة فينوس التي شعرت بأن كرامتها قد أهينت ، فرمته بالبرود والجمود ، ومما قالته له : أأنت صخر صلد عديم الإحساس متبلد الشعور ؟ إنني لم أتمن غير قبلة واحدة ، فكيف تنأى بنفسك عن منحي إياها ؟ ماذا دهاك حتى تصيبك مثل هذه الرعشة ؟ أنا فينوس التي ينحني الجميع أمام جمالها ودلالها ، أنا فينوس التي أصبح إله الحرب أسيري ، لقد ركع هذا الإله الذي يثير الرعب في كل مكان عند أقدامي ، وكم جاءني متوسلاً أن يفوز مني بقبلة أو بلفتة ، لقد تخلى إله الحرب عن ترسه وخوذته أمام جمالي وجبروت حبي ، جاء وقد طرح عنه قوة غضبه وعنفوانه ، جاء وقد تعلم الرقص واللهو والمرح والمجون من أجلي ... أما أنت فلَكَ كل ما تريد وأكثر ،فلا داعي لهذا التكبر والغرور ؛ حقاً إن شفتيك تفضلان شفتيّ ، ولكن ماذا يضيرك لو منحتني قبلة واحدة ، وتلامست شفتاك وشفتاي ، ستكون القبلة لك مثلما هي لي . لـِمَ تنظر إلى الأرض ؟ لا داعي لهذا الخجل وذلك الاستحياء ، لترفع عينيك عن الأرض

ولتنظر إلى عينيّ ، أيها الفتى أتخجل من وجود أي رقيب ؟ ليس هناك من رقيب سوى الأشجار والورود ، ولكنه رقيب لا يدري من أمرنا شيئاً ، هيا اغتنم الفرصة ، ولا تجعلها تفلت من يديك ، فالفرصة كالزهرة إن لم تقطف في حينها سرعان ما تذبل وتموت .

على الرغم من هذه التوسلات ، فإن أدونيس على ما هو عليه من خجل وضيق وتبرم ، وتمنع وصد وهجران ، مما أشعرها بالضيق،ولكنها تمالكت نفسها ، وعادت إلى محاولة إغرائه بما تتمتع من جمال ودلال ونضارة ، لعله يتخلى عما يسيطر عليه من برود ، وينفض عن كاهله عدم الإحساس والجمود ، ومما قالته :

إنني ربة الجمال ، عيناي زرقاوان وجسدي يذوب نضارة ، ودمي يتوقد اشتعالاً ، ويدي ناعمة ندية ، هيا تحسسها بين يديك .. إنني طوع إشارتك ، ورهن بنانك ، مُرني أن أرقص ، وسأرقص كالجن لا أكل ولا أمل ، أرقص بخفة ورقة ، أرقص على الرمال دون أن أترك أثراً ، أرقص على الورود والحشائش دون أن يصيبها أي أذى ، إنني أخف من أي نسمة ، فالحب يرتقي بصاحبه إلى العلا ، إنه يرفع العاشق محلقاً في أجواز الفضاء ، إنه حمل خفيف ، وليس الحب حملاً ثقيلاً كما تظن أو تعتقد ، إن كنت تخجل من قبلة واحدة ، فهيا نغمض عيوننا ، حتى يصير النهار ليلاً ، وتكون على سجيتك ، فدع عنك خجلك وأعطني القبلة !

هل أنت نرسيس ؟ أراك هائماً بنفسك ؟ لتتحرر من ربقتها ، فما عاش من عاش لنفسه وحدها ، هيا تحرر من ربقتها ، اختلس حريتك. إن كل شيء في الوجود خلق لشيء آخر ،لقد خلقت المشاعل للاضاءة ، واللآلىء للزينة ، والطعام الشهي للتذوق ، والجمال للاستمتاع ، والأشجار

لحمل الثمار ، إن كل شيء يعيش لنفسه لا يستحق العيش ، فالبذور تخرج من البذور ، والجمال يولد من الجمال . أنت أُنجبت ، فمن الواجب عليك أن تُنجب كذلك ، لقد قضت الطبيعة أن تنجب ليعيش أصلابك من بعدك ، وهكذا يتم لك العيش من خلال أصلابك حتّى ولو أصاب الموت جسدك !

استمر الحال على هذا المنوال حتّى انتصف النهار واشتد القيظ ، وكان اشتداد القيظ قد زاد من لهيب العشق لدى فينوس ، بينما زاد من فورة الغضب لدى أدونيس ذلك الصيد الذي لم يتمكن بعد من الفكاك من الأسر ، وإذا به بعد أن نفذ صبره ، وفقد القدرة على الاستمرار في القيد ، ينهض واقفاً ، وقد استجمع كل قواه وأعلن ضجره بهذا العشق الآثم ، وعبر عن ضيقه بهذا الحب الثقيل على قلبه ، حيث قال : أي هوىً هذا ، ويلي من هذا الغرام ... ! أف لهذا العشق .. ! لقد كادت الشمس تحرق وجهي ! دعيني أواصل المسير ، لقد وقفتِ حائلاً بيني وبين ممارسة الصيد ؛ إنــه هوايتي ومقصدي ... !

« لقد عبر المعشوق الصغير عن ضيقه وضجره بصوت مسموع ، وصل إلى أذني « تيتان » الذي كان يرقب المنظر من بعيد ، حيث كان يحلق من فوقهما متمنياً أن يلقي بنفسه إلى جوار فينوس ، مكان ذلك المتكبر المتدلل بجماله وبهائه » .

غضبت فينوس من ذلك العذر التافه الذي أبداه أدونيس لكي يغادر المكان ، وعاتبته على هذا العذر ، الذي يسوقه لكي يتخلى عن رفقتها ، وعلى كلٍ فإنها ستجعل من شعرها مظلة تقيه أشعة الشمس ، وإذا لم يكن في هذه المظلة ما يكفيه ، ويحمي جبهته من وهج الشمس ، فستذرف من الدمع ما يستطيع به أن يبلل أي جزء من جسده تصيبه الشمس بالحرقــة والاحتراق .

ومع ما بذلته وما تبذله كي تستبقيه إلى جوارها ، فإنه لم يغيّر من موقفه ، ولم يبدل من مشاعره ، نحوها ، لذا نراها تعنفه على صده وجموده قائلة : هل أنت صخر صلد ؟ وهل أنت من فولاذ لا يلين ؟ لا ، إننك أصلد من الصخر ، وأقوى من الفولاذ ، ألست ابن امرأة ؟ أليس لديك شعور كي تحب ؟ لو كانت أمك قاسية القلب مثلك لما أنجبتك ! مـــاذا يضيرك لو بادلتني حباً بحب ؟ لتعطني قبلة ، قبلة واحدة . لن آخذها منك بلا مقابل ، أنني سأعيدها إليك ، بل سأعيدها اثنتين لا واحدة . قبلة بقبلة والأخرى نافلة ....

لزمت فينوس بعد ذلك الصمت برهة ، لقد أعيتها الحيل ، قالت كل ما يمكن قوله ، ولكن المعشوق الصغير ممعن في تيهه وعجبه ، ولكن على الرغم من كل صده ورده ، فلم تتمكن فينوس من الصبر كثيراً ، فإذا بها تحيطه بذراعيها وهو يحاول الفكاك والهرب بعيداً عنها ، فلا تمكنه من ذلك ، وتقول له : منذ أسرتك في أحضان هذين المعصمين ، سأكون حديقتك الفيحاء ، وتكون غزالي الشارد ، فارتع يا غزالي حيث شئت ، فلديك الجبال ، ولديك الوهاد ، ولديك الوديان ، ولديك شفتاي مرعى لك ، فإذا يبس هذا المرعى فانزل درجة حتّى تجد الألذ والأشهى ...

ما إن سمع أدونيس حديثها حتّى تبسم في استياء ، وما إن تبسم حتّى بدت في كل خد من خديه غمازة كلها حسن وبهاء ، وكم كانت غمازته رقيقة جميلة ، حتّى أن الحب نفسه تمنى أن تكون الغمازة قبراً له ، لأنه لو استقر في مثل هذا القبر ، ففيه حياته لا مماته ، لذا ما إن رأت فينوس غمازته حتّى زاد لهيب العشق في قلبها ، وتأجج ضرامه في فؤادها ، وتمنت أن يطفىء لهيب هذا العشق ببسمة ، ويخمد نار هذا الحب بقبلة ، ولكن كم كانت ربة العشق مسكينة ، لقد فعلت كل شيء ، وقالت

كل شيء ، فما عساها أن تفعل بعد ذلك ؟ لقد نهض الفتى المغرور واستعد للرحيل ، ولم يعد في مقدورها أن تستبقيه أكثر من ذلك ...

نهض الفتى ، ولكنه لم يستطع الرحيل ، حيث توافق وقت نهوضه مع مرور فرس لعوب من بعيد ، فرآها حصان أدونيس ، فإذا به ينسى الفارس والعاشقة ، وينطلق في إثر تلك الفرس محاولاً خطب ودها ، والظفر بحبها ، لعله يحظى بممارسة العشق معها ، وقد عرض الحصان كل ما لديه من رشاقة وقدرات يمكن أن يستميل بفضلها قلب تلك الفرس. وأخيراً نجح الحصان في الظفر بالفرس ، فإذا بهما ينتحيان بعيداً عن أدونيس وفينوس كي يمارسا الحب في معزلٍ عن عيون الرقباء ...

لم يجد أدونيس بداً من الجلوس ، وقد استشاط غيظاً مما ارتكبه حصانه من حماقة جعلته يبقى في إسار فينوس فترة أخرى من الزمن ، وذلك حتى يرتوي حصانه من نهر الحب ، ويعود بعد ذلك إلى فارسه ، أما فينوس فقد وجدت فيما فعله حصان أدونيس فرصة لكي تعاتب معشوقها على إمعانه في التمنع ، وتماديه في الامتناع عن ممارسة الحب ، فقالت له : ليكن ما فعله حصانك درساً لك ، فإذا كان ذلك الحصان الأعجمي لديه شعور وعاطفة ، فكيف بك يا أدونيس وقد عدمت كل شعور ، وحُرمت من كل عاطفة ، لتتعلم منه كيف يكون الحب ، وكيف تتجاوب مع عاشقك ، هيا يا أجمل من في الوجود نمارس الهوى . كم أتمنى أن أحظى منك ولو بنظرة واحدة خلابة . ثم أمسكت بكفه بين كفيها ، فانتفض أدونيس محاولاً نزع كفه ، ولكنها رفضت أن تترك يده ، وقالت إن كنت تريد كفك ، فأعطني قلبي الذي سلبتني إياه بحبك وجمالك الفتان ، ولكن أدونيس يصرخ في وجه فينوس مما به من حنق عظيم على ضياع حصانه وعدم تمكنه من ممارسة هوايته التي أتى من أجلها ، هواية الصيد وتعقب الطرائد في الغابة » ...

فقالت له : لا داعي للغضب مما فعله الحصان ، لقد فعل ما تمليه عليه الطبيعة ، إنه يفعل ما يشتهي ، لقد استجاب لداعي المحبة ، والمحبة جمرة لا بد من تبديدها ، أما إذا تُركت دون تبديد ، فإنها تؤجج في القلب ناراً يصعب إخمادها ، كما أن الرغبة لا حدود لها ، فإذا كان البحر يحده شاطئان ، فالرغبة بلا شاطئين ، ولهذا لا داعي للعجب مما فعله جوادك . بل يجب أن تلتمس له العذر ، وتتخذ مما فعل درساً ، فإن كنت أنا بكماء لم أستطع أن أعبر لك عن الحب والرغبة ، فإن ما فعله حصانك خير ناصح لك ، فقم وتعلم كيف يكون الهوى ، إنه درس جد واضح ، فإن أتقنته ذات يوم ، فلن يزول من الجوارح ، فهيا أقرضني قبلة !

ولكنه رد عليها بأنه لا يعرف الهوى ، وليس حريصاً على تعلمه وممارسته ، إنه مشغول بالصيد دون سواه ، لذا فهو حريص على تعقب الخنازير البرية وغيرها من الطرائد . كما أنه ليس معنياً بالاقتراض منها أو إقراضها ، لذا فمن الخير أن تتركه يمضي في طريقه ، بعد أن تعيد إليه حصانه الذي سار في إثر تلك الفرس اللعوب .

بعد أن أعيتها كل الحيل ، ولم تظفر بعد بقبلة تروي ظمأها ، رأت أن تجرب سلاحاً جديداً ، جربت سلاح الإغماءة ، حيث ادعت أنها قد غابت عن وعيها متأثرة بفظاظته معها ، لقد لجأت إلى هذه الخديعة كي تستبقيه بجوارها ، وكي يحاول التلطف معها والعمل على أن تستعيد رشدها . وقد نجحت هذه المكيدة ، فانكب أدونيس على ربة الجمال ينفخ فيها من أنفاسه لعلها تفيق ، فكانت أنفاسه بمثابة نفخ الروح في الجسد ، ثم أقبل عليها يربت على خدها في غير عنف ، ويثني أصابعها ويتحسس نبضها في لهفة وحيرة ، ثم يدلك شفتيها ، ثم يقبل عليها يلثمها ، كل هذا وفينوس تشعر بكل شيء ، ولكنها تتمادى في غيبوبتها حتى يضاعف من إقباله عليها ، وربما يحقق ما تصبو إليه ويقبل ثغرها ، وكيف تفيق وتضيع من يدها

هذه الفرصة الثمينة التي طالما تمنتها ؟ وكيف تعود إلى رشدها وقد أصبحت ليلة الأحزان نهاراً ساطعاً مشرقاً ؟

وأخيراً وبعد أن رشفت رشفة من نبع الحب ، بدأت تفتح عينيها المثقلتين بالهموم ، وتقول :

أين أنا ؟ أما زلت على الأرض راقدة ، أم أنني في أجواء الفضاء سابحة أم أنني لأمواج المحيط عابرة ؟ هل أنا على قيد الحياة ، أم أنني لهذه الحياة مودعة ؟ لا ، إنني ما زلت أحيا ، ولكن كم يعذبني الخوف من الموت فالموت جد منغص لهذه الحياة وذلك الوجود !

بعد ذلك طلبت منه أن يعقدا صفقة ، يتم بمقتضاها تبادل القبلات إلى يوم القيامة ، وكم هي على استعداد لأن تسلمه نفسها يفعل ما يريد ، على أن يتكرم عليها بقبلة في إثر قبلة ، وأنها لن تشق عليه ، ولن تكلفه أكثر من ذلك ، بل أنها ستأخذ منه قبلة وتعطيه بدلاً منها قبلات وقبلات ، ولن تحاسبه واحدة بواحدة ، فهيا أقبل وقبِّل ...

ولكن الفتى أدونيس يرفض هذا العرض السخي و يعتذر عن مطارحة الهوى ، لأنه ما زال غريراً لم يكتمل نضجه بعد ، وما دامت الثمرة فجة ، فإن قطفها يعد ضرباً من الخطأ ، ومن الخير لها أن تبحث عن ثمرة أخرى ناضجة تستطيع أن تتجاوب معها في تبادل العشق والمحبة .

ثم يحاول أدونيس التخلص من هذا الحب الثقيل ، وتلك المطاردة البغيضة إلى قلبه ، فتظاهر بأنه على استعداد لأن يعطيها قبلة إذا كان في ذلك السماح له بالانصراف ، فقال لها : إن قلت « عم مساء » ، فستجزين قبلة الرحيل ثمناً وعوضاً ، فإذا بها تسارع بالقول ، ثم الانقضاض عليه ومعانقته عناقاً طويلاً والغرق في قبلات وقبلات ، لقد عرض واحدة ، ولكن أنى لها أن تقنع بما عرض؟ لقد أطبقت على شفتيه بشفتيها ، وأخذت

ترشف قبلة في إثر قبلة ، وقد أحاطته بذراعيها حتى لا يستطيع الفرار بعيداً عنها ، إنها تشبه جائعاً نهماً يحاول أن يلتهم كل ما تصل إليه يداه ، فبدت شفتاها كغازٍ يتصرف كيف يشاء ، بينما كانت شفتاه كخاضع ذليل ليس أمامه إلّا أن ينفذ ما يراه ذلك الغازي المنتصر ... إنها تأخذ وتأخذ ولكن دون أن تروي ظمأها ، لأنها تشعر بأنه سرعان ما يمضي ويتركها فريسة للوحدة والشجون .

وأخيراً يستطيع أدونيس الإفلات من قبضتها ، ويهم بالمسير ، فإذا بها تسأله هل سيلتقيان غداً؟ إنها ستقضي الليلة أسيرة الأحزان والهواجس فهل يتعطف عليها ويأتي لوصالها في الغد ؟ ولكن المعشوق يعتذر بأنه لن يحضر حيث سيمارس في الغد ما حرمه اليوم ، سيمضي إلى الغابة يطارد الخنازير البرية ، وكفاه هوىً وعشقاً ، فهو لم يخلق لهما ، إنّ كل ما يملك عليه فؤاده هو أن يتعقب الطرائد ، ويطارد الخنازير وغيرها من الحيوانات الكاسرة ...

ولكن فينوس تنهض جزعة مضطربة ، إنها تخاف عليه من الخنازير الكاسرة ، إن لها أنياباً حادة ، فلا داعي لأن يلقي بنفسه في التهلكة ، لذا من الخير أن يبتعد عن صيد الخنازير ويبحث عن طرائد أخرى لا يكون في صيدها خطر داهم يحيق به ، إنه شيطان لعين يجب الاحتراز منه ، والابتعاد عن عرينه ، ها قد رأت في تعرضه للخنازير موته ، لهذا تنصحه بأن يبحث عن أرنب رعديد يطارده ، أو ثعلب جبان يصيده ، المهم أن يحاول صيد الضعيف من الطرائد ، دون التعرض للكاسر منها ، حتى لا يكون هو الصيد في النهاية .

ثم يمضي أدونيس مخلفاً وراءه فينوس ، والجزع يعتصر قلبهــا ، والخوف يدمي روحها ، لقد قضت ليلتها أسيرة الهواجس والأحزان ،

قضتها يقظة لا تنام، ثم أشرقت الشمس وبدأت الطيور تغرد فرحة بالنور، وزاد طلوع الصبح من جزع فينوس، إنها تسترق السمع لعلها تسمع صوت أدونيس أو صوت كلاب الصيد، أو صوت البوق يطلقه الصائد كي يصيب الفريسة بالذعر فتهب من مكمنها، فيحاول اللحاق بها، وإطلاق السهام في إثرها.

لم يمض طويل وقت حتى تعالت أصوات الكلاب بالنباح، ولكنه كان نباحاً مشوباً بالأسى والحزن، مختلطاً بالجزع والخوف، وهنا دب الهلع في قلب فينوس، مـــاذا حدث حتى يتعالى نباح الكلاب هكذا؟ هل ألم بأدونيس مكروه؟ هل حدث ما كانت تخشاه ولا تتمنى وقوعه؟ يا للوعة الفؤاد! ويا لحسرة القلب إنْ ألمَّ بالمعشوق أي مكروه!

لم تتمالك فينوس نفسها، ولم تقو على الصبر! لقد أسرعت إلى مكان الصوت، ماذا حدث؟ لقد حدث ما ألقى الرعب في قلبها: لقد رأت خنزيراً وقد خضبت شفتاه وفمه بالدم، فتصورت أن أدونيس قد مات، فسرت في جسدها رعدة وقشعريرة، وأخذت تسب الموت واصفةً إياه بالظالم، عدو العشق، ذي الروح العبوس! وتساءلت لماذا يطفىء الموت مصباح الجمال؟ ولماذا يسلب أنفاسه الزكية الحارة؟

وبينما كانت فينوس تنتحب وتبكي، سمعت صوت صياد يترامى إلى سمعها من بعيد، فتمنت أن يكون صاحب الصوت هو أدونيس، ولهذا بدأت توجه الحديث إلى الموت معتذرة عما بدر منها من قبل:

لا، أرجو الصفح والمعذرة، إنك ملك المقابر، إنك خيّر، كم كنت وجلة خائفة، ويقع ذنب هذا الخوف في رقبة ذلك الخنزير الذي ظننته قد اغتال أدونيس ومزقه إرباً...

وعلى ظن أن أدونيس ما زال حياً، إذا بها تحدث نفسها قائلة: كم

أنا أتخبط في غياهب الجهل ! أي ظن خرف ذلك الذي فكرت فيه ؟ ولماذا أبكي أدونيس ؟ هل يجوز البكاء على شخص لم يمت ؟ إنه لا يجب أن يموت إلا أن تنتهي الحياة الدنيا ، ويصير الكل عدماً . فإن يمت الجمال ، يعم الهرج والمرج الدنيا بأسرها !

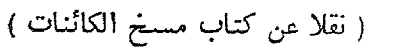
ومرة أخرى سمعت الصوت فتوجهت إلى مكانه ... فوجدت أدونيس قد مزقته أنياب الخنزير وقد تناثرت أشلاؤه ، لقد فتك به الخنزير بطريقة وحشية ، حتى بدا كل جرح وكأنه ثلاثة جروح ، وبدا كل طرف منه وكأنه قد مزق إلى قطعتين أو ثلاث . فحدثت نفسها قائلة :

إن لساني لا يقوى على وصف ما ألم بأدونيس ، يا لهولي ! لقد رأيت أدونيس يقتل مرتين [1] واحسرتاه ! أيتها الدنيا الكئيبة ، أي جوهرة ضاعت من اليد ! من ذا يحظى بمثل هذا الوجه الصبوح فيستحق أن يعيش من بعده ؟ وأي صوت ينساب عذباً كلحن موسيقي يستحق أن يبقى مكان ذلك الصوت ، صوت أدونيس ؟ ماذا بقي للدنيا تتباهى بجماله بعد أدونيس؟ .. لتحرم كل الرؤوس من أن تضع القلانس من بعده ، ولتحرم كل الوجوه من أن تتزين ، ولكن كيف قتله الخنزير ؟ ربما أراد الخنزير أن يقبل وجهه ولكن من شدة هيامه به وتعلقه بحبه مزقه دون أن يدرك ما يفعل ! إنني أعترف بأنني لو كنت أملك أسناناً كأنياب الخنزير لكنت قتلت أدونيس ...

سقطت فينوس على الأرض ، ولطخت وجهها بدمائه المراقة على الأرض ، كم هالها أن ترى شفتيه الياقوتيتين اللتين طالما تمنت أن ترتشف الحب والقبلات منهما ، قد فقدتا لونهما بعد أن اختلطت حمرتها بصفرة وبياض ... بعد ذلك بدأت فينوس تلعن الحب والعشق ، وما يسببانه من مشقة وحرمان ، ومما قالته :

---

(١) إشارة إلى أنها رأت مقتله في الحلم قبل رحيله ، وقد حاولت منعه من التعرض للخنزير ، ولكنه أبى .



١٠٣ - مصرع أدونيس

(نقلا عن كتاب مسخ الكائنات)

العشق قرين الهموم والأحزان ، إنه مذرف للدموع... بدايته حلوة، أما نهايته فكلها مرارة وأية مرارة...إنه لا يدوم على حال واحدةمطلقاً، فإما إلى إفراط أو إلى تفريط ، ولا يمكن أن تقارن لذة العشق بما يسببه من محن وآلام وهموم ! إنه لا ثبات له ، إنه مخادع مخاتـــل ، عندما يصيب برعمة لم تتفتح بعد بالذبول ، فإنه يحيل جذورها إلى نبات سام . ويحيل أغصانها إلى نبات محمل بالعديد من الثمرات الكاذبة الخادعة التي تخدع الناس بحسن منظرها مع سوء مخبرها. العشق يضعف أقوى الرجال، العشق يصيب العقلاء بالصمت ، بينما يجعل الحمقى يـرغون و يزبدون . العشق يسبب الوهن ، وينشر الاضطراب والمحن ... العشق يحيل القادر معدماً ، ويحيل العاجز قادراً غنياً ، العشق يحيل الشاب هرماً ، كما يحيل الشيخ طفلاً ! العشق يثير الحروب والنزال ، العشق يجعل الأب والابن يتعاركان ، إنه مرتبط بعدم الرضا وعدم الراحة ، كما ترتبط المواد الجافة القابلة للاحتراق بالاحتراق ...

وبعد وقت ليس بالطويل يتسامى جسد أدونيس كأنه البخار ، ويسرع بالتلاشي ، ولكن دماءه الزكية التي سالت على الأرض سرعان ما تتحول إلى زهرة أرجوانية ، إنها زهرة الشقائق ، فانحنت فينوس كي تشم رائحتها الزكية ، إنها تبدو وكأنها تتنسم من روح أدونيس السرمدي ، إنه سيظل حياً ما دامت هذه الزهرة الأرجوانية تنبت في الوجود !

ثم تناجي فينوس زهرة الشقائق كما كانت تناجي أدونيس ، ولكن أنّى لهذه المناجاة أن تخفف من لوعة الفراق ؟ إنها لم تعد تقوى على البقاء وقد تسامى أدونيس وتحول بخاراً تجاوز الأرض إلى الفضاء ، لقد آن وقت الرحيل ، لذا جاءت اليمامات الموكلات برفع مركبة فينوس إلى الفضاء. ركبت فينوس كسيرة البال مكلومة الفؤاد ، وسرعان ما انطلقت المركبة

متجهة بفينوس صوب بافوس [1] لقد عزمت ربة العشق والدلال على أن تتوارى هناك ولا يراها أحد بعد ذلك .

★ ★ ★

وإلى هنا تنتهي الأسطورة كما نظمها شكسبير ، والآن نتساءل : ماذا أخذ شكسبير عن أسطورة أوفيد ، وماذا أضاف إليها من قريحته وخياله ؟

---

(١) يوجد قصر فينوس في بافوس بجزيرة قبرص ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل الأول أثناء الحديث عن فينوس .

مدى اتفاق أسطورة شكسبير مع أسطورة أوفيد

بعد أن استعرضنا الأسطورة عند أوفيد في الفصل الأول ، ثم أوردنا ملخصاً وافياً للأسطورة كما نظمها شكسبير في هذا الفصل ، ندرك أن الخطوط العريضة للأسطورة واحدة ، فقد وافق شكسبير أوفيد في أن فينوس قد هبطت من سمائها كي تكون على الأرض قريبة من ذلك الفتى الممتلىء شباباً وحيوية ونضارة ، فما إن رأته حتى افتتنت به وبجماله ونسيت كل ما عداه ، نسيت عالمها العلوي ، نسيت ما تتمتع به من جمال ودلال وكبرياء ، نسيت أن الآلهة جميعاً وعلى رأسهم إله الحرب مارس رهن إشارة واحدة من اصبعها لكي يركعوا تحت قدميها أملاً في نظرة ، وطمعاً في قبلة ، نسيت كل هذا وجاءت إلى أدونيس ترجوه أن يبادلها شعوراً بشعور وهوى بهوى ، تسأله أن يتخلى عن كبريائه ودلاله ويتعطف عليها بقبلة واحدة تروي ظمأها للحب ، وتسكن جراح فؤادها المكلوم بصده وتمنعه وعلى الرغم مما قالته وبذلته ، فإن الفتى يفضل الصيد على الهوى ، ويؤثر الانطلاق في إثر الطرائد على متابعة الغزل وارتشاف القبلات .

كما اتفق العملان في محاولة فينوس إثناء أدونيس عن متابعة صيد الخنازير وغيرها من الحيوانات المتوحشة التي تورد صائدها مورد الهلاك والقتل . اتفقا في ذلك ، وإن اختلفا في السبب ، ففينوس لدى أوفيد تحمل في قلبها عداءً قديماً لهذه الحيوانات المتوحشة التي مُسخت أُسوداً وحيوانات

مفترسة بسبب نكرانها لجميل أسدته إليها فينوس ، وقد بدا هذا السبب واضحاً فيما روته فينوس لأدونيس من أخبار أتالانتا وهيبومينيس [١] ، ولهذا فهي ترجوه ألا يتعرض لهذه الحيوانات المفترسة ، حتّى لا تنتقم تلك الحيوانات من فينوس بقتل حبيبها أدونيس . أما شكسبير فقد علل إلحاح فينوس على أدونيس في ألا يتعرض لهذه الحيوانات الكاسرة ، بأنها رأت حلماً بأن في هذا العمل نهايته ، وأن دماءه ستسيل على الأرض وتتحول في النهاية إلى زهرة حمراء ، ولذا فهي ترجوه بألا يذهب حتّى لا تفقده . وقد وجد شكسبير في هذا الموقف فرصته المواتية ليتحدث عن رياضة صيد الأرانب البرية ، تلك الرياضة التي كان يمارسها في الأماكن القريبة من قريته ستراتفورد قبل رحيله عنها وتوجهه إلى لندن [٢] .

ولكن على الرغم من كل هذه التحذيرات – في كلا العملين – فقد أصر أدونيس على مطاردة الخنزير وتعقبه ، ولكنه – كما جاء لدى كل من أوفيد وشكسبير ، لم يحسن تصويب السهام ، ولم يصب من الخنزير مقتلاً ، لذا سرعان ما استدار الخنزير وفتك بأدونيس ، وأرداه مضرجاً في دمائه ، وظل الجرح يدمي حتّى لفظ أدونيس أنفاسه الأخيرة مودعاً الحياة ، وهنا أدركت فينوس أن مكروهاً ألمّ بحبيبها سواء تولد هذا الإدراك بعد سماعها صرخة مدوية أطلقها أدونيس عندما طعنه الخنزير بنابيه ، كما قال أوفيد ، أو عندما سمعت كلاب الصيد المرافقة لأدونيس تنبح نباحاً يقطر أسى ولوعة ، كما ذكر شكسبير في قصيدته . فعادت

---

(١) راجع الأسطورة بكتاب مسخ الكائنات ، ص ٢٩٨ – ٣٠٢ .

(٢) يقال إن رحيل شكسبير إلى لندن كان هروباً من القصاص الذي توعده به السير توماس لوسي لأنه علم أن شكسبير يطارد الطرائد في أرضه الواقعة بجوار ستراتفورد. العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ٣٦ .

أدراجها إلى حيث ينطلق الصوت والنباح ، فوجدت أدونيس مضرجاً في دمائه ، فانتابها شعور بالألم والحسرة . وشقت ثوبها عن صدرها ، ولكن هيهات أن يعود أدونيس إلى سيرته الأولى شاباً يافعاً تفتتن به فينوس وتلهج في بثه الهوى وتطارحه الغرام ، وترتشف القبلات من شفتيه الياقوتيتين .

كما اتفقت الأسطورتان في توجيه اللوم إلى الأقدار أو الموت لأنهما انتزعا أدونيس من فينوس ، ثم ما أبدته فينوس من تحد لهذه الأقدار ، وأنها لن تسمح لها بأن تجردها تماماً من هذا الحبيب ، بل إنها ستبعث فيه الحياة من جديد ، حتى ولو كان هذا البعث في صورة مغايرة لطبيعته «الإنسانية» الأولى، لذا سرعان ما صبت فينوس على دم أدونيس رحيق زهرة عطرة ، فتحولت الدماء إلى زهرة أرجوانية رقيقة ، إنها زهرة الشقائق . وهكذا عاد أدونيس إلى الحياة ، عاد لكي تتنسم فينوس رائحته العطرة فتحيي فيها ذكرى حبه وعشقه ، ولكي تروي هذه الشقائق قصة هذين العاشقين عبر الأيام والعصور .



وهكذا نرى أن الأسطورة في قصيدة شكسبير قد اتفقت في خطوطها العريضة مع الأسطورة كما رواها أوفيد في كتابه « مسخ الكائنات » ، ولكننا إن نقرأ كتاب مسخ الكائنات كله ندرك أن شكسبير قد تأثر في نظمه للأسطورة بما ورد في أساطير أخرى جاءت في نفس الكتاب لأوفيد، فحديث شكسبير عن لجوء فينوس إلى استخدام القوة والعنف والانقضاض على أدونيس تقبيلاً واحتضاناً ، وكذلك الحديث عن تمنع أدونيس عن مطارحتها الهوى لأنه ما زال يافعاً فجاً لم ينضج بعد ، كل هذا مأخوذ عن أسطورة سالماكيس وهرمافروديتوس التي رواها أوفيد في كتابه الرابع

من مسخ الكائنات ، وملخص الأسطورة أن هرمافروديتوس ابن فينوس من ميركوريوس قد خرج يجوب البحار والبحيرات بحثاً عن مكان يستحم فيه لا تكتنفه الأعشاب ولا النباتات الشائكة التي تنتشر عادة حول المستنقعات ، وما إن وصل إلى مدن ليسيا وبلاد الكارمين القريبة منها حتى وجد بركة صفت مياهها وبان قاعها ، فلزم المكان وأراد أن يستمتع بمياه هذه البركة ، وهنا رأته حورية تعيش في مياه البركة ، وكانت تدعى سالماكيس ، فأعجبت بشبابه وافتتنت بجماله . اقتربت منه وطالبته بأن يتبادلا الهوى وأن يُنعم عليها بقبلة ، ولكن الفتى الغض الإيهاب تورد وجهه إذ لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد من هذا التورد جماله ، فأضحت وجنتاه في لون التفاح الناضج المتدلي من شجرة تغمرها أشعة الشمس ، أو لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أو في لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تصلك الصنوج البرونزية لتدفع عنه الخسوف . وألحت الحورية لتقبله ولو قبلات أخوية ، وحاولت لف ذراعيها حول عنقه العاجي ، ولكنه نهرها وأخبرها بأنه عازم على الرحيل إن لم تكف عما تفعله . وهنا توارت سالماكيس حتى خلع الفتى ملابسه ، وما إن فعل حتى ذهب جماله العاري بلب سالماكيس ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرقت عشقاً ورغبة عارمة في أن تضمه إلى صدرها ، وما إن نزل إلى الماء حتى نزلت في إثره صائحة ، لقد انتصرت وظفرت بك ، وأمسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة ، وظلت تعانقه حتى اتحد جسداهما الملتصقان ، وأصبحا شخصاً واحداً .[1]

ولعل قول شكسبير على لسان فينوس « ... يا رخاماً بارداً لا حس له،وصنماً ميتاً جميل الزخرف،بل أيها التمثال الذي لا يسر إلا العين ... » (بيت ٢١٢ ــ ٢١٣) مأخوذ عن قصة بيجماليون وتعلقه بالتمثال الذي

---

(١) راجع الأسطورة في الكتاب الرابع من مسخ الكائنات ، ص : ١٤٤ – ١٤٨ .

صنعه ، وكم تمنى لشدة هيامه بالتمثال أن ينبض بالحياة ، فاستجابت فينوس لضراعته ودبت الحياة في التمثال فأصبح فتاة فاتنة تبز أترابها رقة وجمالاً ، فنعم بيجماليون بالحب معها ، والتمتع بالجمال الذي صنعه [1] .

ونلاحظ كذلك تأثر شكسبير في وصفه للخنزير وكيف أخفق أدونيس في صيده ، بما جاء في أسطورة «الخنزير الكاليدوني وملياجر» بالكتاب الثامن من مسخ الكائنات [2] ، فقد وصف أوفيد الخنزير بقوله : « ... **كانت عيناه الدمويتان ترسلان شرراً ، وكان عنقه الضخم الصلب يشمخ عالياً ، يغطي جلده شعر خشن نافر كالرماح ، خواره مجلجل ، يلطخ كتفيه العريضين زبد يغلي ، وأنيابه كأنياب الفيل الهندي ، تنبعث نار من بين فكيه ، وتحرق أنفاسه أوراق الأشجار ...** » [3]

كما وصف أوفيد فتك الخنزير بأنكايوس الأركادي عندما اندفع هذا الأخير يضرب الخنزير مغروراً غرور كلماتـه ، ولكن « **الخنزير البري تنبه لهذه الهجمة الجريئة وأعمل أنيابه في الجزء الأعلى من حقـو أنكايوس سالكاً بذلك أقرب طريق يصل به إلى الموت ، فتهاوى أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلت وسط بركة من الدماء ، وأصبحت الأرض مغرقة بذلك الجدول الأحمر** » [4] وهذا الوصف هو نفسه الذي ذكره شكسبير في كيفية انقضاض الخنزير على أدونيس والفتك به وطرحه أرضاً مدرجاً في دمائه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة نتيجة تهوره وتعرضه للخنزير البري

---

(١) راجع أسطورة بيجماليون بالكتاب العاشر من مسخ الكائنات ، ص : ٢٨٧ — ٢٩٠ .

(٢) راجع الأسطورة في الكتاب الثامن من مسخ الكائنات ص ٢٣٤ — ٢٤٤

(٣) المرجع السابق ص : ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٢٣٨ .

دون معرفة لقدراته وقدرات الخنزير البري التي تفوق قدرات هذا الصياد الغض الإيهاب ، قليل التجربة في اصطياد مثل هذه الطرائد الكاسرة .

وأخيراً تأتي إشارة شكسبير إلى تودد مارس إله الحرب لفينوس ، وهي الإشارة التي تحاول بها فينوس حث أدونيس على أن ينال منها ما يحاول الجميع – وعلى رأسهم مارس إله الحرب – الوصول إليه ، ولكنه مع هذا يأبى . وذكر ما كان بين فينوس ومارس جاء ضمن الكتاب الرابع من مسخ الكائنات تحت عنوان : « فينوس ومارس . ليوكوثوي كليتيه » [1]

★ ★ ★

إذا كان شكسبير قد أخذ خطوطه العريضة عن أسطورة أوفيد « أدونيس وفينوس » ، كما أخذ بعض التفصيلات من أساطير أخرى ، أوردها أوفيد في كتابه مسخ الكائنات ، فماذا أبدع شكسبير في قصيدته ؟

---

(١) راجع الأسطورة في الكتاب الرابع من مسخ الكائنات ، ص : ١٤١ – ١٤ .

إبداع شكسبير

على الرغم من أن شكسبير أخذ الخطوط العريضة للأسطورة عن مسخ الأرواح لأوفيد ، إلا أنه لم يكن مجرد مترجم لهذه الأسطورة ، بل كان مؤلفاً جديداً لها ومضيفاً إلى خطوطها العريضة الكثير من الحوادث والمواقف الدرامية ، والصور والأخيلة ، مما يجعل القارىء يشعر بأنه أمام عمل أدبي أبدع إخراجه ، وأُحسن خلقه ، ذلك الخلق الجديد الذي يختلف عن الأصل في كثير من حوادثه ومواقفه ، ومظاهر هذا الاختلاف عديدة منها :

على عادة كتاب المسرح ، بدأ شكسبير الأسطورة قرب نهايتها ، ليتحقق لهذا العمل « وحدة الزمن » ، فلم يتحدث عن تعارف سابق تم بين فينوس وأدونيس ، كما جاء في أوفيد، ولم يشر إلى شعور بالحقد والضغينة يملأ قلب أدونيس تجاه فينوس بسبب ما أثارته من فضيحة كبرى لأمه عندما هامت حباً بأبيها ، فنتج عن هذا الحب الآثم أدونيس نفسه ، كل هذا وغيره من الأحداث التي أشار إليها أوفيد في هذه الأسطورة أو في غيرها من الأساطير التي تحدثت عن مولد أدونيس ، ضرب صفحاً عنها شكسبير وبدأ قصته وكأن شيئاً من هذا كله لم يحدث ، بدأها بخروج أدونيس إلى الغابة يبغي الصيد وتعقب الطرائد ، وإذا بربة الجمال والدلال فينوس تقع عيناها على وجهه الفتان ، فيسحرها ويأخذ بلبها ، فإذا بها تتخلى عن

كل ملكوتها وكبريائها وتنزل من عليائها لتتعرف على هذا الشاب اليافع ، لعله يستجيب لجمالها ويخضع لدلالها ، فتفوز منه بما منّت النفس به من قبلات وأحضان وإشباع شهوة نهمة . وهكذا فوجىء أدونيس بها ولم يكن يعرفها من قبل ، ولم يكن يتوقع أن تعترض طريقه وتؤخره عن ممارسة رياضته المحببة .

★ ★ ★

صور شكسبير أدونيس شاباً إنجليزياً يمارس رياضة الفروسية لذا فهو يرفض الوقوع في الرذيلة ، ويأبى الخضوع للغواية [1] ولهذا نرى الشاعر يركز طوال القصيدة على ما أظهره أدونيس من صرامة وإباء وشمم وتصد للإغراء الرخيص ، وأن كل ما يشغله ويملأ عليه فكره هو ممارسة رياضته المحببة ، رياضة الصيد وتعقب الطرائد . وهنا تبدو الصورة عند شكسبير جد مختلفة عما وجدناه عند أوفيد ، فقد بدأ أوفيد أسطورته ، بأن فينوس أصبحت رفيقة أدونيس تصحبه أنى ذهب ، وأنها تركت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجمالها وزينتها ، وكانت تجوب الغابات والجبال مشمرة ثيابها لتشارك أدونيس رياضة الصيد ، وإذا ما تعبا تفيآ ظل شجرة ليضطجعا تحتها يتناجيان ويتبادلان القبلات بعد القبلات . أما في قصيدة شكسبير فلم يكن بين العاشقة والمعشوقة أية صلة من هذه ، ولم يحدث أن اتفقا على شيء ، فكل منهما نقيض للآخر ، إنها تمثل اللجاجة وهو يمثل الصد والنفور . وإذا كانا عند أوفيد قد تبادلا العديد من القبلات ، فإنها عند شكسبير مستعدة لأن تضحي بكل شيء في مقابل قبلة واحدة . لذا نرى فينوس شكسبير تفقد صبرها أحياناً وتتذكر ما هي فيه من ذلة وانكسار ، فتوجه

---

(١) History of English Literature, p. 314

اللوم إلى أدونيس لعله يرأف بحالها ، إذ ليس من شيمة الفارس أن يكون ظلوماً ، ومما قالته فينوس في عتاب أدونيس :

أمتمرد إلى هذا الحد ؟ أأنت صلد كالصخر ، أأنت من فولاذ ؟
إنك أصلد من الصخر ، لأنه يلين تحت المطر
ألست ابن امرأة ؟ أليس لديك شعور كي تحب ؟
...
لو كان لأمك قلب صلد مثلك
لما أنجبتك ، بل ماتت في وحشتها مثلك

(١٩٩ – ٢٠٤)

فعلت كل هذا ، وقالت وتضرعت ولكنه على صده مقيم ، وعلى نفوره عاقد العزم لا يلين ، إنه فارس وليس معنياً بالعشق والهوى ، إنه « لا يعرف الهوى وليس حريصاً على تعلمه وممارسته ، إنه مشغول بالصيد دون سواه ، كم هو حريص – حرص الفارس والرياضي – على تعقب الخنازير البرية وغيرها من الطرائد ، إنه ليس معنياً بالاقتراض منها أو إقراضها ، لا جدوى من كل ما تقول أو تفعل ، لذا من الخير أن تتركه يمضي في طريقه .... »

ولكن على الرغم من نفوره من لجاجتها ، وضيقه بدلالها وتبرمه من عشقها ، فإنه الفارس الذي لا يضن بتقديم العون إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، حتى ولو كان طالب العون عدوا له ، فما إن تظاهرت فينوس بأنه أغشي عليها لم يشأ الفارس أدونيس أن يتركها ويرحل ، وهـو الحريص على الرحيل منذ اللحظة الأولى للقائهما ، ولكنه ينسى كل رياضته وكل شيء ، ويحاول تقديم العون لفينوس حتى تثوب إلى رشدها ، وتفيق من إغماءتها ، ثم يرحل بعد أن يطمئن عليها ، ولكنها كانت ماكرة ، فهي

تعرف أن من أخلاق الفارس ألا يتخلى عن مريض يحتاج إلى دواء ، لذا ادعت الإغماءة، فانكب أدونيس عليها ينفخ فيها من أنفاسه لعلها تفيق، وأقبل يربت على خدها في غير عنف ، ويثني أصابعها ويتحسس نبضها في لهفة وحيرة ، ثم يدلك شفتيها تارة ، وتارة أخرى يلثمها ، كل هذا والغانية متمادية في غيبوبتها حتى يضاعف من إقباله عليها ، والاهتمام بها وأملاً في استبقائه أطول فترة ممكنة . وهكذا أملت عليه أخلاق الفارس أن يبقى معها حتى تفيق ، ويطمئن عليها ، وبعد ذلك يمكنه أن يطلب الإذن بالرحيل .

وموقف الفارس هذا يمثل ظاهرة عامة في المجتمع الإنجليزي في ذلك الوقت ، فركوب الخيل وتعقب الطرائد كانت من الرياضات المنتشرة في إنجلترا على أيام الشاعر، وقد سبق الإشارة إلى أن شكسبير نفسه كان يمارس هذه الرياضة ، حتى قيل بأنه اضطر إلى الرحيل عن ستراتفورد والتوجه إلى لندن خشية من عقاب السير توماس لوسي الذي اكتشف أن شكسبير يركب حصانه ويتعقب الطرائد في أراضيه المتاخمة لستراتفورد ، ولعل هذا هو الذي حدا بشكسبير أن يذكر على لسان فينوس الخوف من الرقيب وذلك عندما تقول له :

كن جريئاً وتقدم صوب الميدان ، فليس هناك من رقيب
وهذا البنفسج الأزرق الذي يحيط بنا
أنى له أن يشي بنا ، أو يدرك ما نقول ؟

(١٢٤ — ١٢٦)

ونظراً لكون رياضة الصيد كانت سمة العصر والمنطقة في ذلك الوقت فقد فسّر ألين Allen القصيدة كلها من منطلق الصيد ، ففينوس تود اصطياد أدونيس ، شباكها في ذلك القوة والشهوة ، وأدونيس يحاول

اصطياد الخنزير . والخنزير يمثل دور الصياد الأزلي ، دور الموت الذي يصيد كل الخلائق ، ويرديهم قتلى [1] .

كان شكسبير في قصيدة فينوس وأدونيس متأثراً **بطبيعة ستراتفورد** في تصويره لأحداث الأسطورة،فحديثه عن صيد الأرانب البرية ومصاحبة كلاب الصيد للصائد،خير دليل على معرفة شكسبير لأصول هذه الرياضة بل وممارستها في بيئته الريفية قبل الانتقال إلى لندن والاشتغال بالمسرح تمثيلاً وتأليفاً ، وتعتبر هذه الأبيات التي تعرض فيها لصيد الأرنب البري (٦٧٣ — ٧٠٨) من أمتع أبيات القصيدة في رأي بعض النقاد [2] . كما أخذ من هذه البيئة الريفية بعض صوره الجميلة ، ومنها تلك الصورة التي يشبه فيها أدونيس وقد وقع أسيراً بين ذراعي فينوس لا يستطيع منها فكاكاً،بعصفور صغير وقع في الشباك،فمهما حاول الإفلات والتخبط بيديه يمنة ويسرة ، فهو عاجز عن الخلاص وتحطيم هذه الشباك :

انظر كيف يتخبط العصفور وسط الشباك
هكذا أصبح أدونيس بين ذراعيها لا يوتى حراكاً
وكم زاده الخجل والمقاومة المغلولة غيظاً وحنقاً

(٦٧ — ٦٩)

ومن الصور الجميلة التي رسمها شكسبير بتأثير من طبيعة الريف ، وأماكن الصيد ما قاله على لسان فينوس وهي تشجع أدونيس كي ينعم بكل جزء من جسمها :

ثم تقول : منذ أسرتك هكذا

---

(١) J.W. Lever : The Poems and Music. (Shak. Survey. 15) p. 21

(٢) Shakespeare Encyclopeadia, p. 929.

وسط هذه الشباك العاجية
سأكون لك الخميلة وأنت ظبيها
فارع حيث تشاء ، فهاك الجبال وهاك الوديان
وارتو من شفتي ، ولكن إن جفت تلك الهضاب
فانزل قليلاً حيث تجد النبع الصافي
وخلال هذه الحدود ستجد كل ما تبتغي
فالمراعي الخضراء ، والسهول الفيحاء
والهضاب النامية المستديرة ، والغابات الكثيفة الظليلة
تقيك هبوب العواصف وهطول الأمطار
فلتكن ظبيي ما دمت لك الخميلة !

(٢٢٩ — ٢٤٠)

وخير ما يمثل هذه الطبيعة حديث شكسبير عن الخيل وكيف تتعامل، والطريقة التي يستثير بها الذكر أنثاه كي تقبل عليه ويقبل عليها . وقد فصّل الشاعر الحديث عن عالم الخيل عندما تحدث عما فعله حصان أدونيس حينما لمح من بعيد فرساً لعوبة تتهادى في مشيتها، فإذا بهذا الحصان ينسى صاحبه ويعدو حتى يلحق بهذه الفرس الفاتنة ، وما إن يصل إليها حتى يجدّ في عرض رشاقته وقدراته على الحركة والاستثارة ، ولا يتوقف عن هذا العرض إلا بعد أن نجح في مسعاه ، فأقبلت عليه الفرس وأقبل عليها ، وبدءا في ممارسة الحب ، وتذوقا طعم الهوى ، ثم فعلا ما تمليه عليهما طبيعتهما الحيوانية دون خجل أو مداراة . ومن الملاحظ أن حديث شكسبير في هذا المجال حديث خبير ، ولا غرو في ذلك فقد كان والد شكسبير يعمل بتربية الخيول ، وشاركه شكسبير في هذا العمل ردحاً من الزمن قبل أن يترك

قريته ستراتفورد ، ويرحل إلى لندن [١] ، كما أن شكسبير قد كان مكلفاً في الأيام الأولى من رحيله إلى لندن بالإشراف على جياد أولئك السادة الذين يفدون إلى المسرح ، حيث كانوا يدخلون قاعة المسرح تاركين جيادهم في عهدة الغلام وليام شكسبير لكي يقوم على حراستها ، والعناية بها حتى ينتهي العرض المسرحي ، وما كان يفوته — كما يقول العقاد — وهو يحرس تلك الخيول أن يسمع من أخبارها ومزاياها ما يغنيه في كتابة ما كتبه عن ألعاب الفروسية وأحاديث الفرسان [٢] .

وعادة تعيش القواقع في مناطق الأحراش والغابات التي يؤمها الصيادون لتعقب الطرائد ، ولا شك أن شكسبير صاحب الحس المرهف قد رأى هذه القواقع وشاهد ماذا تصنع إذا ما استشعرت أي خطر يحدق بها . فقد وصف لنا هذا المشهد في القصيدة ، حيث قال :

.. أو مثل القوقعة إذا ما اصطدم قرناها الرقيقان بأي شيء
فإنها تسارع بالتقلص والانكماش داخل محارتها أسيرة الحزن والجوى
وهناك تقبع وديعة مستكينة وسط الظلام والدجى
ثم بعد طول خوف ورهبة تعاود الخروج مرة أخرى

(١٠٣٣ — ١٠٣٦)



وعلى الرغم من أن أصول الأسطورة تحكي حدثاً قديماً ، ومنقولة عن الشاعر الروماني أوفيد الذي عاش في الفترة ما بين ٤٣ ق . م و ١٨ م ، إلا أن شكسبير عالج الأسطورة بروح عصره ، عصر النهضة ، فمن سمات

---

(١) العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ١٩٨ .

هذا العصر إحياء العلوم والفنون والآداب ، لذا شارك شكسبير في هذا الإحياء — مثله في ذلك مثل مارلو وتوماس لودج وغيرهما من أدباء إنجلترا الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي — شارك بالعديد من أعماله المسرحية والروائية ، بل إن اختيار موضوع القصيدة هو إحياء لعمل أدبي نظمه أوفيد قبله بستة عشر قرناً من الزمان ، فحاول شكسبير أن يعيد الحياة إلى فينوس وأدونيس ، كما حاول أن يعيد الحياة كذلك إلى لوكريس في قصيدته الثانية التي قدمها هي الأخرى باسم اللورد سوثامبتون .

ومن سمات هذا العصر كذلك الدعوة إلى **الإنسانية** « Humanism » ، تلك الدعوة التي تعترف بحق الإنسان في التفكير ، وحقه في الحياة والتمتع بكل ما فيها من مباهج ومتع ، وخير متعة يسعد بها الإنسان في ذلك الوقت متعة الفروسية وتعقب الطرائد ، وقد كانت رياضة الفروسية أمراً مشاعاً في عصر الملكة اليزابث الأولى (١٥٥٨ — ١٦٠٣ م) ، وكان قيام ملكة على العرش حافزاً قوياً بين النبلاء للتنافس في النخوة والبطولة وبراعة الفروسية والصيد والمسابقة ، ومن لم تكن له ثروة النبيل ، فلا حجاب بينه وبين ساحات الطرد والصيد ، وحلبات المبارزة والسباق [1] . وهكذا اختار شكسبير شخصية أدونيس ليتحدث من خلاله عن كل شاب إنجليزي مولع بالفروسية ، حريص على التمتع بمباهج الطبيعة في الغابات والأحراش حيث تمارس رياضة الصيد وتعقب الفرائس .

وإذا كانت الدعوة الى الإنسانية تؤمن بأن يتصرف الإنسان وفق سجيته ، نافضاً عن نفسه قيود المذهب والمجتمع ، أي أن يكون الإنسان إنساناً بكل عيوبه ومحاسنه ، فإن شكسبير قد جعل فينوس تتصرف كيفما شاءت دون قيود

---

(١) التعريف بشكسبير : ص ١٩٨ .

ودون اهتمام بأي رقيب ، ولم يكن شكسبير يعني بذلك الدفاع عن عهر فينوس ، بل كان هدفه أن يقدم نموذجاً بشرياً يقابل النموذج الآخر الذي اتخذ المثالية الأخلاقية نمطاً سلوكياً يحرص عليه ولا يحيد عنه ، وكأنه يريد القول هكذا يكون البشر ، منهم الخير والخبيث ، ومنهم العظيم والحقير ، ومنهم الطامع والقانع إلى غير ذلك من الأنماط الإنسانية المختلفة .

ومن سمات ذلك العصر أيضاً تفشي ظاهرة الربا والإقراض بفائدة، تلك الظاهرة التي مارسها اليهود، وبها سيطروا على أسواق المال العالمية بعد ذلك ، وقد صور الشاعر تفشي هذه الظاهره في روايته « تاجر البندقية » التي ألفها في عام ١٥٩٤ أي بعد عام واحد من نشره لقصيدة فينوس وأدونيس، أما في هذه القصيدة فقد اكتفى بالإشارة إليها ورفضها كذلك، فقد حاولت فينوس أكثر من مرة عقد صفقة مع أدونيس ، يتم بمقتضاها تبادل القبلات ، ولكنه أبى ، فأرادت أن تغريه بعقد الصفقة وذلك بأنها لن تأخذ منه قبلة بقبلة ، بل ستعطيه مقابل كل قبلة قبلتين إحداهما في مقابل قبلته ، والثانية نافلة وفائدة ، وفي مرة ثانية أعلنت عن استعدادها بأن تعطيه مقابل كل قبلة قبلات وقبلات ، وأنها لن تحاسبه واحدة بواحدة ، ولكن أدونيس رمز الخير والفضيلة يرفض توقيع هذه الصفقة المشينة ، ويأبى الاقتراض منها أو إقراضها ، لما يتبع هذا النوع من التعامل من رذائل وكوارث فصّل الحديث — كما سبق أن ذكرت — في روايته الشهيرة « تاجر البندقية » .



وتميزت قصيدة شكسبير ، ضمن ما تميزت ، **بالخيال الخصب والوفرة في الصور الفنية**، وهذه تعد إحدى السمات الخاصة التي تميز أسلوب شكسبير

وقدراته الإبداعية ، حتى ذكر البعض بأن الهدف المنشود من نظم هـذه القصيدة لم يكن سرد القصة القديمة بقدر ما كان الغرض رسم العديد من الصور الأخاذة والمعبرة عن تملك شكسبير ناصية النظم وسعة أفقه وخصب خياله [1] ، وهذه الكثرة من الصور والأخيلة دفعت أحد النقاد إلى أن يطلق على القصيدة تعبير « مهرجان من الرمز » . [2]

وليس من السهل أن نحصي كل الصور الفنية التي غُصّت بها القصيدة بل سنكتفي بذكر بضعة نماذج يمكن من خلالها تكوين فكرة مبسطة عن قدرة شكسبير في هذا المضمار :

من الصور التي تسترعي الانتباه في بداية القصيدة تصوير شكسبير فينوس بصورة النسر الجائع الذي ينقض على الفريسة (أدونيس) محاولاً التهام لحمها وريشها وعظامها ولا يتوقف حتى يجهز على فريسته :

كنسر جائع يهيجه طول صيام
انطلق يمزق بمخالبه الريش واللحم والعظام
وينفض جناحيه مُنقضاً مُفترساً كل ما يراه
فإما أن يسد رمقه ، أو أن يجهز على فريسته
وهكذا انقضت (فينوس) عليه تقبله في وجنتيه ، في جبهته ، في ذقنه وحيثما انتهت كانت تبدأ من جديد

(٥٥ — ٦٠)

وصورة ثانية ، يصور فيها شكسبير غضب أدونيس ، وكيف يزيده

---

(١) J.W. Lever : The Poems (Shakespeare Survey, 15) p. 19

(٢) Shakespeare Encyclopeadia, p. 930

الغضب جمالاً ، ويزيد عينيه سحراً، شأنه في ذلك شأن النهر عندما تتساقط عليه الأمطار فتفيض مياهه خارج شاطئيه :

وقد أعطاه الخوف البريء والمقاومة المغلولة مظهراً كظيماً
فزاد جماله جمالاً ، وزاد سحر عينيه الغاضبتين
شأنه شأن المطر الذي يسقط في النهر الممتلىء إلى حافته
فيدفعه — بالرغم عنه — إلى اجتياز شاطئيه

(٦٩ — ٧٢)

وصورة ثالثة يقابل فيها شكسبير بين الحب والشهوة ، وفيها يشبه الحب بالشمس المشرقة ، وبالربيع ، وبالقانع الذي لا يأكل حتى التخمة ، في حين يصور الشهوة بأنها العاصفة ، أو أنها الشتاء الذي يقضي على الصيف قبل الأوان ، أو أنها النهم الذي تقضي عليه التخمة وعدم القناعة :

الحب أنس كالشمس المشرقة بعد المطر
بينما الشهوة كعاصفة هوجاء بعد طول إشراق
الحب الرقيق ربيع دائم
بينما الشهوة شتاء يعاجل الصيف قبل الأوان
الحب لا يعرف التخمة ، بينما الشهوة تموت من التخمة
الحب صادق كل الصدق ، بينما الشهوة كلها كذب وخداع !

(٧٩٩ — ٨٠٤)

وفي صورة رابعة يقابل شكسبير بين الرغبة والبحر ، فإذا كان البحر له شاطئان يحدانه ، فإن الرغبة بلا شاطئين ، ولهذا استجاب الجوادان للرغبة وأخذا يرتويان من نهر اللذة :

إذا كان البحر يحده شاطئان ، فالرغبة لا شاطئان لها
لذا لا داعي للعُجب مما فعله جوادك !

(٣٨٩ – ٣٩٠)

هذه مجرد أمثلة للصور والأخيلة التي اكتظت بها القصيدة اكتظاظاً لم يقبله بعض النقاد ، فقد قال سينتسبوري Saintsbury : « إن ما شاب القصيدة من ضعف ونقص مرده أن شكسبير قد اتخذ من المحسنات البلاغية والصور البيانية هدفاً لا وسيلة ، وعلى هذا فقد جاءت القصيدة وفق مبدأ « الفن للفن » [1] .

ليس هذا رأي جميع النقاد ، فمنهم من اعتبر أن هذه الصور وتلك الأخيلة التي أحسن شكسبير تقديمها خير شاهد على أستاذية شكسبير ، وأنها وراء النجاح الكبير الذي أحرزته هذه القصيدة بين الإنتاج الضخم الذي خلفه شكسبير للبشرية من بعده . [2]

بالإضافة إلى هذه الصور وتلك الأخيلة ، فقد كانت لشكسبير لغته الخاصة التي تخالف في بعض سماتها طريقة الكتابة عند غيره من الخاصة والعامة ، ومن مظاهر هذا الاختلاف على سبيل المثال لا الحصر ، إنه كان يؤثر الهجاء الكامل للكلمة ، فيكتبها كما تلفظ ، لا كما تعود أهل اللغة أن يكتبوها بعد حذف حرف أو أكثر منها ، من هذه الكلمات ، كلمة here فإنه يكتبها heere ، وكلمة has يكتبها hath ، وكلمة he يكتبها hee ، وكلمة only يكتبها onely وغيرها كثير .....

(١) Lever : The Poems (Shakespeare Survey, 15) p. 19
(٢) History of English Literature, p. 314, Shakespeare Survey vol. 2, p. 136

كما أنه كان يفضل كتابة حرف y على هذه الصورة ie ، مثال ذلك كان يكتب duty على هذا النمط dutie ، ويكتب كلمة Lay هكذا Laie ، وكذلك إذا انتهت الكلمة بحرف L فإنه يكتبها LL ، حيث كان يكتب hopeful هكذا hopefull ، ويكتب portal على هذا النمط portall .

إلى غير ذلك من قواعد الهجاء التي اتبعها شكسبير في هذه القصيدة وإذا حدث ووجدت هذه القصيدة في إحدى الطبعات وقد كتبت بالطريقة المتعارف عليها دون الحفاظ على الصورة التي كتبها بها شكسبير، فإن هذا التعديل مرجعه إلى الناشر الجديد وليس إلى المؤلف أو إلى الطبعات التي تمت في حياة شكسبير أو حتى بعده بكثير . (١)

★ ★ ★

ومن سمات هذه القصيدة كذلك أنها **تمثل جانباً من فلسفة شكسبير في الحياة** ، فقد كان من رأيه أنه لا وجود بدون جدوى، وأن كل شيء خلق لحكمة ولأداء مهمة بعينها ، وقد ورد هذا الرأي على لسان فينوس وهي تحاول إثارة أدونيس كي يقبل عليها ، وألا يعيش لنفسه فقط ومما قالته :

خلقت المشاعل للاضاءة ، واللآلىء للزينة
والطعام الشهي للتذوق ، والجمال الصبوح للمتعة

---

(١) يمكن معرفة المزيد عن الهجاء في قصيدة فينوس وأدونيس بالرجوع إلى المقالة التي كتبها A.C. Partridge ، وعنوانها :
Shak. 's Orthography in Venus and Adonis & Some Early Quartos
انظر : Shakespeare Survey, vol 7 p. 35 - 47

والروائح الزكية للتنسم ، والأشجار لحمل الثمار
إن كل شيء يعيش لنفسه ، لا يستحق أن يعيش
فالبذور تخرج من البذور ، والجمال يولد من الجمال

(١٦٧ — ١٦٣)

ومن فلسفة شكسبير كذلك الاستفادة من الوقت ، وعدم إضاعته سدىً ، وألا يترك الإنسان أي فرصة تفلت من يديه ، لأن الوقت كالزهرة إن لم تقطف في حينها سرعان ما تذبل وتموت. وقد جاء ذلك على لسان فينوس حين قالت :

اغتنم الوقت ، ولا تُضع الفرصة من يديك
....
فالزهور الجميلة إن لم تقطف في حينها
سرعان ما تذبل وتموت من فورها

(١٣٢ — ١٢٩)

وإذا كان شكسبير يرى أن تقطف الزهرة في حينها ، فهو يرى أيضاً ألا تقطف قبل نضجها ، وأن الإنسان لا يفعل إلا ما يتفق وقدراته ، وألا يحمّل نفسه أكثر مما يطيق ، فهذا أدونيس يرفض حب فينوس لأنه ما زال غريراً لا يقوى على مطارحة الهوى ، شأنه في ذلك شأن الثمرة إذا ما قطفت فجة ، فإنها تكون شديدة المرارة :

يسقط الثمر الجني ، والثمار الفجة تبقى مكانها
وإن قطفت بداراً ، فالحموضة طعمها ومذاقها

(٥٢٨ — ٥٢٧)

★ ★ ★

إذا كانت هذه السمات هي أهم ما يميز قصيدة شكسبير عن قصيدة أوفيد ، فما هو تقييم النقاد لقصيدة شكسبير ؟

يقول أملي ليجويس ولويس كازمير في كتابهما تاريخ الأدب الإنجليزي : « ليس من العسير أن ندرك أن المحور الرئيسي للقصيدة يتمثل في تصوير عهر الإلهة الداعرة المثيرة للشهوة بحركاتها وغمزاتها وكلماتها الناعمة المرة بعد المرة ... ولعل شكسبير بنظمه لقصيدة « اغتصاب لوكريس » بعد عام واحد من نظمه لقصيدة فينوس وأدونيس ، أراد أن يقدم موضوعاً يناقض فيه ما أقدم عليه في الموضوع الأول ؛ فبعد أن أفاض في الحديث عن عهر المرأة في فينوس وأدونيس ، أراد أن يقابل ذلك بالحديث عن عفة المرأة في اغتصاب لوكريس ، وبيان أنها آثرت الموت على أن تتهم في عفتها وعرضها » ! (١)

ومن الذين هاجموا شكسبير من هذا المنطلق دوجلاس بوش الذي ذكر أن شكسبير كان يعزف في هذه القصيدة على وتر الشهوة ، دون أن يخلق أي نوع من العاطفة الصادقة ، وإنما للتعبير عن التهتك الذي يفوق الحقيقة وما جبل عليه الناس ، وأن القصيدة كانت محاولة لتزيين صورة كاذبة خادعة مبتذلة في واقعيتها . (٢)

ويرى بعض النقاد أن شكسبير كان متعاطفاً مع عهر فينوس ومحاولاتها لغواية أدونيس واستسلامه لإغرائها ، وخير دليل على ذلك سوقه حكاية الجوادين وانطلاقهما على طبيعتهما يرتويان من نبع اللذة ويطفئان نار الشهوة . (٣)

---

(١) Emilé Legouis & Loais Cazamiar : History of English Literature, London, 1960. P. 314 - 315

(٢) J.W. Lever : The Poems (Shak. Survey 15) p. 20

(٣) المرجع السابق ، ص : ٢٢ .

ولكن هناك فريق آخر من النقاد يرفضون هذا الاتهام ، ويعدون القصيدة ذات هدف تربوي تهذيبي ، فقد قالت لو اميلي بيرسون : « إن قصيدة فينوس وأدونيس تمثل قمة ما كتبه شكسبير من الناحية التهذيبية والتربوية ، ففينوس ترمز إلى الحب الشهواني المدمر ، ذلك الحب الذي يلطخ كل من يمسه . أما أدونيس فيرمز إلى التعقل والرشد في العاطفة ، إنه مثال الصدق والأصالة ، وإن كان موته يعني انتصار الشهوة وتفشي الفوضى .. » (١)

وناقد آخر يرى أنها تعلمنا درساً مؤداه أن الجنس لا يجب أن يبتذل هكذا . (٢)

وهناك من يعتقدون أن الهدف من القصيدة هو عقد مقارنة بين الشهوة والحب ، وبيان ما تفعله الشهوة من دمار وخراب ، أما الحب فهو عاطفة تسمو بصاحبها عن الرذيلة والخطيئة ، ولكي يوضح شكسبير هذه المفارقة فإنه جعل التناقض بين البطلين يصل إلى أقصى مداه ، ففينوس تمثل قمة الغواية والعهر ، بينما يرمز أدونيس إلى أقصى غايات الطهر والعفة ، وقد بنى هؤلاء النقاد — ومنهم العقاد — رأيهم على ما أورده شكسبير على لسان أدونيس من تفرقة بين الشهوة والحب (سطر ٧٩٩ — ٨٠٤) (٣)

وأصحاب هذا الرأي يفسرون سوق شكسبير لحكاية الجوادين بأن الهدف منها تقديم الدليل على أن فينوس لن تفلح فيما تبتغيه مهما حاولت مع أدونيس . ومهما بذلت للايقاع به وغوايته ، وفي هذا يقول روبرت

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٠ .

(٢) J.W. Lever : Venus and the Second Chance (Shak. Survey, 15) p. 81

(٣) العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ١٠٩ ، وقد سبق أن أوردت ترجمة لهذه الأبيات ، ص : ١٠٣ من هذا الكتاب .

ميللر : « إن ما حدث من لقاء بين جواد أدونيس وتلك الفرس الجموحة لم يكن هدفه التهكم من أدونيس لرفضه الاستجابة لغواية فينوس ، بل ربما لتأكيد استحالة أن تصل المرافعة إلى ما يبتغيه المرافع ، زد على ذلك أن استخدام شكسبير لكلمة « breeder » بمعنى « ناسلة » بالنسبة للفرس التي تبعها حصان أدونيس ، قد تجاوز حدود فينوس التي لم تكن تبغي أكثر من الترفيه والتسلية وإضاعة الوقت ، بعكس الجوادين اللذين انساقا وراء الطبيعة والغريزة رغبة في التناسل [1] . وكأنه يريد القول بأن الجنس قد وجد في الحياة والطبيعة للتناسل وحفظ النوع ، وليس غاية وهدفاً في حد ذاته كما تريد فينوس وسيلة للترفيه .

وهناك من يفسرون القصيدة — وبخاصة موقف فينوس — بأنها تعبير عن الشعور بالذنب، [2] وقد وضح هذا في موقف فينوس عندما أدركت أدونيس مضرجاً في دمائه ، فأخذت تفيق وتدرك أنها بلجاجتها قد دفعته لمطاردة الخنزير البري ، فقُتل وقد دفعها الشعور بالذنب إلى لعن الحب في آخر القصيدة ، ووصفه بأنه مليء بالمتناقضات . [3]

وهناك فريق ثالث من النقاد يرون أن القصيدة لا يجب أن تؤخذ على أنها دفاع عن العهر ، وعرض للغواية ، كما أنها ليست عملاً الغرض منه تربوي يتمثل في تهذيب الأخلاق ، وتعليم الفضيلة ، أو شعور بالذنب بل إنها قصيدة للتسلية والترفيه ، فأشخاصها من نسج الخيال وليسوا أشخاصاً عاديين حتى نحاسبهم بمعاييرنا الأخلاقية ، فالشخص الأسطوري يكون أحياناً

---

(١) Shakespeare Survey, Vol. 7, p. 137

(٢) Shakespeare Survey, Vol. 2, p. 136

(٣) بيت : ١١٣٣ — ١١٦٤ .

أقل من الإنسان العادي أو أكثر منه بكثير ، وأحياناً يتمتع بقوة عادية ، ويتمتع أحياناً بقوة خارقة ، وعلى هـذا فإن تفسيرنا لأعمال فينوس أو أدونيس يجب ألا ينظر إليها على أنها أفعال أناس من البشر نحاسبهم عليها ، بل هي تصرفات صادرة عن شخصيات أسطورية لها أن تفعل غير ما جُبل الناس على فعله ، وتعارفوا على قبوله ... وعلى هذا فيجب على القراء في العصر الحديث أن يأخذوا القصيدة على أنها وسيلة للتسلية وضرب من الخيال [1] .

وفي رأيي أن شكسبير نظم هذه الأسطورة ليحقق أكثر من هدف ، ومن هذه الأهداف ما يلي :

الأول : أراد شكسبير بنظمه لهذه القصيدة أن يتابع عصره وأن يشارك في حركة الإحياء التي ميزت عصر النهضة ، وألا يكون أقل من مارلو وتوماس لودج وغيرهما ممن حاولوا إحياء التراثين الروماني والإغريقي؛ وهذا ما نراه عند شكسبير في قصيدتيه فينوس وأدونيس ومصرع لوكريس وفي بعض أناشيده كذلك ، وعلى هذا لم يكن هدف شكسبير الحديث عن عهر أو فضيلة بقدر ما كان هدفه متابعة الإتجاه الأدبي في أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، ولعله بنظمه هذه الأساطير يحقق ما كان يصبو إليه أي أديب في هذا الوقت من تقرب إلى البلاط وذيوع اسمه بين الأدباء المرموقين في وطنه . وقد نجح شكسبير في ذلك ، وأقبل القراء على هذه القصيدة وتعددت طبعاتها عاماً بعد عام .

الهدف الثاني : أراد شكسبير أن يواصل الكتابة للمسرح على الرغم من توقف الحركة المسرحية ، وعلى هذا فإن هذه القصيدة على الرغم من أنها لم تكتب لتكون عملاً مسرحياً ، إلا أن سمات التأليف المسرحي

---

(١) Venus And The Second Chance, (Shak. Survey, 15) p. 81

متوفرة في بنائها ، فقد توفر فيها عنصر الوحدة الزمنية كما سبق أن أشرت في بداية الحديث عن سمات القصيدة لدى شكسبير [1] ، أضف إلى ذلك أن بالقصيدة مواقف هزلية ، شأنها في ذلك شأن كل ملهاة لشكسبير ، كما توجدبها مواقف درامية شأنها في ذلك شأن كل مأساة لشكسبير أيضا [2] . كما أن التناقض الكبير بين شخصية فينوس وشخصية أدونيس ، يساير الاتجاه العام الذي درج عليه شكسبير في رسم الشخصيات ، في كل مسرحياته ، أملاً في الوصول بالصراع بين هذه الشخصيات إلى أقصى مداه . يضاف إلى ذلك ما ادعاه من أن فينوس قد تظاهرت بالاغماءة ، وذلك لكي يجعل من فينوس ممثلة على المسرح تؤدي عدة أدوار ، دور الغانية العاهرة ، ثم دور المغشى عليها ، وأخيراً دور المكلومة والثكلى التي فقدت حبيبها ، فأخذت تندبه وتسب الأقدار لأنها سلبتها أعز من كانت تحرص على وجوده والتمتع بالأنس معه. وعلى هذا يمكن تفسير الكيفية التي أبرز بها شكسبير بطلته فينوس ، بأنه كان يرسم مجرد شخصية مسرحية تلعب دورها على المسرح باقتدار . شأنها في ذلك شأن كل شخصياته النسائية في مختلف رواياته ومسرحياته ، والتي كان يهدف من وراء رسمها تقديم عدة نماذج لطبيعة المرأة ، فهناك المرأة الدمثة الأخلاق ، وهناك الشريرة ، وهناك من تضحي بروحها حفاظاً على كرامتها وشرف أسرتها ، وهناك ؛ وهناك ...

وقد كتبت السيدة آنا جيمسون كتاباً عن بطلات شكسبير نقلت فيه خمساً وعشرين صورة تحليلية من صور النساء في مسرحياته ، منهن نساء الذكاء والفطنة ، ومنهن نساء المطامع والمغامرات ، ومنهن نساء العاطفة والحنان ، ومنهن النساء المعروفات في التاريخ ، وكلهن نساء وليس فيهن واحدة تشبه الأخرى في جملة صفاتها وبنيانها . وخلاصة ما قالته

---

(١) أنظر ص : ٩٣ من هذا الكتاب .

(٢) Venus And The Second Chance, (Shak. Survey, 15) p. 81

عنهن : إنها – وهي امرأة – كانت تنظر في مرآة شكسبير فتصحح منها علمها بالنساء حين يختلفن مثل هذا الاختلاف ، إنه لأبعد اختلاف بين أنثى وأنثى في جميع الأمم . [1]

وهكذا يجب أن يُنظر إلى الكيفية التي رسم بها شكسبير شخصية فينوس ، على أنها واحدة من هذه النماذج العديدة للمرأة على مسرح شكسبير .

وقد ربط العقاد بين قصائد شكسبير – وبخاصة فينوس وأدونيس – وبين الحبكة المسرحية التي تميزت بها مسرحياته، بقوله : لقد برع شكسبير في القصة الشعرية براعته في القطعة المسرحية ، واستطاع أن يمثل لقارئه بالقصيدة المكتوبة ما يحتاج إلى مسرح وممثلين على المسرح لتصويره للعيان ، وإبلاغه إلى الأسماع ، وبثه في الخواطر والقلوب. واستخدم طريقة المسرح – بغير المسرح – لتعليق الأفكار والأنظار ، وإزجاء المفاجآت على انتظار وعلى غير انتظار » .

الهدف الثالث : كتب شكسبير هذه القصيدة وأهداها إلى اللورد سوثامبتون ، في وقت كان هذا اللورد يبغي الزواج ، فانتهز شكسبير هذه الفرصة وأهداه ثلاثة من أعماله : فينوس وأدونيس ، واغتصاب لوكريس ومجموعة من أناشيده ، تحدث فيها جميعاً عن الحب وقدّم فيها نماذج متباينة من النساء [2] ، ولهذا فسّر البعض هذه التصرف من شكسبير بأنه كان يريد إزجاء النصح إلى هذا اللورد عن طريق الأسطورة ، حتى يُحسن اللورد الاختيار ، ولكن يبدو أن اللورد لم يوفق في هذا الاختيار ، مما جعله وزوجه محل غضب الملكة اليزابيت الأولى وطردهما من البلاط . [3]

---

(١) العقاد : التعريف بشكسبير ، ص : ١٣٩ .

(٢) Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare, p. 164

(٣) يمكن معرفة المزيد عن ظروف هذا الزواج وأثره على اللورد بمراجعة Shakespeare Encyclopeadia ص : ٨١٤ – ٨١٦ .

وهكذا كان شكسبير يريد أن يكون في نصح ذلك اللورد الذي كان محط أنظار الأدباء كلهم،والذي كان شديد العطف عليهم وراعيهم في البلاط والمجتمع ، أي أن الحديث عن عهر فينوس واللجاجة فيه قد يكون هدفه تحذير هذا اللورد حتى لا يقع فريسة هذا الصنف من النساء،وأن يتمسك بالأخلاق كما فعل أدونيس حتى آخر يوم في حياته .



وبعد هذه الدراسة نخلص من أن شكسبير لم يكن مجرد مترجم لأسطورة أوفيد ، بل كان مبدعاً . حتى تفوق فيما نظمه على ما سبقه إليه أوفيد ، لدرجة أن قصيدته أصبحت الأصل الذي يرجع إليه كل من يحاول أن يجرب حظه في نظم الأسطورة من جديد ، وهذا ما سنراه في الفصول التالية ، فجميع الأعمال التي سنعرض لها بعد ذلك تأثرت — بدرجـات متفاوتة — بقصيدة شكسبير . ويحضرنا في هذا ما فعله ابن المقفع في ترجمته العربية لكتاب كليلة ودمنة ، وكونه مؤلفاً مبدعاً أكثر منه مترجماً ، حتى أن كتابه أصبح الأصل الذي أخذت عنه كل الترجمات العالمية بعد أن فُقد أو أُهمل كل من الأصل الهندي والترجمة البهلوية لكتاب كليلة ودمنة .



الفصل الثالث

مسرحيـــة فينـــوس وأدونيس
للمسرح الفرنسي

أندريه أوبيه



مسرحية « فينوس وأدونيس »

أندريه أوبيه

تقديم :

كانت أسطورة فينوس وأدونيس تحظى برواج في فرنسا مثلما حظيت في إنجلترا ، وذلك منذ عصر النهضة ، وقد كانت معروفة لدى العديد من المجتمعات والأندية الثقافية ، كما تداولتها الألسن في الصالونات الأدبية منذ القرن السادس عشر ، حتى اشتق المحدثون من اسم أدونيس — كما يقول كميل افرام البستاني في دائرة المعارف اللبنانية — الفعل « تأدنس S'adonises » للدلالة على اهتمام المتأنقين بملابسهم والمبالغة في تزينهم[1] .

ومن الأعمال الأدبية التي عنيت بهذه الأسطورة ، كتاب « أدونيس » الذي نظمه شعراً جان باتيستا مارينو الإيطالي الجنسية ، وقد أهداه إلى لويس الثالث عشر ، ونشر في فرنسا عام ١٦٢٣ ، وهو يضم قرابة الخمسة والأربعين ألف بيت ، وفيه يجمع المؤلف كل ما حيك حول أدونيس من أساطير وخرافات لا يكاد يوجد بينها ترابط أو خط درامي واحد .[2]

ولم يقتصر الاهتمام بهذه الأسطورة على عالم الأدب والنظم ، فقد

---

(١) دائرة المعارف اللبنانية ، ص : ٢٩٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٩٧ — ٢٩٨ .

حظيت باهتمام كتاب المسرح الغنائي ، فقد ألف روبير كامبير مسرحية غنائية باسم أدونيس ، وتم تقديمها على المسرح عام ١٦٦٢ ، ثم تبعتها أعمال أدبية وغنائية أخرى لسنا هنا في مجال حصرها . وإن كنا نهدف من هذه المقدمة إلى القول بأن إقدام أندريه أوبيه على مسرحة قصيدة شكسبير ؛ لم يكن العمل الأول الذي تعرض من خلاله هذه الأسطورة على النظارة في فرنسا .

وكاتب هذه المسرحية أديب وكاتب مسرحي فرنسي مشهور . وقد ولد أندريه أوبيه عام ١٨٩٢ ، وحصل على الليسانس في الآداب والحقوق ، كما كان على علم ودراية بالموسيقى . وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، استدعي للخدمة العسكرية وشارك في المعارك فجرح مرتين ، وبعد أن هدأت الحرب عاد أوبية إلى الحياة المدنية وعمل بالنقد المسرحي في الصحف والمجلات ، وكان يكتب أثناء عمله بعض القصص ، ولكنه بعد فترة تفرغ لكتابة المسرحيات ، ومن أهم مسرحياته : نوح ، موقعة المارن ، دون جوان ، إنذار نهائي ، عائد من النجم ، ليلة الفصول وفتاة للريح ، وهذه أعظم مسرحياته . (١)

ولم يكتف أوبيه بالتأليف وحده ، فقد اتجه كذلك إلى مسرحة بعض أعمال شكسبير ، وقد شجعه على ذلك الشهرة الكبيرة التي يحظى بها شكسبير في فرنسا ، وترجع هذه الشهرة إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي عندما قدم فولتير شكسبير للشعب الفرنسي ، وعرفهم بأعماله العظيمة ، فأقبل عليها المثقفون ، وحاول الدارسون تحليلها ودراستها ،

---

(١) بيير هنري سيمون : تاريخ الأدب الفرنسي في القرن العشرين ، ترجمة نبيه صقر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٢١ ، مقدمة الترجمة العربية لمسرحية فينوس وأدونيس ، ص : ١٥ ، Larouse Duxxe Siécle p. 151.

والتأليف على غرارها [1] ، ومن هؤلاء الأدباء أندريه أوبيه الذي مسرح اغتصاب لوكريس عام ١٩٣١ [2] ، ثم تبعها بمسرحة كل من ريتشارد الثالث وهنري الرابع ، وقد مثلت مسرحية ريتشارد الثالث لأوبيه في كل من فرنسا وبلجيكا [3] ، وأخيراً أقدم أوبيه على مسرحة فينوس وأدونيس لشكسبير ، ويبدو أنه مسرحها بعد أن امتد به العمر ، لذا نراه يشكو تقدم السن على لسان فينوس ويقول : إن تقدم السن مجلبة للهموم [4] .

ونظراً للمكانة الكبيرة التي حظي بها أندريه أوبيه في عالم المسرح ، فقد أُسندت إليه إدارة مسرح الكوميدي فرانسيز ، وذلك عام ١٩٤٦ [5] .

وقد ترجمت مسرحيتا « فينوس وأدونيس » ، و «اغتصاب لوكريس» تأليف شكسبير ومسرحة أندريه أوبيه إلى اللغة العربية ضمن سلسلة روائع المسرحيات العالمية (وزارة الثقافة المصرية) ، قام بالترجمة والتقديم للمسرحيتين الأستاذ محمود صابر ، وتم نشرها بالقاهرة عام ١٩٦٧ . وقد اعتمدت في دراستي لمسرحية فينوس وأدونيس على هذه الترجمة .

وإذا كان أوبيه قد مسرح قصيدة فينوس وأدونيس لشكسبير إلا أنه أضفى عليها من فنه المسرحي ما يجعله شريكاً لشكسبير في التأليف نفسه ، ولكي ندرك ما فعله أوبيه ؛ علينا أن نعرض ملخصاً وافياً للمسرحية ، ثم نتبعه بدراسة لما استحدثه أوبيه في الأسطورة ، وساعده على إخراجها إلى المسرح بطريقة تضمن لها النجاح والجدارة بالمشاهدة :

★ ★ ★

---

(١) Shakespeare Survey, Vol. 2. p. 242

(٢) Brock Haus Enzyklopadia, 13 p. 642

(٣) Shakespeare Survey, Vol. 5 p. 111

(٤) الترجمة العربية لمسرحية فينوس وأدونيس ، ص : ٩١، ولم أجد من بين الكتب التي رجعت إليها كتاباً واحداً قد ذكر تاريخ تأليفه لهذه المسرحية ، ولذا وصلت إلى هذه النتيجة من خلال المسرحية نفسها .

(٥) Larouse Duxxe Siécle, 5, p 151

عرض عام للمسرحية [1]

شخصيات المسرحية

فينوس : إلهة الحب والجمال وربة الدلال والغواية .
أدونيس : رب الجمال والفتوة .
مارشيال : صديق أدونيس
كيوبيد : ملاك الحب .
زوى : وصيفة فينوس ، وكاتمة أسرارها .
سوستيم : منسق حدائق فينوس .
المنية (أي الموت) : تظهر في صورة سيدة في مقتبل العمر .

★ ★ ★

ما إن بزغ فجر يوم جديد ، يوم يوحي بالإشراق والدفء ، حتى بدأت الديكة صياحها والعصافير تغريدها ، وسرعان ما هب الفتى الجميل أدونيس من نومه ، وأخذ يعد العدة للخروج إلى الغابة كي يزاول رياضته

---

(١) اعتمدت في هذا العرض على الترجمة العربية التي قام بها « محمود صابر » ونشرت في سلسلة روائع المسرحيات العالمية : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، مايو ١٩٦٧ العدد (٤٦) .

المحببة ، رياضة الصيد وتعقب الطرائد فأمر بإعداد فرسه ، وتجهيز جميع معدات الصيد حتى إذا ما حضر إليه صديقه مارشيال خرجا على الفور إلى الغابة دون تأخير .

وصل مارشيال متأخراً بعض الوقت وعلل تأخره بصعوبة الوصول إلى بيت أدونيس؛حيث تكاثفت المروج من حوله؛والتفت أغصان الأشجار؛ مما اجعل اجتياز الطريق إليه أمراً ليس بالهين.فأخبره أدونيس أن جارته هي التي زرعت كل هذه المروج ، فسأله مارشيال عن هذه الجارة ، فأخبره أدونيس بأنها جارة لا يعرف من أين أتت ، جاءت وشيدت لها بيتاً بجوار بيته ، وأن اسم هذه الجارة هو فينوس ، فأثار الاسم فضول صديقه ، وقال : ربما كانت فينوس الحقيقية ، فينوس إلهة الدلال وربة الجمال ، وقد أظهر الحوار بينهما أن أدونيس لا يعرف عنها أي شيء ، ولا يعبأ بوجودها ، وأن كل ما يهمه هو أن يسرعا بالخروج إلى الصيد ، ولذا أطلقا صيحة الحرب ، وكأنهما يخرجان إلى معركة مع الطرائد ...

وعلى أثر الصيحة تدخل زوي خادمة فينوس إلى المسرح تحتج على هذه الصيحة حتى لا تستيقظ سيدتها في هذا الوقت المبكر ، ولكن مارشيال لم يقبل احتجاجها ، وأخبرها أن سيدتها مخطئة لأنها تستسلم للرقاد حتى هذا الوقت ، وهنا يتدخل أدونيس قبل أن يحتدم النقاش ويطلب من الخادمة أن تبلغ سيدتها شديد أسفه لإيقاظها من نومها ، ولكن زوي التي تعرف مقدار تعلق سيدتها بهذا الشاب اليافع تطلب منه أن يأتي ليعتذر لها بنفسه . ولكن أدونيس يعتذر بأنه على عجلة من نفسه،ويريد أن يخرج دون تأخير للصيد، كما أنه خلق نفوراً يكره الجديد من العلاقات ؛ ولذا فهو يكلفها بالاعتذار نيابة عنه ، ثم يسارع بالخروج ومعه صديقه مارشيال تاركين زوي وحدها على خشبة المسرح .

وهنا تدخل فينوس بعد أن استيقظت من نومها . فتخبرها زوي بأنها رأت السيد الشاب وكلمته ، فتلهفت فينوس على معرفة أي شيء عن هذا الشاب ، وعن مدى انطباع زوي عنه ، فإذا بزوي تبدي لها تخوفها من أنه سيكون غير أولئك الرجال الذين عرفتهم فينوس قبل ذلك ، وسجلت في مذكراتها مدى تلهفهم على فينوس ، ومحاولاتهم المتكررة لخطب ودها . ولكن فينوس ترفض هذا المنطق وتصر على أنه لا يوجد رجل واحد يستطيع مقاومة إغرائها وعدم الخضوع لغوايتها ، ولكن زوي تقول واصفة أدونيس : ربما كان صائداً ماهراً أو ضابطاً جريئاً أو لاعب كرة قديراً ، ولكنه ليس عاشقاً على الإطلاق .

وبعد فترة تسمع فينوس وخادمتها وقع أقدام أدونيس وصديقه مارشيال ، فتأمر فينوس خادمتها بالانصراف ، وما إن تنصرف عن خشبة المسرح ، حتى يدخل إليها أدونيس وصديقه وهما يتحدثان عن جمال الفرس ويتغزلان في محاسنها ، وكانت فينوس تعتقد أنهما يتحدثان عنها أو عن خادمتها زوي ، ولكن خاب ظنها عندما أدركت أنهما يتحدثان عن الفرس . وهنا تصرخ فينوس صرخة عالية كي يدركا وجودها ، فهب إليها أدونيس يسألها ما الذي أفزعها ؟ وهل أصابها مكروه ، فتخبره أنها ربما رأت ثعباناً ، فيخبرها أدونيس بأنه لا ثعابين بهذه المنطقة ، وفهمت منه أنه لم يعد يحب المكان لكثرة ما فيه من أزهار وطيور وظلال ، وكان يأمل أن يكون مكان ذلك حيوانات وطرائد يتعقبها ويصيدها ، ولهذا فإنه يفكر في الرحيل إلى مكان آخر يجد فيه أماكن للصيد وفرائس للطراد . وأخيراً يخرج أدونيس ورفيقه مودعين فينوس على أمل اللقاء مرة أخرى .

ترك أدونيس فينوس ، وهي في غاية الخوف والاضطراب من أن يرحل عن المكان ، لذا أمرت خادمتها باستدعاء سوستيم البستاني ، فتخرج

زوي لاستدعائه ، وتترك فينوس مضطربة وجلة تتحرك بعصبية بالغة وتقطع خشبة المسرح ذهاباً وجيئة ، حتى يترامى إلى سمعها صوت سهم منطلق فتدرك أن كيوبيد ملاك الحب الصغير يفوق سهامه صوب الطيور والعصافير ، فتنهره عن ذلك ، وتأمره ألا يصوب سهامه إلا صوب الرجال أو الجدران ، ثم وقفت تختبر مهارة كيوبيد في إطلاق السهم ، وتشرح له كيف يجيد التصويب وكأنها قائد يمرن جنوده على أفضل طريقة لإصابة الهدف .

ثم يدخل سوستيم في صحبة زوي إلى المسرح ، فتستقبله فينوس بعاصفة من الغضب ، وتظهر له مدى سأمها من الحديقة وما تغص به من أزهار وأشجار في مقابل خلوها من الزواحف والوحوش الكاسرة . كل هذا وسوستيم في حيرة من أمره ،فماذا دهاها حتى تكره الورود والرياحين؟ لا بد وأن شيئاً قد أثر على فكرها ووجدانها . ثم أمرته بأن يقتلع الأشجار ويزرع مكانها الحصى والأشواك والحسك! ولكن سوستيم يرفض ذلك ، فتثور ثائرة فينوس ، وتقرر أن تعاقبه على مخالفته أوامرها ، فأمرت كيوبيد أن يوجه سهامه إلى قلب هذا الشيخ الخرف ، حتى يعود عاشقاً من جديد. وكم حاول سوستيم أن يثنيها عن ذلك معتذراً عن لحاجته معها ، ولكنها لا تصغي إلى توسلاته ، ويطلق كيوبيد سهمه ، فيصيب قلب ذلك الشيخ ، الذي أحس من فوره بلهيب العشق يغمر جسمه ، وإذا به يتعقب زوي ويجري وراءها ، وهي تحاول دفعه بعيداً عنها ، ولكنه يواصل تعقبها وإسماعها كلمات الغزل والهوى .

ثم تخرج زوي لاهثة من على المسرح ويخرج وراءها سوستيم ليلاحقها وليبثها هواه . ويخلو المسرح إلا من فينوس وكيوبيد ، فتشكو له ما تتحمله من جوى وتباريح ، ولا يكاد الفتى أدونيس يشعر بوجودها . فيهون ملاك

الحب من آلامها ، ويذكرها بأنها أقوى من جميع الرجال ، وكفاها دليل على ذلك ما فعلته في مارس إله الحرب ، ثم أخذ يمثل لها كيف كان يرقص مارس من أجلها ، فضحكت فينوس لمنظره ،ولكنها ضحكة مشوبة بالأسى والخوف . وأخذت تتساءل ما الذي يجعل الفتى ينفر منها ؟ أهي دميمة الخلقة ؟ أهي هزيلة القد ؟ لا إنها مثال الجمال وربة الدلال والسحر ، فماذا عساها أن تفعل لكي تظفر به ويحبه لها ؟

وحدث أثنـــاء ذلك التفكير والحيرة أن دخلت زوي لاهثة ويجري وراءها سوستيم يحاول أن يقدم لها باقة من الورود عربوناً على حبه وهيامه بها ، ولكنها ترفضه وتسرع بالخروج من على خشبة المسرح ، ويعـــدو وراءها سوستيم لا يريد الكف عن ملاحقتها بعد أن فعل فيه سهم كيوبيد ما فعله !

وبعد برهة ينطلق صوت بوق الصيد خارج الكواليس دليلاً على عودة أدونيس من جولته ، فيسيطر الاضطراب والارتباك على فينوس . فهي لا تدري ماذا تفعل ، وماذا ستقول له ، ولم يمض إلا القليل حتى يدخـــل أدونيس وهو يعلي صوته مودعاً صديقه مارشيال الذي ما زال خارج المسرح . ثم يوجه حديثه إلى فرسه شاكراً لها شجاعتها وإقدامها في الطراد والكر والفر . كل هذا وهو لا يكاد يشعر بوجود فينوس على خشبة المسرح مما جعلها تتقدم هي نحوه قائلة : أدونيس ، كم أنت جميل ، بل لقد فاق جمالك كل الحدود !

فوجىء أدونيس بحديثها ، وحاول أن يوقف هذا السيل من الاضطراء ولكنها لم تأبه بمحاولاته ، ثم دفعته دفعة قوية بكلتا يديها ، فأجلسته إلى جوارها على الأرض ، وكلما هم بالحديث وضعت يدها على فمه حتى لا ينبس ببنت شفة ، وأخذت تتغزل في جماله ، وحسن منظره سواء أكان

في غضب أو رضا . بل إنها أشد حباً له إذ تعلو وجهه حمرة الخجل أو صفرة الغضب .

وأخيراً يثور أدونيس ويعلن أنه لم يتناول إفطاره بعد ، فلتتركه يمضي حتى يتناول طعامه ، وإلا فلتأت تشاطره هذا الطعام ، فأخبرته بأنها جائعة إليه فقط . ومع هذا فهي مستعدة لمشاطرته الطعام إن منحها قبلة . فوافق ولكن ما إن هم بتقبيلها حتى تراجع عن ذلك ، فقالت له إن كنت تخجل فهيا أغلق عينيك حتى تشعر بأن النهار صار ليلاً وأنه لا رقيب ، فهيا أعطني قبلة ! ولكن أدونيس يرفض مرة ثانية ، مما جعل فينوس تثور ضده وتشبهه بنرسيس الذي أحب نفسه ، واتهمته بأنه مجرد صنم وليس بشراً سوياً .

ثم تُسمع جلبة خارج المسرح ، وتصدر عن الكواليس عدة أصوات فتتساءل فينوس ، ما الخبر ؟ وهنا يدخل سوستيم حاملاً نبأ هروب فرس أدونيس مع جواد جميل مر بها إذ سارعت بفك رباطها ، ورحلت معه كي يمارسا الحب ويرتشفا من كأس اللذة . فحاول أدونيس استدعاء فرسه بالصفير إليها ، ولكن سوستيم أخبره بأنها مضت بعيداً ، ولن تسمع صفيره ، لأنها مشغولة بالنشوة واللذة ، فتنتهز فينوس الفرصة وتطالبه بأن يتعلم درس الحب من فرسه ، وعليه أن يقتنص السعادة الماثلة بين يديه ، فما أسهل الحب من درس !

ولكن أدونيس يرفض الحب ، ويقول : الحب كلمة جوفاء ، لفظ تافه ، لا علم له به ، ولا يود أن يكون له به علم أبداً . فتحذره فينوس من مغبة التطاول على الحب والتكبر على الهوى . ولكن أدونيس يرفض ذلك ، ويعلن أنه مستعد لنزاله حتى ولو كان وحشاً ضارياً ، ثم إنه على يقين من النصر عليه . إن الحب حياة من العذاب والهوان ، حياة تبكيها همسة وتضحكها همسة ، وكم حاولت فينوس أن توقفه عن السخرية بالحب ، ولكنه واصل

الحديث فلم تجد فينوس وسيلة لإيقافه غير ادعاء المرض فجأة ، ثم أغمي عليها . فيسارع أدونيس بالركوع إلى جوارها ينفخ في وجهها ، يدلك أنفها ، ولكن دون جدوى ، فيحاول الترنم بأغنية ربما تفيق على ألحانها . وهنا يدخل مارشيال ، ويفاجأ بما يحدث على المسرح ، فيسأل ما الخبر ، فيقول له أدونيس سأخبرك فيما بعد ، ولكن هيا ساعدني في إثابتها إلى رشدها . وهنا يربتان على خديها ،وفي نفس الوقت ينشدان نفس النغم، وظلا على هذه الحال حتى بدأت تفيق إلى رشدها ، فطلب أدونيس من صديقه مارشيال أن يتوارى بعيداً حتى لا تخجل إذا هي أحست بوجوده، فانصرف مارشيال بعد أن أخبر أدونيس بعودة فرسه،وبأن خنزيراًمتوحشاً يقترب من المكان ، وعليهما أن يستعدا لمطاردته وصيده .

وبعد فترة تفيق فينوس وتتساءل أين هي ؟ وكم تكون الساعة ؟ ثم توجه حديثها إلى أدونيس قائلة: أنت هنا يا حبيبي! كم خشيت أن أفقدك! حمداً لله أنك معي! قالت كل هذا ولم يقابله أدونيس إلا بضحكة فاترة تنم عن برود شديد ، وعدم اكتراث بها وبحبها ، ثم قال لها بعد أن حاولت التقرب منه: إذا كان حبك قد برّح بك،فاعلمي أن البرود الذي أستشعره راجع إلى اخضرار عودي ... إن الفاكهة الناضجة تسقط ، ولكن الفاكهة الفجة تبقى مكانها !

وهنا يدخل ملاك الحب ليكون في عون فينوس ، دخل وقد أعد العدة لإطلاق سهام الحب كي تصيب قلب ذلك الفتى الذي يتمنع أمام دلال فينوس . وفجأة يسمع الجميع صوت سهم ينطلق في الفضاء موجهاً صوب أدونيس ، ولكن أدونيس يتجه في تجنبه ، ثم يمسك به في الهواء ويحطمه إلى قطعتين ، ويلقي به إلى الأرض . فحاول كيوبيد مرة أخرى وأطلق سهماً آخر ولكنه طاش كذلك ، ثم أطلق سهماً ثالثاً لم يصب أدونيس كسابقيه ، فسخر منه أدونيس وممن علمه تفويق السهام ، وطلب منه أن

يتعلم الوضع الصحيح لإطلاق السهام ، واستجاب كيوبيد لنصحه ثم أطلق سهماً رابعاً بعد أن اتخذ الوضع الصحيح كما علمه أدونيس ، ولكن أدونيس يقفز في الهواء ويمسك بالسهم ويحطمه . فيجهش كيوبيد بالبكاء ويحاول الاعتذار لسيدته فينوس ، فتهون فينوس الأمر عليه ، بأن هذا السيد أقوى منا جميعاً ، ثم تأمره – كيوبيد – بأن يعانقها وينصرف ، فعانقها وهم بالانصراف ، فطلب منه أدونيس أن يعانقه كذلك ، إذ يجب أن يكون متسامحاً ولا يحقد على من يغلبه ، فعانقه بعد أن أذنت له فينوس ، ثم انصرف .

بعد ذلك أعلن أدونيس رغبته في الانصراف لمتابعة الصيد ، فسألته فينوس أي حيوان بريء سيصيد ؟ فأخبرها بأنه سيصيد الخنزير الوحشي . وهنا تملك الرعب فينوس وحاولت أن تصرفه عن صيده لأنه حيوان مرعب نجس متوحش متعطش للدماء ، ولكن أدونيس لم يأبه بجزعها ولا بتوسلاتها وأخبرها بأنه أودى بحياة إثني عشر وحشاً ضارياً من هذه الفصيلة من قبل . فأخبرته بأنها رأت حلماً فظيعاً يصوره وقد فتك به ذلك الخنزير الأسود . ولكن أدونيس يصر على التوجه إلى الصيد ، بعد أن سمع صوتاً يشبه صوت صديقه مارشيال يستعجله ، فاستأذن أدونيس واعداً إياها بألا يتوجه إلى الخنزير ، وألا يلاحقه إلا إذا جاء في طريقه مصادفة ، كما وعدها بأن يلقاها في الغد . ثم خرج من المسرح .

وفجأة يندفع مارشيال إلى داخل المسرح ، ويسأل عن صديقه أدونيس ، فتخبره بأنه خرج من توه بعد أن ناديته بإلحاح ، فأخبرها مارشيال بأنه لم يناده على الإطلاق . وهنا أحست فينوس بالجزع على أدونيس ، وبدأ الألم يعتصر قلبها . لا بد وأن المنية هي التي كانت تناديه مختلسة صوت صديقه (ولكنها حتى ذلك الوقت لم توضح من هي المنية) ، ولهذا ركعت فينوس ضارعة إلى رب الأرباب زيوس ، تسأله الرأفة بها

وإنقاذ محبوبها ، على الرغم من أنها أخطأت في حق الآلهة ، ونزلت إلى الأرض تعشق أحد قاطنيها .

وهنا تدخل زوي الخادمة إلى المسرح وتسأل فينوس هل استدعتها ؟ فتخبرها فينوس بأنها لم تنادها ، فتساءلت زوي إنني سمعت صوت امرأة يناديني ، فمن إذن تكون هذه المرأة ؟

وهنا يسيطر الاضطراب على المسرح ، ويظهر الخوف والهلع على الجميع ، ممثل يدخل وآخر يخرج ، وهكذا استمر الحال بعض الوقت كل يعبر عن جزعه وترقبه لما قد تسفر عنه الأحداث . فيدخل مارشيال لاهثاً ويقول : لم أجده ، سأمتطي الجواد كي أبحث عنه وأعود به ، وتسأل زوي : ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ كم أرتعد من الخوف ! ويدخل كيوبيد والاضطراب باد عليه ، ويقول : لا . لا . لا ، لقد سمعتها تضحك بصوت خافت . كم أرتعد من الخوف ! ويدخل سوستيم داعياً زوي كي ترى ما تراه . إنه يرى المنية ولا يكاد يصدق ، أهي المنية أم إنه هرم ولم يحسن الرؤية ؟ فخرجت زوي إليه وعقدت المفاجأة لسانها ، إنها ترى ما يراه سوستيم ، يا للكارثة !

وهكذا سيطر الهلع والخوف على الجميع ، ولكن فينوس تحاول أن تهدىء من تأثرهم ، وتخفف من وقع المفاجأة عليهم ، تريدهم ألا يظهروا بمظهر الضعف أمام المنية ، لا تريد أن تشعر المنية بارتعادهم ، فتدرك وجوده وهلعهم عليه ، فتسرع بالفتك به مثلما فعلت مع أورفيه (أورفيوس) من قبل .

وبعد فترة من الهلع والضيق والترقب والخوف تدخل المنية إلى المسرح ، تدخل المنية على هيئة سيدة أنيقة نحيفة تعنى بمظهرها ، وقد بدت نصف مقنعة ، وما إن دخلت حتى بادرتها فينوس بالتحية قائلة لها : عمي مساءً يا سيدتي ! فردت المنية التحية ، ثم طلبت من فينوس أن تأذن لها بالمرور عبر حديقتها ، وذلك لأن لديها عملاً سريعاً تريد أن تؤديه في الجهة الأخرى

من الحديقة. فأخبرتها فينوس بأن لها مطلق الحرية في التحرك بجميع الأرجاء، وإن كانت فينوس تود لو تشاركها قدحاً من الشاي ، حيث أنها تجد متعة في رؤيتها والجلوس معها ، فتعجبت المنية من هذا الشعور الذي تدرك أنه غير صادق . وكم حاولت فينوس أن تؤخر المنية عن أداء المهمة المنوطة بها ، لعل مارشيال يعود ومعه أدونيس قبل أن تنصرف المنية من بيت فينوس وتفتك به ، ولكن المنية أصرت على أن لديها عملاً سريعاً تود إنجازه على الفور ، فقالت لها فينوس إن في هذه القرية شيخاً طاعناً ينتظر وصولك حتى يجد الراحة من آلامه ، ولكن المنية لم تأبه بهذا الكلام ، وأخبرت فينوس بأن دور ذلك الشيخ سيأتي بعد أن تفرغ من المهمة التي كلفت القيام بها ، ثم تحاول فينوس أن تثيرها ضد هذا الشيخ الهرم ، بادعائها بأنه يهزأ من المنية ، ولا يأبه لمقدمها ، ولا يرهبها . ولكن المنية لا تعبأ بما تقول،وتصر على مواصلة السير إلى هدفها المنشود .

ومرة أخرى تحاول فينوس استبقاءها حتى يعود مارشيال ومعه أدونيس. استبقتها حتى تعرفها بكل من يقطنون معها من الخدم والحشم ، عرفتها بسوستيم الذي يسرع ويقدم للمنية باقة من ورود الحديقة ، ثم تُقدم لها كيوبيد الذي يكاد يموت من الخوف والهلع ، أما زوي فقد اختفت من على المسرح ، ولم تقو على مواجهة المنية ، وبعد أن صافحت المنية سوستيم وكيوبيد همت بالانصراف ، ولكن فينوس طلبت منها عدم التوجه إلى حيث تريد ، حيث يوجد قنص ومطاردة لخنزير متوحش ، ومن الأفضل أن تعود أدراجها حتى لا يصيبها سهم طائش ، ولكن المنية أخبرتهم بأنها مولعة بالصيد ، مولعة بأولئك الشباب الغرير الجميل المستهتر ، المسرف في الاستهتار !

وأخيراً تخرج المنية تاركة فينوس تترنح وتسقط على خشبة المسرح شبه مغشي عليها ، فيقبل عليها سوستيم مهوناً ومشجعاً ،ولكن الجزع يعتصر

قلب فينوس لأن المنية خارجة للقضاء على أدونيس وسفك دمه . (وهنا يوضح المؤلف مدى الصراع الدائر بين الآلهة ، بين فينوس إلهة الجمال ، والمنية إلهة الموت) . ثم يسود المسرح جو من الهرج والمرج والترقب والحيرة إنهم يسمعون أصواتاً من بعيد ، إنها أصوات الكلاب تنبح بشكل غريب. ثم ترامى إلى سمعهم صوت نفير شبيه بالعويل فسيطر الحزن على الجميع ، وانزوى كل في ركن والألم يعتصر قلبه ، وينطلق صوت النفير مرة أخرى ، وبصوت خافت يسب سوستيم المنية ويتوعدها بالقضاء عليها إذا ما التقى بها مرة أخرى ، فتحذره فينوس حتى لا تسمعه المنية فتقبض روحه ، ولكن فينوس تفقد صبرها هي الأخرى ، وترفع عقيرتها تلعن المنية وتنعتها بأنها ملكة القبور ، المذلة للملوك ، المتحكمة في رقاب العباد ، ولكنها سرعان ما تعود ضارعة ، وتقول : أيتها المنية الرقيقة الحبيبة ، أرجو ألا تضربي خبط عشواء ، ألا تسفكي دم طفل نضير أو شاب غض الإهاب ، بل لتكن الشيخوخة هي المرمى وهي الهدف .

ويسمع الجميع ركض فرس ، فيتهلل وجه سوستيم كثيراً ، ويظن أن أدونيس قد عاد منتصراً على المنية ، ولكن كم خاب ظنه إذ دخل مارشيال إلى المسرح وحيداً منكس الرأس ، فبادرته فينوس تسأله وهي ملتاعة منهارة ، أين أدونيس ؟ فأجابها وهو يبكي : لقد قُضي الأمر ! لقد وجدته وفقدته ! فتقول فينوس وهي تبكي ، أين هو ؟ خذني إليه ! ولكن مارشيال يرفض ذلك ، لأنها لن تستطيع النظر إليه فقد اغتاله الوحش الضاري أشنع غيلة فصار أشلاء دامية . فتكرر فينوس مطلبها ورغبتها في الذهاب إلى حيث يرقد ، ولكنه يعاود الرفض ، ويقول إنهم سيذهبون دونها ودون الصغير كيوبيد أولاً كي يعدوا العدة بشكل يليق بدفن هذا العظيم ، ثم يحضرون جسمانه بعد ذلك . ويستعد مارشيال وزوي وسوستيم

للخروج ، فتعطي فينوس منديلها لزوي كي تضعه برفق وحنان فوق أشلائه الدامية .

ويخرج الثلاثة : مارشيال وزوي وسوستيم تاركين فينوس في صحبة كيوبيد ، وجلست فينوس زائغة البصر ، تبكي حبيبها الذي كانت الشمس تعشقه ، والنسيم يداعبه ، والأسماك تنتظر حضوره إلى النهر كي تطفو على سطح الماء ، فتنعم برؤية وجهه الجميل ، وإذا ما سار تحت الأشجار اكتظت الأشجار بالطير تراقبه وتداعبه ، إنه محبوب كل الخلائق. هل يمكن أن يكون الخنزير قد رأى محياه قبل قتله ؟ لا بد وأنها كانت ضربة طائشة أراد أن يداعبه فأساء التقدير فأنفذ أنيابه في ذلك الجسد البالغ غاية الرقة .

تقول هذا ثم تنخرط في بكاء شديد ، وفي أثناء ذلك يدخل إلى المسرح مارشيال وزوي وسوستيم ، فترفع فينوس رأسها ، وتقول دون أن ترى من يقفون أمامها : أرحب بك يا أدونيس ... يا من ترقبته طويلاً ، لشد ما أخرت أوبتك ، ما أعمق ما ستنام الآ ن ، أنت يا من لم تكن تخلد إلى مخدع ، أيها الوجه الصبوح ، أيتها الدماء الحارة ، أيها الفارس المقدام ، تعال، ادخل بيتك أبيض ناصع البياض مضرجاً بالدم المسفوك ... ! !

فيخبرها مارشيال بأنهم لم يستطيعوا إحضاره معهم ، فتجزع فينوس وتسأل عن السبب ، فإذا بالثلاثة يحاولون تبرير الموقف ، وكأنهم يدفعون الاتهام بالتقصير عن أنفسهم ، فيقول مارشيال : لقد تسامى ، وتقول زوي : لقد اختفى من بين أيدينا كما يختفي البخار ، ويقول سوستيم : كل ما يمكن أن يُقال : « إنه سلب منا » ! فتسعد فينوس بما سمعت ، وتقول : هذا بديع ! بل إنه أبدع من كل شيء . ثم تركع زوي على ركبة واحدة وتقدم المنديل لفينوس وقد خضب بدماء أدونيس ، فتأخذ

فينوس المنديل وتسير ببطء وهم وراءها، ثم تنحني وتسحب المنديل على الأرض أمام بيت أدونيس ، ثم تقول : حرام على أي إنسان أن يطأ بقدمه هذه الأرض المضرجة بدمائه الزكية .

ويصمت الجميع امتثالاً لأمر فينوس ، وتسمع أصوات نحيب من بعيد ، إنها الدنيا كلها تنتحب على أدونيس . وفي وسط هذا الصمت المخيم على الجميع ينطلق سوستيم قائلاً : رحماك اللهم ، واعجباً ، إن الزهر لينبت حيث مر منديل مولاتي ، إنها الزنابق ، إنها معجزة ، فتنطق فينوس والدهشة تعلو وجهها : زنابق ! أدونيس ! أدونيس ! أفديك نبتة ناشئة أو عصارة سائلة أو حمية وشباباً !

وتتملك الدهشة الجميع ويفرحون بهذه الزهرة الجميلة ، وتُذكرهم رقتها وجمالها برقة وجمال أدونيس ، ثم يقطف سوستيم واحدة من هذه الزهرات ويقدمها لمولاته فينوس .

(وفي نفس اللحظة يسدل الستار)



مظاهر الاختلاف بين المسرحية وقصيدة شكسبير

بعد أن عرضنا ملخصاً وافيـــاً للمسرحية كما كتبها اندريه أوبيه ، نستطيع الحكم بلا مشقة أن المسرحيّ الفرنسيّ قد حافظ على الإطار العام لقصيدة شكسبير ، بل ونقل الكثير من عباراته وحواره ، وهذا أمر طبيعي فهو لم يدع أنه ألّف المسرحية تأليفاً مستقلاً عن أي عمل سابق ، بل إنه مَسْرح قصيدة شكسبير مع إجراء بعض التعديلات التي تتفق والعمل المسرحي ، وعلى هذا فإننا سنضرب صفحاً عن مناقشة مظاهر الاتفاق لأنها كثيرة ويسهل على القارىء أن يدركها بقراءةملخَصيْ القصيدةوالمسرحية، وسنقصر الحديث عن مظاهر الاختلاف ، سواء أكان هذا الاختلاف خاصاً بالإعداد المسرحي ، أو بعض الأفكار والإتجاهـــات المعاصرة التي وجدت هنا وهناك في مواقف المسرحية ، والآن لننتقل إلى الحديث عن الحديث عن أهم مظاهر الاختلاف .

شخصيات جديدة :

الأبطال في قصيدة شكسبير اثنان فقط هما صاحبا الأسطورة فينوس وأدونيس ، وإن أشار شكسبير إشارة سريعة مقتضبة إلى « تيتان » الذي كان يراقب فينوس وهي تلحّ في ملاحقتها لأدونيس ، ولكن أدونيس

يرفض الإذعان لغوايتها ، فتمنى تيتان [1] أن يكون مكان أدونيس كي يستجيب لهذه الغواية ، بل يقبل عليها ولو لم تبادره بأية ملاحقة أو طلب لمطارحتها الهوى . أما في المسرحيــة فقد أضاف إلى البطلين عدداً مــن الشخصيات التي لعبت دوراً ليس بالقصير ، وهذه الشخصيات الجديدة تتمثل فيما يلي :

مارشيال : صديق أدونيس وشريكه في مطاردة الصيد ، والذي يختلف عنه في موقفه من المرأة والحب ، فبمجرد سماعه أن جارة أدونيس اسمها فينوس ، أظهر شغفه بالتعرف على حقيقة أمرها ، وهل هي فينوس الحقيقية ، أم فينوس أخرى ؟ وهل هي جميلة ، وهل .. وهل ؟ .... وفي هذا الصدد دار بينهما هذا الحوار :

مارشيال : أية سيدة ؟
أدونيس : سيدة تسمى فينوس
مارشيال : فينوس ! ؟
أدونيس : هذا هو اسمها .
مارشيال : أهي فينوس الحقيقية ؟
أدونيس : ما أكثر ما تسأل ، لقد قرأت اسمها هذا على خطاب وصلني عن خطأ .
مارشيال : أجميلة هي ؟
أدونيس : أف !
مارشيال : وفي مقتبل الشباب ؟
أدونيس : لم أتطلع إليها طويلاً .

---

(١) قصيدة فينوس وأدونيس لشكسبير ، بيت : ١٧٧ - ١٨٠ .

مارشيال : عجباً ... من تكون جارته إلهة من السماء ، لا بد وأن يدرك ذلك ... يا للشيطان ... وكيف تقضي يومها ؟

أدونيس : إلا هذا يا عزيزي ... فيما يختص بها ... لا ... لا أدري شيئاً ... يبدو أنها مولعة بالزهور والطيور والموسيقى والثياب الرقيقة .

مارشيال : لا بد أنها هي بذاتها ... واأسفاه ... كم أنت مسكين يا أدونيس ... [1]

ولعل أندري أوبيه أراد أن يوضح بإيجاده هذه الشخصية تلك الإشارة التي ذكرها شكسبير على لسان أدونيس ، حينما قال لفينوس ، لقد كنت السبب في تأخري عن رفاقي ، وليوضح كذلك الفرق بين أخلاق أدونيس المتفاني كلية في الصيد وتعقب الطرائد ، وبين شاب آخر يجمع بين هواية الصيد وبين النظر إلى الجميلات والتمتع برؤيتهن ، وربما مطارحتهن الهوى .

زوي : وصيفة فينوس ، والأمينة على أسرارها ، وقد وصفتها فينوس بقولها : « أنت فتاة فاتنة يا زوي ! حلوة الشمائل ، رقيقة الجسم على قدر وفير من الجمال » [2] . وقد جرّبت الحب ذات مرة فروى ظمأها مدى الحياة . [3] وقد حاول سوستيم ملاحقتها بالغرام بعد أن أصيب بسهم من كيوبيد ، ولكنها كانت ترفض هذا العرض على الدوام .

سوستيم : منسق حدائق فينوس ، وصاحب الخبرة الطويلة في هذا

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٤٦ — ٤٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص : ٥٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٠ .

المجال، فقد نسق حدائق الهسبير (جزر الكنار الحالية) قبل أن يلتحق بخدمة فينوس [1] ، كما أنه قادر على أن يطعم أشجار التفاح بالتبر والنضار [2] . وعلى الرغم من كهولته فقد أمرت فينوس كيوبيد بتفويق أحد سهامه إلى قلبه ، وما إن أصابه السهم حتى عادت إليه حيويته وشبابه ، وانخرط في ملاحقة زوي ، وبثها هواه وحبه .

كيوبيد : ملاك الحب ، ذلك الصغير الذي يعيش في جوار فينوس على الدوام ، والمكلف بتفويق سهام الحب لكل من تأمره فينوس برشقهم ، وقد صوره أندريه أوبيه طفلاً صغيراً لا يحسن أحياناً تفويق السهام ، فقد فشل في توجيه سهام الحب صوب قلب أدونيس على الرغم من إطلاقه لأربعة سهام خابت كلها في زرع حب فينوس في قلب أدونيس [3] كما صوره الكاتب طفلاً رعديداً يخشى المنية وترتعد فرائصه لرؤيتها [4] . ولم يكن رسم هذه الشخصية من إبداع أندريه أوبيه ، بل أخذها عـن الأساطير القديمة ــ ومنها أساطير أوفيد ــ التي ربطت بين ربة الجمال والحب فينوس وملاك الحب كيوبيد .

المنية : إذا كان شكسبير قد أطلق لسان فينوس لكي تسب الموت وتلعنه فإن أندريه أوبيه قد جسد الموت في شخصية حقيقية تظهر على المسرح في صورة سيدة أنيقة نحيفة تعتني بمظهرها ، نصف مقنعة ، وإذا كان شكسبير ــ مثله في ذلك مثل أوفيد ــ قد رمز للموت بالخنزير البري المتوحش ، فإن أندريه قد حرص على تجسيد هذا الرمز كي يعتلي خشبة المسرح ، ولا يبقى رمزاً قد يغلق على بعض النظارة إدراكه ، كما أراد الكاتب بتجسيده

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٥٩ .
(٣) نفس المصدر ، ص : ٧٨ — ٨٠ .
(٤) نفس المصدر ، ص : ٩٥ .

للموت ، وحديثه عن الصراع الدائر بين المنية وفينوس ؛ أن يذكر طرفاً من الصراع الذي طالما دار بين الآلهة ، ذلك الصراع الذي تغص به كتب الأساطير القديمة ، ومنها كتب أوفيد نفسه .

ولكن كيف أوجد أندريه أوبيه هذه الشخصية ؟

لقد أوجد أندريه أوبيه هذه الشخصية من خلال قراءته لأسطورة موت أورفيه (أورفيوس) في مسخ الكائنات لأوفيد ، وقد أشارت إلى ذلك فينوس ،عندما سيطر الهلع على الجميع لمقدم المنية واقترابها من دار فينوس:

صوت سوستيم : أمر عجيب ! غاية في العجب !

صـــوت زوي : آه . يا سيدي

مــلاك الحـــب : ماذا هنالك ؟ ما الذي حدث ؟

فينوس : صه ! لا شيء ! يجب أن نتذرع بالصبر . ينبغي فوق كل شيء أن لا ترتعد أبداً !

... إذا ارتعدنا ، فإنها في الحال تراه ، وحينئذ لات حين ندم ، هل تذكر يوم « أورفية » إله الغناء ؟ يوم كنا نجلس معاً نرقبه من مخبئنا في الغار إذ رآها فارتعد ! يا للمسكين !

مــلاك الحب : يوم أورفيه ! نعم سيدتي . ولكن ...

فينوس : اسكت !

مــلاك الحب : ولكن ، من الذي يمشي هناك ؟

فينوس : اسكت ! أتوسل إليك ! يا إلهي ! إنها هي ! (١)

وبالرجوع إلى كتاب أوفيد ، نجد أنه صور المنية في صورة مجموعة من نسوة كيكونيا ـ تقع على شواطئ نهر الهيبروس ـ المجذوبات ، كن

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٨٩ .

يضمرن السوء لصاحب الصوت الجميل أورفيوس ، ولذا ما إن اقترب من مكمنهن ، حتى صاحت إحداهن وشعرها يتطاير في الهواء : « ها هوذا من يستخف بنا » ثم سددت حربتها إلى فم الشاعر ، غير أن الحربة لم تصبه بأي أذى ، ثم ألقت عليه أخرى حجراً كبيراً سقط عند قدميه دون أن ينال منه ، ثم توالت قذائف النسوة وقد تولتهن ثورة الغضب ، حتى نزف دم الشاعر الأعزل وأخذ يصبغ الحجارة بلونه القرمزي . ثم تدافعت النساء نحو الشاعر ، فتوسل إليهن أن يتركنه ، ولكنه فشل في تحريك عواطفهن وسددن إليه الضربة القاضية ، فانطلقت روحه من بين شفتيه اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوانات والأشجار والأحجار ،ومضت روحه في صحبة الرياح[1]



وهكذا تعددت الشخصيات التي ستظهر على المسرح ليعبر من خلالهم الكاتب المسرحي أندريه أوبيه عن مضمون الأسطورة بالحركة والكلمة المنطوقة ، بدلاً من الوصف والكلمة المكتوبة،وحتى يعج المسرح بالممثلين ، هذا داخل، وذاك خارج دون أن تقتصر المسرحية على البطل والبطلةوحدهما فيضمن بذلك توفر عنصر التشويق .



مواقف مسرحية :

جعل أندريه أوبيه السرد القصصي حواراً ينبض بالحياة ، والوصف حركة يموج بها المسرح ، وتشد أنظار المشاهدين إلى متابعة الأسطورة ، في نمط جديد يختلف عما جاء في القصيدة الشعرية ، وإذا تركنا الحوار

(١) مسخ الكائنات ، الكتاب الحادي عشر ، ص : ٣٠٤ — ٣٠٦ .

جانباً ، وتحدثنا عن الحركة على المسرح ، فإننا نقول إن أندريه أوبيه قد أضاف بعض المواقف المسرحية التي تتيح للممثلين الحركة ومزيداً من العطاء الفني على خشبة المسرح ، ذلك العطاء الذي يساعد على نجاح العمل المسرحي ، وخلق المزيد من التشويق لدى النظارة ، ولسنا بصدد الحديث عن كل هذه المواقف ، بل ستتحدث عن بعضها كأمثلة لما أضافه الكاتب المسرحي ، ولم يكن موجوداً في الأصل الإنجليزي عند شكسبير .

من هذه المواقف التي تنبض بالحركة والحيوية وتشيع جواً من المرح: ملاحقة سوستيم منسق الحدائق لزوي وصيفة فينوس بعد أن أصيب بسهم الحب ، أطلقه عليه كيوبيد ، فاستقر بقلبه ، فيعتدل قائماً ، يتنهد. يلتفت حوله . يرى زوي فيجري إليها .

زوي : دعني . لا . لست أنا !

سوستيم : بل أنت نفسك . ويحي كيف استطعتُ أن أعيش على هذا القرب منك دون أن أراك ، يا جميلتي !

زوي : النجدة ! (تجري هاربة)

سوستيم : يا أجمل الجميلات (يجري وراءها)

(الاثنان يخرجان من يمين المؤخرة)[1]

(وبعد فترة تُرى في مؤخرة المسرح من اليمين إلى الشمال زوي تسرع هاربة من سوستيم الذي يتبعها وهو يقدم لها باقة زهر)[2]

موقف آخر يمثل فيه كيوبيد ملاك الحب دور مارس إله الحرب وذلك

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٦٠ — ٦١ .

(٢) نفس المرجع ، ص : ٦٤ .

حين أراد أن يسري عن فينوس ، فيخطو خطوات من الرقص المضحك ، وتتابعه فينوس وهي تقهقه ، ثم تقول :

فينوس : ... إنه هو ، هو تماماً ، كأني أراه بلحمه ودمه ....
ملاك الحب : تعالي ارقصي معي
فينوس : لا يا بني حسبك ما فعلت ! لقد أضحكتني ، وأشعر الآن أني أحسن كثيراً . امض أنت إلى عبثك ! [1]

ومو قف مسرحي ثالث يتمثل في سقوط فينوس مغشياً عليها وما تبع ذلك من غناء أدونيس وصديقه مارشيال على المسرح ، ظناً منهما أن اللحن والغناء قد يساعدانها على أن تستعيد رشدها وتفيق من غيبوبتها ، بعد أن نفـّذ أدونيس ما ذكره شكسبير في قصيدته ، ولم يفلح في صحوها وعودتها إلى رشدها :

فينوس (تصرخ صرخة شديدة) آه (تشعر بالمرض فجأة) .
أدونيس : ماذا بك ؟ أنت بخير !

(يبدو عليه أنه انتابته حيرة شديدة . يهرش رأسه . يحاول أن يظفر بمعونة ثم يعود وقد غيرّ رأيه . أخيراً يركـع بجانبها ... ويهوي على وجهها يقرص أنفها ، ينفخ في أهدابها ... كل ذلك بغير نتيجة)

أدونيس : ماذا لو غنيت لها أغنية صغيرة ؟

(بينما يدق على يديها يخرج من فمه نغماً شبيهاً بنشيد الصيد تالالا . لالا . س فا . صول لا سي دوا)

ثم يدخل مارشيال ويعرف ماذا أصاب فينوس ، فيشاركه

---

(١) نفس المرجع ، ص : ٦٢ – ٦٣ .

الغناء ومساعدته فيما يعمل ، حتى تثوب فينوس إلى رشدها وتستعيد عافيتها .[1]

وموقف مسرحي رابع ، ينبض بالحركة ، ويفيض بالحيوية ،وذلك عندما حاول ملاك الحب كيوبيد أن يفوق سهامه إلى قلب أدونيس عندما أصر أدونيس على مفارقة فينوس ، فحاولت أن تودعه ، ولكنها لم تقو على النطق بكلمة « الوداع » ، حيث قطع كلامها سهم أطلقه كيوبيد :

(صوت مرور سهم في الهواء يقطع عليها حديثها . أدونيس يتجنبه ثم يُمثّل حركة من يلتقط السهم من الهواء، ويكسره ثم يلقي بقطعه على الأرض)

أدونيس : طاش السهم أيها الطفل الصغير ! هل تريد أن ألقنك درساً ؟

(سهم ثان. ونفس الحركة من أدونيس)

أدونيس : طاش للمرة الثانية !

ملاك الحب : (مغيظاً) يا للعجب !

أدونيس : من هو ذلك الغرّ الذي علمك رميَ السهام ؟

(للمرة الثالثة يفوق ملاك الحب سهمه، ووجهه قد احمر غضباً)

.... إلى آخر الموقف ، وبعد أن أطلق كيوبيد أربعة سهام ، كان أدونيس يقفز ويلتقط كل سهم منها ، ويحطمه . مع ما تبع ذلك من سخرية بكيوبيد وبجهله الطريقة المثلى لتفويق السهام .[2]

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٧٤ — ٧٦ .

(٢) الترجمة العربية ، ص : ٧٨ — ٨٦ .

وموقف أخير أراد المؤلف أن يصور فيه عودة الحياة إلى أدونيس في صورة زهرة جديدة ، فقد قدمت زوي إلى فينوس المنديل الذي سبق أن أعطته لها كي تضعه على جسد أدونيس ، ولكنه خضب بالدماء بعد أن تسامى جسد أدونيس وتلاشى ، فسحبت فينوس المنديل على الأرض ، ونتج عن ذلك ظهور زنابق عديدة ، وقد تبع ظهورها حركة نشطة على المسرح .

زوي : وهذا منديلك مضرجاً بدمه .

(تركع بركبة واحدة على الأرض وتعطي المنديل لفينوس، فتأخذ المنديل وتسير ببطء نحو المؤخرة وهم وراءها، ثم تنحني وتسحب المنديل على الأرض أمام بيت أدونيس) .

فينوس : حرام على كل إنسان أن يطأ بقدمه هذه الأرض المضرجة بالدماء ، حرام على كل أحد أن يتخطى هذه العتبة التي كسبت الحمرة من أنقى دم في الوجود .

....

سوستيم : (الذي ظل في المؤخرة) رحماك اللهم . واعجباه ! هل رأت مولاتي ، إن الزهر لينبت حيث مر منديلها ؟

زوي : حقاً !

مارشيال : أي الله !

سوستيم : إنها زنابق !

فينوس : زنابق !

سوستيم : ما أشد بهاءها . ما أجمل ازدهارها . تالله إنها لمعجزة .

ملاك الحب : (مفتوناً) وأية معجزة !

سوستيم : عهد عليّ أن أتعهدها ما حييت .

فينوس : أدونيس ! أدونيس ! أفديك نبتة ناشئة أو عصارة سائلة أو حمية وشبابا ....

إلى نهاية الموقف ، الذي تنتهي المسرحية بنهايته . [1]

ويمكن أن نضيف إلى هذه المواقف المسرحية ، ما تبعها ، وما تبع العمل المسرحي كله من **مؤثرات صوتية** ، كصوت الديكة ، وزقزقة العصافير ، وتغريد البلابل مع افتتاح الستار ، للتعبير عن بزوغ فجر يوم جديد ، وأن الخروج إلى الصيد يبدأ مع أول إشراقة للشمس وربما قبل ذلك.

ومن المؤثرات الصوتية التي استخدمت كذلك ، استخدام البوق عند الخروج إلى الصيد ، وكذلك قرع الطبول ، أو حتّى إطلاق صيحة الحرب (**ها هو وهو ذا** [2]) وكأنهما (أدونيس وصديقه) متوجهان إلى معركة مع الوحوش الكاسرة . وكذلك أصوات انطلاق سهام كيوبيد ، عندما أطلقها على سوستيم وأصابته في القلب ، وأطلقها على أدونيس ولم يوفق في إصابته ، وقد أطلق عليه أربعة سهام ، صحب كل سهم منها ، مؤثر صوتي يعبر عن انطلاق السهم .



من وحي العصر الحديث :

تعرض المسرحية لأسطورة قديمة ، ترجع في قدمها إلى عصور ما قبل التاريخ ، ومع هذا فقد ضمنها المؤلف بعض الأفكار المعاصرة التي نجدها

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ١٠٤ — ١٠٦ .

(٢) الترجمة العربية ، ص : ٤٨ .

في أسطورة أوفيد ، ولا في قصيدة شكسبير ، ومن هذه المواقف أو الأفكار الّتي تتفق وروح العصر الحديث ، ما يلي :

بدت فينوس فتاة عصرية تقطن منزلاً تحيط به الورود والرياحين من كل جانب ، ويوجد في خدمتها الوصيفات والخدم ، والأهم من هذا كله أنها تكتب مذكرات خاصة تسجل فيها جولات الحب التي تخوض غمارها ، ثم تجعل هذه المذكرات في متناول أترابها كي يُقررن بمهارتها في مضمار الغزل ، وكم حفل العصر الحديث بمذكرات كتبتها أديبات في الشرق أو الغرب ، سجلن فيها جولات عشقهن . وقد جاء الحديث عن هذه المذكرات عندما قالت زوي لسيدتها فينوس :

زوي : أرجو سيدتي العفو ، فأنا حديثة العهد بالخدمة ، لقد تصفحت على عجل تلك المذكرات التّي تفضلت فأودعتها لدي ... قرأتها في لمحة ... حقاً إنها قصص رائعة ... غير أني أدع التفاصيل جانباً وأود الآن أن أعرف شيئاً : هل كان في الإمكان مقاومة إغراء سيدتي أحياناً ؟

فينوس : أبداً يا ابنتي !

زوي : حسناً ، ولكن ، لتصفح عني سيدتي ، إنني شديدة الخوف من أن يفتح هذا الشاب باب الفصل الأول من فصول المقاومة .... [1]

كما أنها فتاة عصرية تراسل الصديقات والأصدقاء ، فتأتيها الرسائل على دارها ، ولكن يخطىء ساعي البريد ويسلم إحدى رسائلها إلى أدونيس ، فيقرأ اسمها على الغلاف ، ولم يكن يعرفه من قبل . [2]

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٥٠ — ٥١ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٤٧ .

ويشاركها أدونيس نفس الصفة ، فهو شاب عصري يضع حول معصمه ساعة يد ينظر إليها بمجرد دخوله إلى المسرح [1] ، وهذه زوي تصفه لسيدتها فينوس بصفات يتمتع أصحابها بإعجاب خاص بين شباب هذا العصر :

« إنه صائد ماهر ، ضابط جريء . لاعب كرة قدير . وربما كان ملاكماً أيضاً ... » [2]

وهذه فينوس تتحدث عن عصريته ، فتقول له بعد أن رفض الاستجابة لغوايتها ، وأبى حبها :

« نعم أنت على حق ! ما أقدركم على التحكم في أنفسكم يا شباب هذا الجيل ! ... لا يستطيع أحد أن ينتزعكم من أنفسكم . ولا يستطيع أحد أن يثير فيها الفتون ، أليس كذلك ؟ » ... [3]

وإذا كان أندريه أوبيه قد ألبس كلاً من فينوس وأدونيس حلة بشرية وخلع عنهما حلتهما الملائكية ، فقد جاز له أن يرفع من شأن الإنسان ويبالغ في تكريمه ، بل ويضعه في مكانة أسمى من مكانة الآلهة أنفسهم ، وحجته في هذا أن حصيلة البشر من المعرفة تفوق حصيلة الآلهة في هذا المضمار ، لأن حصيلة الآلهة محدودة لا تتجدد ، أما حصيلة البشر فإنها متجددة بتجدد أجيال الشباب الآدمي جيلاً بعد جيل ، فقد قالت زوي معقبة على عدم اكتراث أدونيس بفينوس، ورفضه الحضور لتقديم الاعتذار عما بدر منه ومن صديقه من صيحات قد تكون أفزعت فينوس من نومها :

---

(١) نفس المصدر ص : ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٥١ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٧٨ .

زوي : إني لأخدع نفسي خداعاً شديداً إذا ظننت أن هذا الشاب
لن يثير المتاعب لسيدتي . إنها تتخيل أنها حسبها أن تظهر
فتقهر . ولكن ، ما أشد جهل الآلهة ! فهم يحسبون أنهم
بما تميزوا من صفة الخلود ... وبما ملكوا من الإحاطة
بأحوال الناس إحاطة عامة قد عرفوا كل شيء عن الإنسان،
ولكن هناك من التغيرات على الأرض في غضون عام واحد
ما يربو على ما يحدث منها في السماء في قرن من الزمان ،
ثم إن الآلهة ليس عندها ما عند الآدميين من أجيال الشباب
التي تزدهر كل آن . وهذا لعمري فارق كبير ! [1]

وما دام الإنسان مكرماً إلى هذا الحد ، فعليه أن يحافظ على كرامته ، وأن يكون له كبرياؤه الذي يأبى أن ينتقص منه شيء ، ولعل هذا الموقف متفق مع ميثاق حقوق الإنسان الذي يحفظ لكل إنسان كرامته مهما قل شأنه ،أو صغر مركزه في الحياة . وقد ظهرت هذه الدعوة على لسان سوستيم عندما رفض تعنيف فينوس له ، واتهامها إياه بأنه جعل الحديقة تثير السخرية وتبعث في النفس السأم ، ومما قاله :

«مولاتي ، أنا خادمك ، خادمك المطيع ، غير أنني لي كبريائي » ! [2]

* * *

من ذات المؤلف :

إذا كان شكسبير موجوداً في قصيدته من خلال قدراته الفنية واللغوية

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٤٩ — ٥٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص : ٥٨ .

أو من خلال الحديث عن طبيعة المنطقة التي عاش فيها ، أو من خلال بعض السجايا التي كان يتخلق بها ، فـإن أندريه أوبيه موجود هو الآخر ،في مسرحيته ، فبالإضافة إلى قدرته على مسرحة القصيدة ، فإنه موجود من خلال بعض الآراء والمواقف التي تتفق ونظرته إلى الحياة ، أو تتفق مع تجارب مرت به في حياته الخاصة ، ومن هذه المواقف والآراء :

كان أندريه أوبيه على علم وخبرة باستعمال بعض الأسلحة ، وكيفية التصويب نحو الهدف ، فقد أشرنا في التقديم للمسرحية بأنه تلقى تدريبه العسكري ثم انضم إلى صفوف المحاربين خلال الحرب العالمية الأولى، وجرح خلال الحرب جراحاً خطيرة ، وقد ظهر أثر هذه الخبرة عندما تحدث على لسان فينوس وهي تشرف على تدريب كيوبيد ، وتعلمه كيف يطلـق السهام :

ملاك الحب : سيدتي إنني أتمرن . أنت أذنت لي بالمران .

فينوس : لقد أقمت لك في مؤخرة الحديقة حلبة رائعة لسهامك . أطلقها على الأشجار ، أطلقها على الحيطان ، أطلقها على الرجال إذا شئت ، أما الطيور فلا تطلق عليها شيئاً .

ملاك الحب : سمعاً وطاعة يا سيدتي

فينوس : .... أرني مدى التقدم الذي تقدمته . قف هنا وصوب سهمك نحو تلك الشجرة ... اعدل قامتك . لتكن ساقاك الصغيرتان عموديتين ولينتين . ولتكن حركة ذراعك الأيمن لينة هي الأخرى . ارفع مرفقك الأيمن قليلاً . مل برأسك بعض الشيء . أطلق سهمك . حسناً أيها العزيز . حسناً جداً ! [1]

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٥٧ .

وقد تحدث المؤلف عن هذه الخبرة في موضع آخر ، وذلك عندما كان كيوبيد يفوق سهامه صوب قلب أدونيس ، ولكنه أخفق ، فحاول أدونيس أن يعلمه كيف يُحسن إصابة الهدف :

أدونيس : طاش السهم أيها الطفل الصغير ، هل تريد أن ألقنك درساً ؟

أدونيس : طاش للمرة الثانية !

ملاك الحب : (مغيظاً) يا للعجب ؟

أدونيس : من هو ذلك الغر الذي علمك رمي السهام ؟
(للمرة الثالثة يفوق ملاك الحب سهمه ووجهه قد احمر غضباً)

أدونيس : يا للوضع الخاطىء ، هل أنت مخلوق من خشب أيها الصغير ؟ ينبغي أن تستعمل مرونتك ! ليس هكذا يا فتى !
(ينطلق السهم الثالث . أدونيس يجري ويؤدي نفس الحركة . الملاك يدق الأرض بقدمه)

أدونيس : مهلاً . مهلاً . اهدأ قليلاً . حاول مرة ثانية . أجل ! أجل ! هكذا ! هذا أفضل ، يبدو أنك ستحسن التصويب هذه المرة ، هيا ! أطلق !

.... (١)

ومن خلال الحديث الذي يدور بين أبطال المسرحية ندرك أن أندريه أوبيه يدافع عن الرجال إذ أنهم ليسوا أشراراً أو مذنبين حتى يستحقوا الطعان ، وقد قال بهذا الرأي عندما وجه أدونيس الحديث إلى كيوبيد

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٧٩ – ٨٠ .

ناصحاً إياه بإطلاق سهامه على الحيوانات لا على الرجال كما تأمره فينوس :

أدونيس : ... أيها الصبي الوديع ، الشجاع ... ستصبح يوماً ما بطلاً ! سترى ذلك بنفسك ! سترى ! ولكن لا تطلق سهامك على الرجال، فالرجال كما تعلم ليسوا بأشرار . أطلق سهامك على الحيوانات ! أتفهمني ؟ على البهائم .

ملاك الحب : سمعاً وطاعة [1]

كما يبدو دفاع أندريه عن الذكور في تحويله جواد أدونيس الذكر كما جاء في قصيدة شكسبير إلى فرس (مؤنث) ، ولعله أراد القول بأن الاندفاع وراء الشهوة من سمات الإناث لا الذكور ، فها هو فرس أدونيس — مثلها مثل فينوس — ما إن رأت جواداً جميلاً حتى أعجبت به ، وفكت رباطها وأسرعت في إثره ، تعرض نفسها عليه ، وتستميله بدلالها وغوايتها ، كي تنعم بوصاله . [2] ومع هذا فإنني أرى أن شكسبير كان أكثر توفيقاً في جعل دابة أدونيس ذكراً لا أنثى ، حتى يستطيع أن يوضح أن ما يرفضه الفتى أدونيس لا يتفق وطبيعة الذكور ، فهذا جواده الذكر يمارس الهوى ويستجيب لداعي العشق ونداء اللذة .

وأخيراً فإن أندريه أوبيه خلع على فينوس رداءً من ذاته ، فقد رجحتُ في تقديمي للمسرحية بأن الكاتب قد كتبها وهو في سن متقدمة بدأ يشكو أيامها الكهولة والشيخوخة وما يصاحب هذه المرحلة من آلام وهموم ، فهذه فينوس ذات الربيع الدائم وإلهة الجمال التي تعيش في شباب مستمر

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٧٠ — ٧٢ .

قد جعلها الكاتب تشكو كبر السن وآلام الشيخوخة ، وقد عبر الكاتب عن رأيه هذا خلال الحوار الذي دار بين فينوس والمنية :

المنية : .... ما أشد ما نضر جمالك منذ التقينا آخر مرة !
فينوس : ألف حمد لله يا سيدتي ، غير أني أتقدم في السن كما تعلمين !
المنية : أبداً . أبداً . لا شيء من ذلك ! وجنة من عقيق ، وصدر منشرح ! أنت امرأة سعيدة يا سيدتي !
فينوس : لا تصدقي ذلك ، قلت لك أنني أتقدم في السن ، والسن مجلبة للهموم ! [1]

★ ★ ★

بعد هذا العرض السريع للمسرحية ، ولما أضافه إليها أندريه أوبيه ، يمكن القول بأنه نجح في مسرحتها ونقلها من قصيدة ناجحة مكتوبة ، إلى مسرحية ناجحة تمثل على خشبة المسرح ، ولم يكن مجرد مترجم لعمل شاعر كبير هو شكسبير ، بل إنه أفاض عليها من خبرته الواسعة بعالم المسرح والتمثيل ، مما حدا بالمترجم العربي الأستاذ محمود صابر أن يقول : « فهي إذن قد جمعت بحق أصالة الأدب الإنجليزي ، وسمو الفن الفرنسي معاً [2] »

---

(١) الترجمة العربية ، ص : ٩٠ - ٩١ .
(٢) نفس المصدر ، ص : ٩ .

الفَصْل الرّابع

منظومة زهره ومنوجهر

للشاعر الإيراني إيرج ميرزا



منظومة زهره ومنوجهر

شعر إيرج ميرزا

تقديم :

ولد إيرج ميرزا الذي لقب فيما بعد بجلال الممالك في تبريز عام ١٢٩١ هـ . ق (١٨٧٤ م) ويتصل نسبه بالأسرة القاجارية الحاكمة في ذلك الوقت، وقد نشأ في بيت يحب الأدب ويعمل به ، فقد كان كل من أبيه وجده شاعرين ، ولكنه بزّهما بعد ذلك ، وأصبح اسمه في مضمار الشعر أكثر شهرة وذيوعاً منهما . وقد تعلم ايرج العلوم المتعارف عليها في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، حيث تعلم اللغتين العربية والفارسية ، وما يتصل بهما من علوم إسلامية ولغوية ، كما أتاحت له ظروفه الأسرية ، واتصاله بالطبقة الحاكمة أن يتعلم اللغة الفرنسية على يد معلم خاص هو « المسيو لامبر » .

وعلى عادة أبناء الأسر المقتدرة في ذلك الوقت ، تزوج ايرج وله من العمر ستة عشر عاماً ، ولكن الحياة لم تستمر على عطائها معه ، فقد توفي والده وله من العمر تسعة عشر عاماً ، مما أصبح معه ايرج مسئولاً عن أسرته الصغيرة وكذلك أسرة أبيه ، فكف عن مواصلة الدرس واضطر إلى الانخراط في سلك الوظائف العامة فتقلد عدة مناصب في مصلحة الجمارك حيث عمل مترجماً

للغة الفرنسية مع بعض المستشارين الفرنسيين العاملين في هذه المصلحة ، كما تقلد مناصب مالية وضرائبية أخرى ، زد على ذلك أنه عمل فترة في بداية حياته شاعراً لدى ولي العهد الذي كان يقطن مدينة تبريز ممثلاً لوالده الشاه في هذه المدينة ، وقد كفل له عمله مع ولي العهد ورجال الدولة فرصة السفر ذات مرة إلى إنجلترا ، وأخيراً تبرم بالوظيفة ، فآثر اعتزال العمل في الدولة وعكف على عقد مجالس الشعر والشراب في بيته بطهران ، فكان يؤم مجلسه كبار شعراء إيران وأدبائها ، وكذلك محبو شعره إلى أن وافته المنية بغتة في العام الخامس والعشرين من القرن العشرين . [1]

ومن أهم ما نظمه هذا الشاعر — الذي يعد أعظم شاعر أنجبته إيران في العصر الحديث — منظومة « زهره ومنوچهر » . وقد نظمها الشاعر في العام الأخير من حياته ، حتى إنه قد فارق الحياة قبل أن يتم الأسطورة ، وقام شعراء آخرون بنظم بقيتها ، ومن الذين أسهموا في هذا المضمار كل من الدكتور محمود حسابي عالم الفيزياء والذي تولى من قبل منصب العمادة في كلية العلوم بجامعة طهران ، وكذلك الشاعر مصطفى قلي بن سليمان الشيباني الذي كان يتخلص باسم « أديب » .

وتقع المنظومة كما جاءت في نسخة الديوان الذي نشره الدكتور محمد جعفر محجوب في خمسمائة وأربعة وثمانين بيتاً ، وقد اختلفت الآراء في عدد الأبيات التي نظمها ايرج ، وتلك التي أكملها غيره ، وقد تراوح عدد الأبيات التي نظمها ايرج حسب طبعات الديوان المختلفة ما بين أربعمائة وخمسة وثلاثين بيتاً ، وأربعمائة وثلاثة وخمسين بيتاً .

---

(١) لمعرفة المزيد عن حياة ايرج ميرزا وشعره ، يمكن الرجوع إلى ديوانه الذي نشره وقدم له الدكتور محمد جعفر محجوب ، طهران ١٣٥٣ ش ، از صبا تانيما : يحيى آرين بور ، ج ٢ ، تهران ١٣٥١ ش، أفكار وآثار ايرج : سيد هادي حائري : تهران ١٣٢٤ ش ، أدبيات معاصر : رشيد باسمي ، طهران ١٣١٦ ش وغيرها من الكتب التي أرخت للشاعر وأدبه .

وقد نظم إيرج أسطورته على نمط قصيدة شكسبير فينوس وأدونيس ولكن هل نظمها والأصل الإنجليزي تحت بصره ، أم اعتمد على ترجمة لهذه القصيدة ؟

من المعروف أن ايرج قد سافر في صحبة أولي الأمر ذات مرة إلى لندن، ولكن لا يعني هذا أنه كان يجيد اللغة الإنجليزية ، بل الثابت عنه أنه كان يجيد اللغة الفرنسية ، حيث تعلمها ، ثم اشتغل مترجماً للغـــة الفرنسية بإدارة الجمارك ، هذا بالإضافة إلى إجادته اللغتين الفارسية والعربية ، ولكن لم يرد في الأخبار أن قصيدة شكسبير قد ترجمت إلى اللغة العربية في ذلك الوقت الذي نظم فيه ايرج منظومته ،وعلى هذا فإننا نستبعد أنه قرأ الأسطورة في ترجمة عربية ، ويبقى أمامنا افتراض منطقي بأن ايرج قد اطلع عـــلى الأسطورة من خلال ترجمة إما فرنسية وإما فارسية لقصيدة شكسبير ، أما عن احتمال أنه قرأها من خلال اللغة الفارسية فهو أمر وارد وإن لم نعرف من الذي قام بهذه الترجمة ، وهل كانت ترجمة منشورة — وإن لم نحظ بنسخة منها — أم أنها كانت ترجمة خطية اطلع عليها ايرج ونظم على غرارها ، ولكن هذه الترجمة الخطية لم تتح لها الفرصة فتُطبع . وعلى هذا فإن الاحتمال الأقوى أن يكون ايرج قد اطلع على الأسطورة من خلال ترجمة فرنسية لقصيدة شكسبير ، وقد ذكرت في الفصل الثالث أن أدب شكسبير كان متداولاً في فرنسا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وعلى هذا فمن المحتمل أن تكون قصيدة شكسبير قد ترجمت أكثر من مرة إلى اللغة الفرنسية ، وأن يكون ايرج قد اطلع على إحدى هذه الترجمات.

ولست أعني بالترجمة الفرنسية تلك المسرحية التي ألفها أندريه أوبيه عن قصيدة شكسبير ، والتي تعرضنا لدراستها في الفصل السابق من هذا الكتاب ، بل أعني ترجمة دقيقة للقصيدة دون تحريف تقريبـــاً ودون إضافات كما حدث فيما فعله أندريه أوبيه في مسرحيته ، والدليل على ذلك

أن الجزء الذي نظمه ايرج من الأسطورة يكاديكون متفقاً في خطوطه الأساسية مع النص الإنجليزي ، أما ما ورد بالمنظومة الفارسية من إضافات ، فإنها من صنع ايرج نفسه ، وذلك لأنها — كما سنعرف بعد عرض المنظومة — تتفق والرداء الفارسي الذي خلعه ايرج ميرزا على الأسطورة .

ولكن ، إذا كان إيرج قد التزم الخطوط العريضه للأسطورة كما جاءت في قصيدة شكسبير ، فإن الشعراء الذين أسهموا في إتمام الأسطورة بعد وفاة ايرج لم يلتزموا متابعة شكسبير في هذا الأمر ، بل إن كل واحد من هؤلاء قد أتم الأسطورة وفق هواه ، وحسب ما تصوره دون الرجوع إلى قصيدة شكسبير ، وذلك إما لأنه لم يرغب في هذا الالتزام ، واما لأنه لم يكن يعرف أن ايرج كان ينظم أسطورته على غرار ما أقدم عليه الشاعر الإنجليزي الكبير وليام شكسبير . ونتيجة لهذا ، فإننا سنلاحظ عند عرض المنظومة أن الجزء الأخير لم يأت موافقاً للأصل الإنجليزي .

أما عن تغيير اسم بطلي الأسطورة ، فمرده إلى رغبة الشاعر ايرج ميرزا — كما سنعرف فيما بعد — في إلباس الأسطورة لباساً فارسياً ، ولكن هل اقتصر ما أدخله إيرج ميرزا على تغيير الاسمين فقط ، أم أنه أضاف العديد من الأفكار والآراء والسمات الفارسية إلى الأسطورة ؟

للاجابة عن هذا السؤال يجمل بنا أن نقدم عرضاً للمنظومة الفارسية « زهره ومنوچهر » ، ثم نناقش بعد ذلك ، مواطن الاتفاق وكذلك مواطن الاختلاف بينها وبين قصيدة شكسبير « فينوس وأدونيس » . وأخيراً نستطيع الحكم على ما فعله ايرج ، من حيث كونه مجرد مترجم ، أم كان مبدعاً بالإضافة إلى نسجه الخيوط الأساسية على غرار الأصل الإنجليزي لشكسبير .



عرض عام لمنظومة : « زهره ومنوچهر »

قبل أن تشرق الشمس من خدرها ، وقبل أن يفيق النرجس من سباته ، كانت براعم الخميلة ذات الرائحة الزكية تغسل بقطرات الندى وجهها ويديها ، ثم وقفت بعد ذلك في انتظار هبوب رياح السحر كي تجفف تلك القطرات .

اليوم يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة ، لذا استيقظ في هذا الوقت المبكر صاحب الوجه المشرق ، الملازم الأول زينة الجيش ، من أسماه أبـــوه « منوچهر » الشبيه بالبدر ، المثل المحتذى في الجمال والرونق ، ومن تتلألأ أزرار بزته العسكرية، تلك الأزرار التي نقش على كل منها أسد رابض ، والذي حيكت على قلنسوته لبة شبيهة بالهلال. استيقظ مبكراً كي ينعم بيوم العطلة من أوله إلى آخره ، إنه يريد أن يقضي هذا اليوم وفق مراده ، ويحقق فيه أمانيه ، وهل هناك أمنية أفضل من الصيد ! لذا طلب إعداد الفرس والبندقية والأعيرة ، وتوجه بلا توان أو تأخير صوب الصحراء ، صوب ساحة الصيد والمتعة ، ذهب كي يطارد الغزلان والوعول ، ويعود محملاً بالعدياء منها .

وفي نفس الوقت من ذلك الصباح الباكر ، أرادت الزهرة كبرى بنات القمر وإلهة العشق وربة الدلال ، أن تستريح من عملها بعض الوقت ،

ففكرت في الهبوط إلى الأرض كي تتجول بين رياضها ، فتجدد نشاطها ثم تعود إلى السماء مرة أخرى كي تزاول مهامها . واستعدت لهذا الهبوط حيث خلعت أردية الملائكة ، ولبست حجاب المرأة الإيرانية ، ثم هبطت من عطارد صوب الأرض ، وتوجهت إلى حيث يوجد منوچهر .

وتحت ظلال شجرة على حافة نبع ، التقت عيناها بعيني ذلك الفارس فأصابتها سهام نظراته إصابة نافذة، وإذا برعدة عنيفة تسيطر عليها ، فامتقع لونها ، وشحب جمالها ، وهكذا أصبحت أسيرة لقلب واحد ، وهي التي تأسر مئات القلوب ، لقد أصبحت أسيرة لذلك الشاب الجسور ! وأمام هذا الضعف المفاجىء أخذت تحدث نفسها ، وتسأل عن سر ضعفها ، ومما قالته :.

إنني باعثة العشق وصانعته ، فلمَ هذا الضعف ؟ وعلام هذا الوهن ؟ إنني ذات طبيعة ملائكية ، فكيف أصبح أسيرة لآدمي ؟ إنني ربة العشق وإلهة الشوق،فكيف يستطيع هذا الفتى إحراز التفوق عليَّ؟إن كانت قبضتي مهد العشق ، فكيف يعض وليدي بعد ذلك إصبعي ؟ سأضع شباكي في طريق ذلك اليافع ، وسألقي في قلبه بذرة العشق ، فأصيبه ، وسأتخذ منه غزالاً أقوم بصيده . سألمس خديه وأذنيه بيدي ، فأفقده عقله ولبه، وبغمزة واحدة من حاجبي ، سرعان ما يُقبل عليّ ويتبعني كظلي ، إنني من يُردي البشر ، ويجعلهم عاشقين أو معشوقين ، ومع أنه جنديٌّ ، فسأجعله تابعي وأدفعه للانصراف عن الجيش .

قالت هذا وأكثر منه كي تشحذ من عزيمتها ، وتقوي من ضعفها ، لعلها تسترجع ما فقدت من جرأة وإقدام ، تقدمت منه وهي تحاول إخفاء عجزها ، وإظهار دلالها ورقتها ، وقالت له :

عليك السلام يا ابن الشمس والقمر ، ليجنبك الله عين السوء والشر ! يا من يفضل البشر ، بل يا من هو أجمل منيّ وأكمل ، بل يا من إليك يشتاق الخالق ، أنت في روضة الحسن وردة ويمامة ، حيث يتصارع على وجهك الإحمرار والبياض ، ما أجمل خلقتك وأبهاها ، لقد ضيقت بحسن خلقتك عرصة الدنيا وساحتها ، فكيف يحلو لها أن تتزين بعد ذلك ؟ وأنت لم تترك لها فرصة كي تبدي جمالها وحُسنها ؟ بدونك ينعدم الصفاء في الدنيا ، هيا نغتنم فرصة هذه الروضة الجميلة يا مليكي ، لتترجل عن فرسك ، ولتضع يا غصن الورد قدمك على الخضرة . فما أبهاه من صبح ! وما أجملها من روضة ! وحسناء مثلي تزيد الروضة جمالاً والصبح بهاء ! فترجل حتى نجلس سوياً على هذه المروج ، ونقضي وقتاً سعيداً . دع الزمام وترجل إلى جانبي ، وإن ترغب بسطت لك كفي كي يكون ركاباً تنزل عليه ، فإن تضع قدمك على كفي ، تسْرِ الحرارة والدفء في قلبي ! كما يمكنك أن تضع قدمك على كتفي ، ثم تنزل بعد ذلك إلى أحضاني ، فهيا إلى صدري حتى نفترش بعد ذلك المروج الخضراء ، فأمنحك قبلات عذاباً دون حصر أو عدٍ ، كما سأقص عليك آلاف القصص الجميلة .

لا داعي لاجتياز الجبال والفيافي من أجل الغزلان ، ولا تحمل المشاق من أجل الوعول ، إن الجو شديد الحرارة بالجبل ، فتوقف يا شبيهاً بالغزال عن الصيد وتعقب الطرائد . من الحيف أن تصيب حرارة الشمس هذا الوجه النضر بالذبول والضمور ، أو أن يستقر الغبار على طرتيك نتيجة لهبوب العواصف والأعاصير .

سمع منوچهر كل ما قالته،ولكنه لم يستشعر في قلبه أي محبة تجاهها ، فقد كانت روح الفتى كقلبه خلية من أي تفكير ، إنه غير عابىء بربة الجمال ، إنه ما زال يافعاً لا يعرف الحب ولم يذق بعد طعم العشق ، إنه لم يتخط السادسة عشرة من عمره بعد ، فكيف يكون قد خبر العشق أو

تذوق الصهباء ، إن طبعه العسكري كان يحول بينه وبين العشق والهوى ، كما امتنع عن الإجابة لما اعتراه من خجل وحياء !

أدركت الزهرة مقدار حيرته ، وعدم خبرته فبادرته بالحديث مرة أخرى ، حيث قالت له :

أيها الفتى الجميل ، كفاك تردداً ، ولا داعي للتأخير في فعل الخير ! أترى كل هذا الحب والتوله مني ، ثم لا تترجل عن جوادك كي تكون في جواري . صُبح بهذا الإشراق ، وخميلة بهذه النضارة ، وفتاة بهذا الجمال كل هذا ملكك ، ومن الظلم أن تظل على تمنعك ، وأن تتمسك بهذا التزمت وذلك التعنت . لا داعي للضغط على شفتيك هكذا ! لا داعي كي لا تفقدهما لونهما الياقوتي . لقد أُعطيت هذا الفم الدقيق وتلك الشفة الياقوتية كي توزع القبلات ، فتأخذ أحياناً وتعطي أحياناً ، فيمكنك أن تأخذ مني في عشر ثوان ثلاثين قبلة متعاقبة ، أو آخذ منك قبلة واحدة تكون في الطول أكثر من الثلاثين .

قالت كل هذا ، ولم ينطق بحرف ، لا فائدة من الكلام ، ولا جدوى من الحديث ، هيا إلى العمل ، لقد جذبته جذبة عنيفة ، فإذا به يسقط عن الفرس ويستقر إلى جوارها على المروج . لقد رقدا متجاورين ، والتصق خداهما ، فاكتست وجنتا كل منهما بالحمرة ، وجنتاها بحمرة الشهوة ، ووجنتاه بحمرة الخجل ! هكذا اصطدمت الشهوة بالخجل ، فأصبح الأمر غاية في الصعوبة! ثم مدت الزهرة اللعوب يدها نحوه كي تداعبه وتمتعه ؛ لقد أخذت تفك بأناملها الحانية أزرار بزته ، كما رفعت القبعة عن رأسه ، وأخذت تصفف بيدها شعره ، فسرى البرق من مفرقه إلى قلبه ، ثم انحنت عليه كي تقبله ، فإذا به يمتقع لونه ، ويرتجف جسده ، وكأن في هـذه القبلات فناءه ، حيث ستصرفه عن الجندية ، وتضعف من روحه العسكرية

فارتد إلى الوراء ، كي لا يمكنها من تقبيله ، ولكن الزهرة لا تأبه لهذه الحركة ،إنها عاقدة العزم على تقبيله ، إنها لن تترك الفرصة تضيع من يدها ، فكل ثمار لا تقطف في حينها ، سرعان ما تذبل وتسقط عن غصنها .

ثم قالت : لماذا تشيح بوجهك بعيداً عن وجهي ؟ هل وجدت من تفضلني ؟ وهل تعلق قلبك بغيري ؟ أم أنك وجدت شفتي تنقصهما العذوبة والحلاوة ؟ لو أنك جردت سيفك في وجهي ، لكان أفضل من أن تبخل عليّ بقبلة ! لماذا تتجهم هكذا ؟ هل أنا دميمة الخلقة ؟ أيعيب يعتريني من الرأس إلى القدم ؟ هل يوجد من يفوقني حسناً وجمالاً ؟

ثم أخذت تصف له جسدها جزءاً جزءاً ، ما ظهر منه وما خفي ، لعله يدرك ما يتمتع به هذا الجسد من مقاييس مثالية للجمال فيقبل عليها .

بعد ذلك نهضت كي ترقص ليرى قدها المياس ، وقالت وهي ترقص: عندما أتمايل نشوانة ، سرعان ما تسري النشوة في كل شيء ، وعندما أرقص على هذه المروج ، فلن ترى لأقدامي أي أثر على الخضرة ، إنني كالفراشة أنتقل من وردة إلى وردة ،إن رقصي على رؤوس الورود كرقص الشعاع أمام المصباح . ما أكثر إشراق جسدي وضياءه ، فلتمع نظرك بالنظر إليه،ولكن ، أجمل من ذلك أن تتمتع بالقبل . إن قبلتي أشهى وأحلى من كل حلو ، سواء أكان سكراً أم عسلاً ،لن تعرف حلاوة القبلة ولذتها ، إلا إذا قبلتني اثنتين أو ثلاثاً . لاتتدلل هكذا ، إنني أفضلك في مجال الحسن والجمال . لا ، لقد أخطأت ، إنك تفوقني في الجمال ، بل إنك المبدي في كل حسن وبهاء . هيا ، سارع بتقبيلي ولو قبلة واحدة ، فإن كانت غير عذبة ، خذها ثانية !

لا تقطب الجبين هكذا ، واستمع إلى ما أعرضه عليك ، إنني لن آخذها بلا مقابل ، بل أقرضني إياها . ماذا يحدث إن تقرضني قبلة ؟ سأعيدها لك

بعد لحظة ، بل سأزيد عليها أخرى . لا أقول : أعطني قبلة بلا مقابل ، بل أعطني قبلة ، وخذ اثنتين ! لماذا تغلق باب التعامل ؟ إن الفائدة لا تتحقق إلا بالتعامل . أعطني قرضاً ، وخذ فائدته. إنني لن أتخلى عن تحقيق مطلبي ؛ فإما أن تعطيني القبلة عن طيب خاطر ، وإلا فسآخذها بالحيلة والدهاء ، وإن لم تَجُدْ عليَّ بقبلة ، فسأصب عليك جام غضبي ونقمتي . معذرة ، لقد تجاوز الحديث حد اللياقة ! وإذا كان كلامي قد آلمك ، فماذا أفعل وقد أوقعني عشقك في اضطراب وحيرة ؟ هيا سارع بتقديم القرض ، ثم لتأخذ من شفتي قبلات وقبلات ، وإذا انتهيت ، فابدأ من جديد . إن جسدي كله من الرأس إلى القدم مرعى لك يا غزالي الحبيب ! ارتع في كل ركن تريد ، واقطف أي وردة تجدها ، إذ ليس محظوراً عليك أي شيء ، الثمار يانعة وليس هناك من رقيب . وإن لم تكن تدرك كيف السبيل ، فلتكن الزهرة معلمتك !

هيا نمثل معاً لعبة الصيد والصائد ، لتكن أنت الصياد وأنا الطريدة ، سأجري ، وما عليك إلا أن تلحق بي ، إنني لست الصيد الذي يجفل منك ، بل سأتعب قدميك ولن تلحق بي ، ألق سهمك وسأمسك به في الهواء ، وأسكنه صدري على الفور ، بل سأجري في إثر سهمك في كل صوب .

هيا أعصبُ عينيك ، ولتنتظر حتى أختفي ، ثم حاول أن تمسك بي . فإن تظفر بالزهرة ، تعطك كل ما تروم وأكثر .

هات الحصى وقامرني ، على أن يكون الرهان على القبلات لا على الأجوف من الكلمات .

هيا نجري إلى هذا الجدول المتدفق ، ولتنثر مياهه على جسدي ، هيا اقذفني بالمياه من الرأس إلى القدم ، إن في هذا الصنيع ألواناً عديدة من المداعبة واللطف ، فعندما يبتل جسدي ، سرعان ما يلتصق به ردائي الرقيق

وبهذا تبدو لك تضاريس جسدي ، ويتضح لك كل خفي تحت الثياب .

هيا أقبل عليّ وقبلني ، ولكن إن كان مطلبك يتجاوز القبلة ، فسأربت على شفتيك بأنامل الأدب ، وإن امتدت يدك إلى كفلي ، فسيكون جزاؤك الصد ، وطالما لا تعبث اليد فيما بين السرة وأسفلها ، فإنك لن تفض بالحماقة السّر المغلق ، ولكن إن تعدت يدك إلى المنطقة المحرمة ، فسأضرب على يدك بعود الورد .

فصل الربيع موسم اللعب والتدحرج على الخضرة ، ومن أجل ذلك يلتقي الأحبة ، فهيا بنا كفراشتين سعيدتين نطلق العنان لأنفسنا مع رياح السحر ، بل هيا نتخلى عن أردية أهل الأرض ، ونصبح كلانا روحاً واحدة مجردة من كل العلائق ، وبهذا نمضي سوياً في آفاق النور ، ونختفي بعيداً عن أنظار البشر .

هيا نمثل القط والفأر ، لتكن أنت القط وأنا الفأر ، لتأسر فأرك بين أحضانك ، لتقفز كالقط كي تمسك بي بين أسنانك ، ثم دعني ، وابتعد عني ، ثم امسك بي مرة أخرى .

هيا وكن طفلي ، وارقد على ركبتيّ ، وارضع اللبن من ثدييّ ، وتعطر بأريج المسك الفواح من ذوائبي ، ولتداعب بشفتيك ثديي ، ولتعض برفق ياقوتتي . لتتنسم رائحتي وكأنني وردة زكية ، ولترشف من جسدي وكأنني نبيذ صاف.لتطرحني أرضاً،ولتكشف عن جسدي ، ثم لتكن أنتَ غطائي !

تكلمت الزهرة ، وتدللت ، ولكنه ما زال على صده وتمنعه ، إنه يخشى العشق ويهابه ، إن العشق دوامة مغرقة ، ومهابة مهلكة ، وأخيراً تمالك زمام نفسه ، وقال لها معتذراً :

أيتها الشبيهة بالملاك ، والتوأم الثالث للقمر والمشتري ، إنني أدرك أنك

أرقى من الجنس البشري ، ولكنني لا أعرف الحقيقة ، فهل أنت بشر أم ملاك ؟ لا داعي لخداعي ، لأنك لن تنجحي أبداً في الإيقاع بي . ولا داعي للربت بيدك على وجهي ، فقد التهبت وجنتاي وكأنهما موسومتان . وإن تركت أصابعك أثرها على وجهي ، فأي عذر أقدمه لكل من يراني ، ويمعن النظر في وجهي ؟ وعندما أعود إلى البيت ، كيف يكون الموقف مع الخادمة؟ إن تر أثر هذا الوسم ، فإنها ولا شك ستكثر من الحديث والسؤال عن حقيقة الحدث ، وستظل ترغي وتزبد حتى منتصف الليل ، وهكذا يفتضح أمري !

لا داعي لكل هذه الحيل والألاعيب ، إذ لا جدوى منها ، إنني لا أهتم بالحسان وصاحبات الدلال ، لقد حاولت كثيرات قبلك ، فلم يظفرن مني بأي عطف ، إن الحسان يتوافدن صوبي جماعة في إثر جماعة وكأنهن السيل ، فإن أطف عصراً « بلاله زار » تلتف الحسان وربات الجمال من حولي ، إنهن يردن تأبط ذراعي ، ولكن مع أنني يافع وصاحب جمال وكمال ، إلا أنني لا أطيق محبة الحسان ، أو مصاحبة ربات الدلال والجمال .

لا فائدة مما تقولين أو تفعلين ، فلا مكان للمرأة في قلب المحارب ، وأنّى لمن يأمر أو ينهي أن يسلم قلبه لأي امرأة؟ مكاني قلب الجيش ووسطه ، لذا لن أجعل مكاني قلب امرأة . كم قرأت عن مكر النساء في القصص والروايات ، لذا لن أسقط في شباكهن ، ولن أحيد عن جادة الطريق . الإخلاص للشاه مذهبي وحب الوطن عقيدتي ، إن يرني الشاه هكذا ، سرعان ما يخرجني من الجيش ، وإن يسمع الشاه بفعلتي ، يقدم على تأديبي . وإن يحدث الآن بيننا أي فعل ، فستحمل الرياح أخباره صوب الشاه ، وهكذا ما دمت أرتدي بزة عسكرية ، فليس لي الحق في مصاحبة النساء ! ولكن إن أتيتُ إلى الصيد مرة أخرى مرتدياً ملابسي المدنية ، فلن يكون لي العذر في الابتعاد عنك ، فلا تجهدي نفسك في تعليم الجندي العشق

والدلال ، وإنما ادخري هذا الدلال ذخيرة تنفعك مع الآخرين . والآن انهضي وامضي إلى سبيلك :

صد العاشقات يزيدهن شوقاً وولهاً ، كما أن الدلال يزيد القلب المكلوم إدماءً ونزفاً ، وكل ما صعب نواله ، زاد طلبه والتعلق به ، وكل ما سهل أمره ، رخصت قيمته وقل قدره ، فمع أنها سمعت منه آيات الصد والحرمان ، فإنها ازدادت تعلقاً به وولعاً ، وقالت في نفسها : كلما كان الشاب ساذجاً ، كان من السهل الظفر بقلبه وعواطفه ، لذا نهضت من مكانها بقد مياس ، نهضت كي تعاتبه وتشوقه ، وتدنيه وتبعده ، فاتهمته بالجبن والضعف ،وأنه إذا كان لا يقوى على الصمود أمام امرأة ،فكيف يقوى على الصمود في ساحة القتال . وإذا لم يكن جباناً كما تقول ، فليبرهن على ذلك بالإقبال عليها ، وبخاصة أنه لا وجود لأي رقيب يستطيع أن يشي به إلى قائده ، فيزج به في السجن ، أو يشكوه إلى شيخ يقيم عليه الحد ، كما أن الملك لن يعرف شيئاً عما حدث بينهما ، بل إنها ستبعث في قلب الملك حبه ، فلا داعي للخوف .

ثم قالت له :

لا تكن ساذجاً ، فالسذاجة لا يتأتى منها في هذه الأيام أي جدوى أو منفعة ! وإن تظل على هذه السذاجة وعدم النضج ، فلن تفوز بأي ترقية في الجندية ، أو تقدم . إنك نار متأججة ، فلم تؤثر الخبو والخمود ؟ إنك مياه جارية متدفقة ، فلم هذا الركود ؟ إن لم تكن قد أُعطيت هذا الحسن من أجل العشق فلم أُعطيته ؟ لقد وُجد الذهب من أجل البذل والعطاء ، كما نما الغصن من أجل الثمار ، المصباح مهمته نشر الضياء ، والحديقة مهمتها التنزه والفرجة ، لقد وُجد الدر الثمين من أجل الزينة ، كما خُلقت الفتاة البكر من أجل العرس والزواج ! أما جمالك فقد فاق كل الحدود ، لذا فمن الظلم ألا تهنأ بهذا الخط والخال ، وألا تسعد بهذا الجمال . لا يتم العشق

إلاّ بوجود الوردة والبلبل معاً ، أما عشقُك نفسَك فلا جدوى منه ، حياة العشق ما أبهاها من حياة ، أما الكائن الذي لا يعشق فهو في عداد الموتى . وحسنك لا يتم صفاؤه إلا بالعشق ، إذ لا غنى للحسن عن العشق،ولا غنى للعشق عن الحسن ، فهما لازم وملزوم ! لتدرك أن قيمة الشباب مرهونة بتلك الأيام التي ستظل فيها يافعاً شاباً ، ولكن عندما تطول ذقنك وتصل إلى إزارك ، فلن تجد من يعشقك ويميل إليك . إن العشق يسري إلى القلوب هادئاً ، كما يسري النوم إلى الجفون ، أي أن العشق سهل القبول ، فكيف يبدو لك صعباً غير مقبول ؟ وإن لم تتوفر لك سمة العاشق ، فلست رجلاً بل قطعة من مرمر ، أو مجرد صورة متعددة الألوان والأصباغ ، أو تمثال من ذهب خلا من الروح .

كل ما تفوهتَ به عن العشق والمحبة ، بعيد كل البعد عن حقيقة العشق ومضمون المحبة،ومع هذا فإن شفتك الياقوتيةقد وصفتك لي سراً في الخفاء، قالت — ولم تكن كاذبة — إنك قد بلغت في التو حد البلوغ ، لذا فوصلك للعشاق كالثمرة الجديدة ، ودواماً تكون الثمرة الجديدة عزيزة غالية . ولهذا أسرعت صوبك ، فوجدت أنفاسك دافئة فتية ، ويمكن الحصول على أكبر قدر من اللذة منك ، كما يمكن مضاجعتك ومعاقرة الصهباء معك. الوقت يمضي سراعاً ، فهيا اغتنم الفرصة ، وتقدم لتأكل طعام هذه المائدة بلا توان !

عندما وصل حديث الزهرة إلى هذا الحد ، أصبح أمر منوچهر أكثر اضطراباً وهلعاً ، ورأى كأن قدميه قد غاصتا في الوحل ، كما سيطرت الرعشة على كل عضو في جسده ، وانخرط في تفكير : لمَ ألم به الضيق والشدة؟ ولماذا سيطر الخفقان على قلبه ؟ وماذا أصاب قوته وعنفوانه ؟ ولكن أملاً في ألا يسقط في شباك البلاء ، فإنه نهض كي يتخلص من هذه الكارثة ، ثم قال : وا أسفاه! لم أمارس اليوم صيداً ، ولم أطلق من بندقيتي

طلقة واحدة ، ولم أطرح على الأرض حماراً وحشياً أو وعلا ، كما لم أصب حجلاً أو يمامة . لقد تلاشى الظل ، وتوسطت الشمس السماء ، وعصف بنا القيظ ، لقد احترق وجهي من وهج الشمس ، وتصبب جسدي عرقاً من شدة اللهيب والقيظ . إن أسرتي تنتظرني الآن ، فكفانا اليوم حديث العشق والهوى ، وليكن موعدنا الجمعة القادمة على حافة هذا النهر !

عندما سمعت الزهرة حديث الفراق ، نفذ صبرها وزاد ألمها ، إن معشوقها يريد الفرار محلقاً صوب الصحراء الشاسعة ، فتبللت أهدابها بالدموع ، حتى بدت عينها كنرجسة أحاطت بها قطرات الندى ، ثم قالت تعاتبه : آه منك أيها الحجري القلب ، بل يا من يخجل الحجر الصلد أمام صلابة قلبك ، لو أن أمك قد تمنعت مثلك هكذا ، لما جئت أنت إلى عالم الوجود ، واعجباً ممن ولدته امرأة ، ثم يحاول الفرار هكذا بعيداً عن المرأة. من الظلم أن يصدر عنك أيها الطاهر الجوهر ، كل هذا الصد وذلك الهجر. إلام أظل أرجوك وأتحمل كل هذه الذلة ؟ وهل تستحق قبلة واحدة كل ما أبذله ؟ وأي نقص يعتريك لو أنعمت عليّ بقبلة ؟ إن كنت لا أكف عن ملاحقتك ، فلأنني لا أقوى على البقاء لحظة بدونك ! إن كنت تظن المحبة خطيئة ، فلم تحتفظ بكل هذا الحسن وذلك البهاء ؟

ليتك تنادم الملازم « عبد الرحيم » يوماً أو يومين ، فتسري فيك أخلاقه وعاداته ، ومنه يمكنك أن تتعلم حميد الخصال ، وكيف تجيد المداعبة والدلال ، إنه يستجيب لكل أماني الحسان ، فاتخذ منه مرشداً وهاديا ، وفي طريقه يحرق الخلق البخور ، حتى لا تصيبه عين السوء بأي أذى أو ضرر ، وما أكثر الجميلات اللاتي طُلقن من أزواجهن أملاً في وصله واللحاق بعشقه .

لا داعي لتحاشي العشق أكثر من هذا ، ولا موجب لسوق الأعذار

والتُرهات هكذا ، اليوم يوم جمعة وعطلة ، فلم العجلة ؟ ولمَ تود العودة بهذه السرعة ؟ إن كنت لا تريد للشمس أن تشرق ، فهيا افتح شفتيك الياقوتيتين ، وقُل : لا تشرقي ! وإذا كان شعاعها يؤذي وجهك ، فسأجعل من ثوبي مظلة أنشرها فوق رأسك . أو أخفيك بين طيـــات ذؤابتي ، وأصونك فأنت روحي ، أو أجعل من طرتي مروحة أروح بها على وجهك أو أذرف على طلعتك من الدموع ما يخفف عنك حرارة الشمس . وبإمكاني أن آمر تلك الحمامتين الواقفتين على ذلك الغصن والملقبتين بحاملتي عرشي ؛ أن تبسطا أجنحتهما كمظلة فوق رأسك .

يا من تدعوني امرأة آدمية على سبيل الخطأ ، ألا تعرف من أكون ؟ ومن أجل أي شيء إلى هذا المكان أتيت ؟ إنني الحجلة المستقرة في السماء الثالثة : كما أن العاشق والمعشوق كلاهما من صنيعي : إنني من يبعث الحركة والحيوية في ذرات العالم ، حيث أهب هذا حسناً ، وذاك عشقاً . إنني من ينظم جرعات العشق ، فأزيد العشق لدى شخص وأنقصه لدى آخر ، وكل من أراه يمضي نحو الجنون ، ويندفع خارج إطار المألوف ، فإنني أرأف بحاله وأمهد له طريق الوصال .

إنني أعذبُ طعام على مائدة الوجود ، ولهذا يتهافت على عشقي جميع الآلهة ، ومع أن العشق مذهبي وعقيدتي ، إلا أنني الآن أصب عليه جـــام غضبي ولعنتي ، لقد أصابني العشق بالهموم والأحزان ، فليصب هو الآخر بالوهن والحزن ، وليكن جزاؤه البرود وخيبة الأمل ، ولتكن بدايته عذبة ولكن نهايته سيئة مرة ، وليمت إما من فرط السعادة أو من فرط الضيق ، المهم ألا يتمتع على الإطلاق بحد الاعتدال ، وليكن كالأطفال عجولاً على الدوام ، ولتعتره السعادة أو الضيق دون إدراك للسبب ، وليكن أسيرَ لا ونعم على الدوام ، وليسيطر عليه الخوف والرجاء في كل أوان ، وليُحرم من التروي والصبر ، وليُفعم بالتبرم والضجر !

إن رب الأرباب عندما أودع العشق جسدي ، جعلني في صورة امرأة وأنعم عليّ بالخلود ، فإن تكن على وفاق معي ، تحظَ بالخلود مثلي ، إنني لست من البشر ولست من الملائكة ، بل إنني من جوهر أسمى من كليهما معاً ، إنني « ربة النوع » كما يسمونني في لغة العرب ، ولكنني إلهة الجمال في عالم الأدب . ولما كان أول مقطع من اسمك هو « منو » فإنني أفضل قراءته « مينو » (أي الفردوس أو الروضة) ، لأنك فردوس عشقي ، ولكن لا داعي لمقاومة العشق لأن إلهة العشق شديدة الدهاء ، وإن كنت في مضمار الحسن أميري ، فستصبح في نهاية المطاف أسيري !

لقد ملكت بذرة المحبة ، وأودعتها باطن الأرض ، ومن هذه البذرة أُنبت الورود والرياحين، وهكذا أزين بالحب وجه الأرض ، وأكسوه بالديباج والسندس ، بل إن إنتاجي وإبداعي يتعدى الرياض والخمائل الى كل فن جميل وأدب رفيع . ثم أخذت تتحدث عن أرباب الفن والأدب الذين بعثت بهم إلى الوجود سواء في إيران أو خارجها،وممن ذكرتهم من فناني العالم وأدبائه رافائيل ومايكل أنجلو ، وهوميروس ، وهيرودوت . ومن فناني إيران وأدبائها ذكرت كلاً من الكاتب الكبير علي دشتي ،والشاعر ايرج (ناظم الأسطورة)، وكمال الملك أشهر رسامي إيران ، والموسيقار الفذ درويش خان،والمطربة الشهيرة قمر الملوك ، والملحن الكبير علي تقي وزيري الملقب باسم كلنل ، ثم انتقلت إلى الحديث عما يتمتع به منوچهر نفسه من جمال وحسن،وأنها صاحبة الفضل في هذا المضمار ، ومما قالته :

لقد كنتُ ماشطة الخط والخال ، كي تصبح هكذا بديع الجمال ، وطالما لا أضمر حسداً تجاه حسنك ، فسيكون ثمار حسنك من نصيبي في النهاية . وعندما أضفيت عليك المزيد من الحسن والبهاء ، كان ذلك من أجل أن أمتع قلبي بالنظر إليك ، ومع أنني من أبدع ورد وجهك ، فإذا

بك تدمي قدمي بأشواكك ! [1]

* * *

وذلك الذي مهمته قيادة الجيوش ، ومن اتخذ السماء الخامسة مقراً له ومن اسمه المريخ ومن حرفته اعداد الرجال للقتال والنزال ، ومن طاعته واجبة على الجميع ، إذ هو الأقوى بين جميع الآلهة ، ولا يقوى أحدهـم على نزاله ، قد أصبحت خيمة حربه وسادتي ، ومعسكره كأس شرابي ، وحرابه سيخ شوائي ، ومع أنه أقوى الأرباب ، فإنه يتوسل كي أجود عليه بقبلة لقد كان جل همه سفك الدماء ، ولكنني جعلته في نهاية المطاف يحب السلام ويطلب الوئام ، وهكذا توارى غروره وبطشه ، وأصبح أضحوكة العالم العلوي ! ومع ما فعلته الزهرة مع المريخ ، فقد وقعت في أسر عشقك ، أيها الفتى !

ولكن الفتى عاود الاعتذار والتقهقر ، وسلك طريق التخلص والاستئذان ، وقال : أيتها الفتاة الفائقة الجمال ، ويا من يقطر حديثك بالسحر والدلال ، بأي أسلوب أحدثك ، حتى أتحرر من شرورك ، إذا كان الأمر سينقضي بقبلة واحدة ، فهذه شفتي وتلك شفتك ، وإن كنت تقنعين بقبلة واحدة ؛ أستحلفك بالله أن تأخذيها ، وتخلصيني من هذا الوبال !

ما إن مُنحت الزهرة الفرصة حتى سارعت باغتنامها ، فقفزت وضمّته إلى صدرها ، ولفت ساقيها حوله ، ووضعت رأسه على صدرها ، فما أجمل المتكيء ! وما أبهى المتكأ ! ثم وضعت إحدى يديها على ذقنه ، ووضعت

---

(١) يعتقد ناشر الديوان « الدكتور محمد جعفر محجوب » أن ما نظمه الشاعر ايرج يقف عند هذا الحد ، وأن ما أورده بعد ذلك من أبيات آلى آخر المنظومة من نظم شعراء آخرين ، حاولوا أن يكملوا الأسطورة بعد أن توفي إيرج قبل أن يتم العمل ، وقد أشرت إلى ذلك في التقديم للمنظومة .

الأخرى على كتفه ، ودفعت جدائل شعرها إلى الخلف ، ثم أهوت بشفتيها على شفتيه وأخذت تمصهما . لقد خطفت الزهرة قبلة ، لم تكن قبلة ، بل ناراً ملتهبة! وسرعان ما ولى عنهما العقل ، وسيطرت عليهما الدهشة، فانخرطا في عناق وأحضان حتى ترددت أصداء القبلات في شعاب الجبال، فأطلقت إحدى الحمامتين صفيرها قائلة : لقا أدرك صغيرنا حد البلوغ ، وقالت الأخـــرى : ليتملكنـــا السرور ، وليحظ بالسعادة مانح القبلات وآخذها ! ثم قفزتا حتى تضيق المسافة بينهما ، وتبادلتا القبلات وعمهما السرور .

★ ★ ★

قالت الزهرة : الآن انتهيت من أمرك ، فامض بعيداً عني ، إنك لم تتحمل بعد أحمال المحبة ، فتحمل ! ولم تذق مشقة الهجران ، فذق ! فإن تعرف طعم الهجران ، فلن تتعنت مع الآخرين . قالت هذا ثم تركته وصعدت إلى السماء !

وعندما صعدت إلى السماء،بقي منوچهر مكانه لا يقوى على الحركة، جلس وكأنه ثمل ، لذا سرعان ما سيطرت عليه سنة من النوم ،ولكن بعد برهة ثاب إلى رشده ، واسترد عافيته وحيويته . لقد أصبح منوچهر آخر حيث كان جسده متعباً ، ولكن قلبه يخفق بالسعادة ، لقد بدا وكأنه قد خرج بجسده من هذا العالم ، ودلف إلى عالم آخر ! ... لقد خبا عشق الصيد في قلبه ، وأصبح صيداً لخفقان قلبه .

كم حاول النهوض ، ولكنه لم يقو على ترك المكان ، وكأن شيئاً قد بقي عن الزهرة في هذه الأرجاء، لقد مضت وخلفت وراءها آثار أقدامها، كما ولت وما زال أثر قدها على الخضرة . فقال إن احتضن موضع جسدها

فإنني سأصيب صورتها بالضرر ، هذه رأسها ، وذلك صدرها ، وهــذا فخذها ... وإن أُقبِّل أثار أقدامها ، فسوف أوقظ الحشائش من مرقدها .

آه ، إن العشق دوامة مهيبة ، إن العشق كارثة مفجعة . لقد حطمت غمزات الحسان قلب العالم ، وأي شجاع تحرر من هذه الغمزات !



مظاهر الاتفاق والاختلاف

بين

منظومة إيرج وقصيدة شكسبير

مظاهر الاتفاق :

عرضنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب ملخصاً وافياً لقصيدة شكسبير « فينوس وأدونيس » ، ثم عرضنا في هذا الفصل لمنظومة ايرج « زهرة ومنوچهر » ، ويمكننا القول بعد ذلك ، أن الشاعر الفارسي قد التزم في منظومته السير على منوال شكسبير فيما نظم ، فالخطوط العريضة للأسطورة في المنظومتين تكاد تكون واحدة ، كما اتفق ايرج مع شكسبير في بعض التفصيلات كذلك ، ولكي أوضح مدى هذا الاتفاق ، أكتفي بالإشارة إلى بعض نقاط هذا الاتفاق ، تاركاً لفطنة القارىء إدراك المزيد من مواطن الاتفاق، إذا ما عاود قراءة الملخصين ، أو إذا أتيحت له الفرصة لقراءة الأسطورة في أصليها الإنجليزي والفارسي .

وأول نقاط الاتفاق تبدو في تبكير الفتى (أدونيس لدى شكسبير ، ومنوچهر لدى ايرج) لكي يتوجه صوب ساحة الصيد ، وخروجه قبل أن

تبزغ الشمس من مكمنها ، ولكن ما إن وصل إلى معترك الصيد ، حتى كانت ربة الجمال وإلهة الدلال (فينوس لدى شكسبير ،والزهرة لدى ايرج) في أعقابه،فوقفت ترقبه وتمعن النظر إلى حسنه وبهائه ، وسرعان ما افتتنت به ، فحدثت نفسها للايقاع به والظفر بحبه ، لذا تقدمت منه وأثنت على جماله ، ثم دعته إلى الترجل عن فرسه كي يجلس معها على الحشائش ، وأن يكف عن الصيد ومشقة الطراد ، ولكن الفتى لا يأبه بما تقول ، لذا نجدها تنزع إلى استخدام قوتها الإلهية ، فتجذبه جذبة قوية يسقط على أثرها على الأرض ، فتجلسه إلى جوارها . حدث كل هذا والفتى في ذهول ، وكم عقدت الدهشة لسانه ، فلم يحرر جواباً،ولم يستطع النطق والتعبير عما يعتريه من تبرم وضيق .

وتتفق المنظومتان في معاودة ربة الجمال محاولة الإيقاع بالفتى صاحب الستة عشر ربيعاً ، ومحاولتها تقبيله ، ولكنه يبعد شفتيه في اللحظة الأخيرة مما يغضبها ، فتحاول أن تثور لكرامتها ، فتعاتبه ، ولكنها سرعان ما تكتم غيظها كي تحاول الظفر به من جديد .

وتتفق المنظومتان في الحديث عما تتمتع به ربة الجمال من خفة وبراعة في الإيقاع والرقص ، وأنها تستطيع أن ترقص فوق رؤوس الورود، فتنتقل من وردة إلى وردة ، دون أن تلحق بالورود أي أذى أو ضرر ، كما أنها قادرة على الرقص على الخضرة دون أن تترك قدماها أي أثر .

كما اتفق ايرج ميرزا في منظومته « زهره ومنوچهر » مع شكسبير في قصيدة « فينوس وأدونيس » في ذلك العرض السخي الذي تقدمت به ربة الجمال لرمز الحسن والكمال ، فقد عرضت عليه أن يعقدا اتفاقاً تكون قبلاته لها بمثابة قرض يستحق السداد على الفور ، بل ويستحق فائدة تدفع دون تأخير ، وينص الاتفاق الذي عرضته على أن تكون كل قبلة منه في

مقابل قبلتين منها ، إحداهما رد للقرض ، والثانية فائدة لهذا القرض . ومع سخاء العرض يرفضه الفتى ، ولا يهتم به ولا بتنفيذه !

ثم تتفق المنظومتان في تعلل الفتى بالقيظ ولفح الشمس ، ورغبته في الانصراف بعد أن تصبب عرقاً ، ولكن إلهة الجمال تحاول أن تستبقيه وتعده بالتخفيف عنه ، وأنها كفيلة بحجب أشعة الشمس ، أو نشر مظلة فوق رأسه تقيه وهجها ، أو تكليف الحمامتين الموكلتين بحمل عرشها نشر أجنحتهما كمظلة فوق رأسه ، ولكن الفتى لا يهتم بكل عروضها ، فهو لا لا يشكو حرارة الشمس بقدر ما يتبرم من حرارة عشقها ونار شهوتها ، لذا فكل ما يهمه هو الانصراف ،والعودة إلى مزاولة الصيد تلك الرياضة التي لا يعشق سواها ، والتي من أجلها جاء إلى الغابة (أو الصحراء في المنظومة الفارسية)

وتتفق المنظومتان كذلك في العتاب الذي وجهته ربة الجمال للفتى المتمنع ، ذلك العتاب المبني على حجة تبدو منطقية في ظاهرها ، وقوام هذه الحجة تذكير الفتى بأمه وأنها لم تتمنع في ممارسة العشق ومطارحة الهوى ، لأنها لو لزمت حد التمنع ، وآثرت الصد والهجران لما جاء الفتى إلى الوجود. وكأنها تريد القول بأن العشق سنة الوجود ،ولازمة ضرورية لاستمرار الحياة فلم التمنع ؟ هيا مارس الحب ،وزاول العشق. ولكن الفتى لا يقنع بمنطقها ، ولا يخضع لإغرائها ، ولا يستجيب لتوسلاتها !

وأخيراً يبدو اتفاق ايرج مع شكسبير في إنطاقه ربة الجمال كي تلعن العشق وتسب الحب بعد أن أعيتها الحيل مع هذا الفتى الحجري القلب ، فشعرت بأن الحب قد حطم كبرياءها ، وأدمى قلبها ، وأشعرها بالذلة لآدمي وهي التي يحاول كل الآلهة خطب ودها ، والظفر منها بقبلة أو نظرة أو كلمة وهكذا اكتوت ربة الجمال بما تكوي به قلوب الآخرين ، اكتوت بنار

الحب ، فانطلق لسانها يسبه ويلعنه ويتمنى أن يرى العشق ما رأته فينـــوس (الزهرة) وكل العاشقين من ذلة وانكسار .

وإذا كانت خاتمة المنظومة الفارسية قد اختلفت اختلافاً بيناً عن مثيلتها عند شكسبير ،فمرد ذلك كما سبق أن أشرت إلى أن هذه الخاتمة ليست من نظم ايرج ميرزا ، بل من نظم شاعر آخر — لعله الدكتور محمود حسابي — وقد أكمل المنظومة دون تقيد بالأصل الإنجليزي ، وعلى هذا فإننا نضرب صفحاً عن مناقشة هذا الجزء الأخير ، وبيان مدى الاتفاق أو الاختلاف بينه وبين خاتمة القصيدة عند شكسبير ، لأن كل ما نعنى به في هذه الدراسة مقارنة ما نظمه ايرج ميرزا ، بما سبقه إليه شكسبير ، وهل كان إيرج مجرد مترجم لعمل غيره ، أم أنه أبدع فيما نظم ، وأضفى على الأسطورة أردية جديدة .

وإذا كنا قد ذكرنا بعض مواضع الاتفاق التي تابع فيها ايرج شكسبير ؛ إلا أننا نجد فيما نظمه إيرج مظاهر اختلاف أخرى ،تثبت أن الشاعر الفارسي كان ذا قدم راسخة في نظم الأساطير ، كما كان مبدعاً في إضفاء الطابع الإيراني على الأسطورة ، ولكي نوضح ما تفردت به منظومة « زهـــرة ومنوچهر » يجمل بنا أن نتحدث عن مظاهر الاختلاف بينها وبين قصيدة شكسبير .

* * *

مظاهر الاختلاف :

أولاً : التمهيد للأسطورة :

أول ما يُلفت النظر من مظاهر الاختلاف بين المنظومتين ؛ يبدو في تمهيد الشاعر الفارسي للمنظومة وبيان سبب نزول ربة الجمال « الزهرة » إلى حيث يوجد رب الحسن والكمال (منوچهر) ، وما نتج عن هذا النزول من

افتتان وبقية أحداث الأسطورة ، فقد شعرت الزهرة بالملل من مزاولة عملها في السماء الثالثة ورأت أن تروّح عن نفسها، فخلعت عن جسدها أردية الملائكة ولبست خلعة البشر ، وهبطت إلى الأرض كي تنتقل بين رياضها فتدفع الملل عن نفسها ، والسأم عن روحها ، ثم تعود مرة أخرى إلى سمائها وتعاود نشاطها ، ولكنها هبطت ، ويا ليتها لم تهبط ، فقد افتتنت بمنوچهر وكم أضناها هذا الافتتان ! وقد قال الشاعر ممهداً لهبوط الزهرة إلى الأرض ما ترجمته :

- ومن ناحية أخرى ، وفي الصباح الباكر أرادت الزهرة كبرى بنات القمر
- إلهة العشق ، وربة الدلال ، ومن تصهر الآدميين بعشقها
- ومن حرفتها تعليم العشق ، وإحراق كل حصاد لأبناء البشر
- ومن أصابها الوهن والملال في عملها ، ومن أصبحت والهـة مضطربة مثل أفكارها
- فأرادت أن تحطم ملالتها وتعبها ، وأن تفرغ بضع ساعات من عملها
- أرادت أن تتجول بين الرياض ، وتتفقد الأزهار ، وبذا تجدد نشاطها وحيويتها
- فزينت نفسها على هيئة أبناء البشر ، ثم هبطت من عطارد صوب الأرض
- وهكذا نزلت من مكمنها ، وتوجهت إلى حيث يوجد منوجهر [1]



(١) ديوان ايرج ميرزا ، ص : ٩٨ .

ومن يقرأ قصيدة شكسبير لا يجد أثراً لهذا التمهيد، أو بمعنى أصح هذا التبرير لنزول فينوس من السماء إلى الأرض، فأسطورة أوفيد كانت متداولة في أوربا، كما أن فكرة تنقل فينوس بين الأرض والسماء كانت معروفة لدى الأوربيين في وقت شكسبير، وعلى هذا فهو ليس في احتياج لتبرير نزولها، أو التمهيد للقائها بأدونيس الذي تعرفه منذ كان طفلاً صغيراً. أما في إيران، فلم تكن القصة متداولة، ولم يكن معروفاً لدى العامة قدرة « الزهرة » على التنقل بين الأرض والسماء، وقدرتها على التنكر في زي الآدميين، فصرح بذلك إيرج ميرزا حتى يقطع الطريق على السائلين عن كيفية اللقاء وإمكانية حدوثه بين كائن ذي طبيعة سماوية، وكائن ذي طبيعة ترابية، وحتى يلبس ملكة الجمال أردية إيرانية كما سنعرف بعد قليل.



ثانياً: أبطال الأسطورة:

أبطال الأسطورة عند أوفيد وشكسبير ثلاثة هم: فينوس ربة العشق والدلال، وأدونيس إله الجمال والكمال، والمنية وقد تمثلت في الخنزير الذي فتك بأدونيس، فأدمى قلب فينوس لموت الحبيب. فهل حافظ ايرج ميرزا في منظومته على هؤلاء الأبطال، وألبسهم نفس الأردية التي لبسوها عند أوفيد وشكسبير، أم أنه خلع عليهم أردية من عنده، وأظهرهم في صورة جديدة من واقع بيئته الإيرانية؟

بمجرد أن يطالع القارىء عنوان المنظومة في الفارسية « زهرة ومنوچهر » يدرك أن الشاعر الفارسي قد غير في أسماء البطلين الأساسيين للأسطورة، فأصبحت فينوس « الزهرة » و أدونيس « منوچهر »، ولا شك أن الأمر لم يقتصر على تغيير الاسم فقط، فقد تبع تبديل الاسم تغييرات أخرى، يجمل بنا أن نتحدث عنها بنوع من التوضيح.

١ ـ الزهرة :

أطلق الشاعر الفارسي ايرج ميرزا على ربة العشق والدلال اسمها العربي (الزهرة) ، ولم يسمها باسمها الفارسي « أناهيد » أو «ناهيد » أو «أناهيتا » ولعله آثر ذلك لسهولة الاسم العربي إذا ما قورن بالاسم الفارسي ، وعلى كل حال فاسم « الزهرة » قد ورد في المعاجم الفارسية ، وانتقل كغيره من الأسماء العربية إلى الاستخدام في اللغة الفارسية لدى العديد من الشعراءفي العصور المختلفة [١] ، وقد أشار إيرج إلى كون الاسم عربياً في قوله على لسان فينوس :

ـ إن كبير الآلهة وخالقنا جميعاً ، بل وخالق كل الكائنات

ـ عندما بعث العشق في جسدي ، جعلني في صورة امرأة

ـ لذا فإنني لست من البشر ولا من الملائكة ، بل إنني من جوهر أسمى من كليهما معاً

ـ إنني ربة النوع في لغة العرب ، وإلهة الجمال في لغة الأدب [٢]

ولا ضير في استخدام إيرج للاسم العربي ، فالشاعر يرى أن الالتحام قائم بين الأدبين العربي والفارسي ، وأن ازدهار الأدب الفارسي قـرين بالتعاون بين الأدبين ، وأن كبار شعراء الفارسية عبر العصور المختلفة لم يبلغوا ما بلغوه من جودة وتفوق إلا لإجادتهم اللغة العربية والارتواء من منهلها العذب [٣] . وعلى هذا فإنه لم يجد حرجاً في استخدام اللفظة العربية « الزهرة » . المهم أنه استخدم لفظة شرقية ، ولم يستخدم الاسم الأوربي

---

(١) انظر مادة « زهرة » في لغتنامه .

(٢) الديوان ، ص : ١١٤ .

(٣) راجع منظومته : انقلاب أدبي ، الديوان ص : ١٢٠ ـ ١٢٧ .

« فينوس »، على الرغم من اتجاه الفرنجة الذي كان سائداً إيران في ذلك الوقت ، والذي رفضه ايرج على الرغم من إجادته اللغة الفرنسية وإلمامه باللغة الإنجليزية . (١)

ويلاحظ أن ايرج قد ألبس « الزهرة » عند نزولها ،أردية الإيرانيات، فعندما رأت أن تستريح من عملها بعض الوقت ، وأن تقضي ساعات بين رياض الأرض،خلعت عن نفسها أردية الآلهة وارتدت حجاب الإيرانيات، حتى تبدو أمام منوچهر ، وكأنها من مواطنيه ، فلا يخشاها ، ولا يرهب الاستجابة إلى غوايتها ، ومما قاله ايرج مشيراً إلى ارتدائها أردية الإيرانيات ما ترجمته :

— خلعت عن نفسها رداء الملائكة ، وارتدت « حجاب » نساء الأرض .

ومن المعروف أن المرأة الإيرانية كانت تلبس في ذلك الوقت «الحجاب» ولا يسمح لها بالخروج من دارها دونه. وقد ظل هذا الأمر ملزماً للنساء حتى صدر قانون رفع الحجاب في عام ١٩٣٦ ، وذلك في عهد رضا شاه .

وهكذا اختلفت ربة العشق عند إيرج في الاسم والهيئة عما كانت عليه عند شكسبير ، وبدت في صورة امرأة إيرانية شرقية لا رومانية غربية كما بدت عند أوفيد وشكسبير .

١ — منوجهر :

إذا كان اسم « الزهرة » مشتركاً في استعماله بين العربية والفارسية ،

---

(١) نفس المرجع ، ونفس المنظومة ، وقد تحدثت في كتابي « من قضايا الشعر الفارسي الحديث » عن قضية الفرنجة في اللغة الفارسية وفشل هذا الإتجاه ، وبقاء الكلمة العربية أصيلة في اللغة الفارسية ، وذلك في الفصل الثاني من الباب الثالث ، تحت عنوان « كلمة أوربية أم كلمة عربية » ويمكن للقارىء الرجوع إلى هذا الكتاب لمعرفة المزيد عن هذه القضية .

فقد أطلق الشاعر على رمز الحسن والكمال اسماً فارسياً خالصاً هو (منوچهر)، وقد أشار إلى سبب اختياره هذا الاسم بقوله ما ترجمته :

– لما كان أول مقطع من اسمك هو « منو » فانني أوثر قراءته « مينو » [1] .

وكلمة « مينو » بمعنى « الفردوس » أو «الروضة»، أما المقطع الثاني من الاسم ، وهو « چهر » بمعنى وجه أو محيا ، وعلى هذا فإن معنى الاسم بمقطعيه « صاحب الوجه الشبيه بالروضة » ، أي أن الشاعر الفارسي ايرج ميرزا قد اختار لبطل الأسطورة اسماً فارسياً يوحي بالجمال والحسن والكمال، حتى يكون جديراً بافتتان (الزهرة) به ، ومحاولاتها الظفر بحبه وقبلاته .

ولم يكتف الشاعر الفارسي بإطلاق اسم فارسي عليه وحسب ، بل خلع عليه خلعة ملازم أول في الجيش الإيراني، له من العمر ستة عشر عاماً، فقال يصفه في مطلع المنظومة :

– مصباح الجيش ، المشرق الوجه ، الملازم الأول الشبيه بالبدر

– المنطق بالسيف ، المثل المحتذى في الجمال ، من يصبح الهلال ركاباً يطؤه بقدمه .

– ومن يتلألأ حذاؤه الطويل ، ومن يربض أسد على كل زر من أزرار بزته .

– ومن حيكت على قبعته (العسكرية) لبة ، شبيهة بالهلال في يوم الغرة .

– ومن سماه أبوه « منوجهر » ، ومن قده أنضر من عود الورد ! [2]

---

(١) الديوان ، ص : ١١٤ ، بيت رقم : ٩٣٣ .

(٢) الديوان ، ص : ٩٧ .

وقد استثمر الشاعر كون منوچهر ضابطاً في تصوير صموده أمام كل محاولات الإغراء التي بذلتها ربة العشق ، فالضابط يجب أن يتسلح بالعفة ويتنزه عن الخطيئة ، ويكون مثالاً يحتذى في الفضيلة ، وقد كرر الشاعر هذه السمات الأخلاقية أكثر من مرة ، ومما قاله في هذا المجال :

— إن روح الجندية التي تسري في عروقه ، كفيلة بأن تحول بينه وبين العشق والهوى [١]

كما أنطق ايرج ميرزا منوچهر كي يعبر عن إصراره على الرفض والتمنع وذلك لأن المحارب أكبر من أن يخضع لامرأة ، وأعظم من أن يذل أمام أي إغراء ، إذ ليس للجندي إلا الصمود في ساحة المعركة ، ومما قالــه منوچهر ، ما ترجمته :

— لا مكان للمرأة في قلب المحارب ، وعشق المرأة حرام على المقاتل !
— أنّى للجندي أن يرضخ للعشق ؟ وكيف يحلو له أن يسلم القلب ؟
— مكاني قلب الجيش ووسطه ، لــذا لن يكون مكاني قلب أي امرأة !
— وما دمت أرتدي بزة عسكرية ، فلا يحق لي مصاحبة النساء ! [٢]

وقد حاولت الزهرة استثارة نخوة منوچهر ، ذلك الضابط اليافع ، الذي لا يليق به أن يكون جباناً ، ويخشى أن تصل أخبار عشقه إلى القائد ، فيزج به في السجن ، أو يطرده من الخدمة العسكرية ، إن الجندي يجب أن يكون شجاعاً غير هياب ، لأنه لو آثر الرضوخ والاستكانة ، فإنه لن يفوز بأي منصب قيادي في الجيش أو الدولة :

---

(١) الديوان ص : ١٠٠ بيت رقم : ٥٩٢ .
(٣) الديوان ، ص : ١٠٧ .

– نهضت من مكانها بقد مياس ، نهضت كي تعاتبه ، تشوقه ، تبعده ، تقربه

– قالت : انظر إلى هذا الشاب كم هو جبان ! إنـه يا للأسف صاحب سيف ونيشان !

– ذلك الذي يهرب من امرأة ، كيف يقوى عـلى الصمود في المعركة ؟

– أضابط ، وهو مثال الضعف والجبن ؟ إنه مجرد طفل متسم بالجهل والوهن !

– لا وجود لسوانا في هذا المكان ، فممن تخاف ؟ وممَّ تهاب ؟

– أتخشى أن تكون المروج شاهدة عليك ، فترسل رسالة تخبر أركان الجيش بما ارتكبت !

– لا وجود لحارس قلعة يزج بك في سجونها ، كما لا وجود لحاكم شرعي يقيم عليك الحد !

– لا وجود للقائد أو السجن ، ولن يسلبك أي شخص رتبتك العسكرية ! (١)

وهكذا أفاد ايرج من السمة العسكرية التي خلعها على منوچهر ، لكي يبالغ في إظهار صموده وتحديه لكل إغراء من جانب ربة العشق والدلال ، إلى جانب استثماره هذه الشخصية بسماتها الجديدة في الحديث عن حب الوطن ، كما سأوضح ذلك فيما بعد وهكذا كانت شخصية منوچهر مختلفة في أبعادها الفارسية ، عن تلك الأبعاد التي رسمها شكسبير لبطل أسطورته « أدونيس » .

* * *

(١) الديوان ، ص : ١٠٨ – ١٠٩ .

٣ ــ المنية :

تمثلت المنية في قصيدة شكسبير في الخنزير الذي فتك بأدونيس ، وكم حاولت فينوس أن تثني الفتى عن مطاردة هذا الحيوان المفترس ، ولكن قدره دفعه ــ على الرغم من تحذيراتها ــ إلى محاولة الإيقاع بالخنزير ، فأوقع الخنزير به ، ومزقه إرباً إرباً ، مما أدمى قلب فينوس واضطرها للعودة إلى السماء كسيرة البال ، مكلومة الفؤاد .

أما في الأسطورة الفارسية ، فلم يرد ذكر المنية ، وقد يقول قائل : إن الشاعر الفارسي قد داهمته المنية قبل أن يكمل الأسطورة ، فلعله ــ إن أكملها ــ كان سيشير إلى المنية ويرمز لها بخنزير أو بأي حيوان مفترس آخر .

هذا القول يمكن قبوله ، ولكن ما نلاحظه أن ايرج ميرزا لم يذكر طوال ما نظم كلمة خنزير ولو مرة واحدة ، وإنما ذكر أن الفتى قد خرج لتعقب الغزلان ومطاردة الوعول . واعتقد أن الشاعر قد تجنب عن عمد استخدام كلمة « خنزير » لما يتسم به هذا الحيوان الدنس من كراهية وتحريم في جميع بلدان العالم الإسلامي ومنها إيران . وإذا كان الفتى قد خرج إلى الصيد وهو يأمل أن يعود إلى داره في المساء محملاً بالعديد من الطرائد ، فلا شك أنها طرائد مما يحل لحمها ، وتبيح الشريعة الإسلامية أكلها ، وليس من بينها بطبيعة الحال ذلك الخنزير الدنس . وعلى هذا اختفى الخنزير من المنظومة الفارسية ، على الرغم من وجوده في الأسطورة عند أوفيد ، وفي قصيدة شكسبير !

* * *

ثالثاً : المجتمع الإيراني والأسطورة :

إلى جانب ما أدخله ايرج ميرزا من تبديل لأسماء أبطاله ، وما ارتبط

بهذا التبديل من سمات تتفق والمجتمع الإيراني ، فإنه قد ضمن المنظومة بعض العقائد الاجتماعية الإيرانية الأخرى ، والتي تضفي على الأسطورة طابعاً جديداً لم يكن موجوداً في الأسطورة قبل أن يقدم هذا الشاعر الفارسي على نظمها ، ومن أهم هذه السمات الاجتماعية الإيرانية ما يلي :

احترام الملكية :

كان الشعب الإيراني في ذلك الوقت يحترم الملكية ويحافظ عليها ، وعندما ثار رضا خان على الملك القاجاري ، وأجبره على السفر شبه منفي إلى أوربا ، ارتفعت أصوات تنادي بإنهاء الملكية وإعلان الجمهورية ، ولكن سرعان ما اختفت هذه الأصوات واستبدلت أسرة ملكية هي القاجارية ، بأسرة ملكية جديدة هي البهلوية وتم تنصيب رضا شاه عام ١٩٢٦ ، وقد احتج حماة الملكية في ذلك الوقت بأن إيران قد جبلت منذ فجر التاريخ على النظام الملكي ، وأن المذهب الشيعي الذي تدين به إيران لا يتفق وتغيير الإمام والحاكم ، وبالتالي لا يتفق والنظام الجمهوري [1] . وقد حفلت المنظومة بالعديد من الأبيات التي تشير إلى مكانة الملك ، وضرورة العمل على رضائه ، وعدم الإقدام على ما يغضبه ، فقد تعلل «منوچهر» بحرصه على إرضاء الملك وعدم إغضابه ، حيث أن ممارسته العشق مع الزهرة قد يغضب الملك ، ويدفعه إلى طرده من الخدمة العسكرية :

– الإخلاص للملك مذهبي ، وحب الوطن عقيدتي ومأربي !
– إن يرني الملك المعظم ، فسرعان ما يطردني من الخدمة !

---

(١) تحدثت عن هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي : من قضايا الشعر الفارسي الحديث (بيروت ١٩٨٠) في الفصل الثالث من الباب الأول ، فيمكن القارىء الرجوع إليه لمعرفة المزيد من التفصيلات حول هذه القضية .

- وإن يسمع الملك بفعلتي يتملكه الغضب ، ودواماً يعاقب الملك من تخطوا حدود الأدب !
- وكل ما سيحدث بيننا، كفيلة النسائم بحمل أخباره إلى الملك
- كما أن الرياح تحمل إلى الملك صدى ما يتردد من أحاديث بين شعاب الجبل
- وكل فكرة تخطر ببالنا ، مردها إلى تفكير الشاه ولبه ! [1]

كما حاولت الزهرة أن تستميله إليها بأنها ستحول بينه وبين غضب الشاه عليه ، بل إنها ستلقي في قلب الشاه محبته ، فلا داعي للتمنع والتردد ، ومما قالته في هذا الصدد ، ما ترجمته :

- لا داعي لأن تخيفني من الملك هكذا ، ولا مبرر لكل هذه المخاوف .
- لن يطرق غضب الملك بابك ، فلا يتملكك الخوف من غضب الملك هكذا .
- إنني من يلقي المحبة في رؤوس الجميع ،لذا فأنا كفيلة بإلقاء محبتك في رأس الملك .
- وكم سيكون الملك راضياً عن الزهرة ، حينما يبدو وجهك في سعادة ومسرة ! [2]

ولعل ايرج في دفاعه عن الملك والملكية ، ومناداته بضرورة احترامهما ، كان يعبر عن ذاته وأسرته ، فهو كما أشرت في تقديمي لهذه المنظومة أحد أبناء البيت القاجاري الحاكم في ذلك الوقت ، وكان هذا البيت يتعرض

(١) الديوان ، ص : ١٠٧ .
(٢) » ، ص : ١٠٩ .

للسقوط على يد رضا خان ، وكأن لسان حال ايرج يقول : عليكم أيها الثائرون — وعلى رأسهم رضا خان — احترام الملك القاجاري ، وعدم الثورة ضده ، والإطاحة بعرشه ، ولكن لم يكن في مقدوره التصريح باسم الملك القاجاري خوفاً من بطش رضا خان ورجاله به ، فاكتفى ببيان مكانة الملك وضرورة احترامه ، لعله يجد من يناصره في الدفاع عن البيت القاجاري الآيل للسقوط ، والذي سرعان ما سقط نهائياً في العام التالي لوفاة ايرج ميرزا ؛ أي في عام ١٩٢٦م ، عندما أعلن رضا خان تنصيب نفسه ملكاً جديداً ومؤسساً لأسرة ملكية جديدة هي الأسرة البهلوية .



لاله زار :

إنه شارع من أشهر شوارع طهران خلال النصف الأول من القرن العشرين ، حيث الملاهي ودور اللهو وحانات الليل ، وما يرتبط بذلك من حركة سياحية ، ومنتوجات وطنية ومشغولات يدوية تعرض على زوار المدينة وورواد هذا الشارع كذكرى لزيارتهم له ، والمشاركة في مجالات النشاط الفني الذي يقدمه حي لاله زار بأكمله ، لا الشارع وحده . وقد أشار الشاعر ايرج ميرزا إلى الحركة التي يموج بها هذا الحي عندما تحدث منوچهر عما يعانيه من مضايقة نساء هذا الحي ، فعندما يمر بهذا الحي عصراً ، إذا بهن يحطن به ويفتن بجماله ، ويحاولن تأبط ذراعيه ، والظفر به ، ولكنه لا يأبه لمحاولاتهن ، ويواصل السير في طريقه :

— إن الجميلات والحسان يتوافدن صوبي جماعة في إثر جماعة ، وكأنهن السيل

— لنطف عصرا بمحلة « لاله زار » ، ولنراقب ممشوقات القوام وقد بدون في أبهى زينة

– ومع هذا فكل من يقع نظره على محياي امرأة كانت أم رجلاً لا يريد الابتعاد عني قيد خطوة !

– أما صاحبات الدلال فيسارعن نحوي ، راغبات في تأبط ذراعي !

– ولكن ، مع أنني في مقتبل العمر ، وصاحب جمال ، إلا أنني لا أطيق محبة الحسان وصاحبات الدلال ! [1]

* * *

أدباء وفنانون :

ذكر الشاعر ايرج ميرزا في المنظومة عدداً من كبار الفنانين والأدباء الذين عاصرهم ، وأعجب بفنهم وأدبهم ، وذلك عندما أنطق الزهرة وهي تتحدث إلى منوچهر ، وتخبره بأنها مصدر كل جمال في هذا العالم ، سواء أكان هذا الجمال في الرياض والخمائل ، أو في صورة وجه إنساني جميل ، أو حتى في هيئة صوت يشدو بأعذب الألحان ، أو في أنامل تعزف الأوتار فتخلب بعزفها الألباب ، أو في أي صورة أخرى من صور الإبداع الفني أو الأدبي مهما تنوعت مظاهر هذا الإبداع .

– كل لطيف في هذا العالم ، وكل زخرف ونقش وزينة .

– وكل ما يبهج على وجه الأرض ، وكل ما يدخل السرور إلى قلب الآدمي .

– سواء في ذلك الشعر الجميل ، والصوت الحسن ، والوجه الصبوح ، والنغمة العذبة ، واللحن الأخاذ ، والرائحة الزكية .

---

(١) الديوان ، ص : ١٠٧ .

— وكذلك الفكر الثاقب لكل العلماء ، والأنغام الساحرة للمطربين والمطربات

— كلها من إبداعي اللطيف ، ومن إنتاجي الشريف

— وكل من يقطنون هذا العالم عبيدي ، سواء في ذلك الشاعر أو الرسام أو الكاتب

— أحياناً أبعث « كمال الملك » ، وأجعله أفخر الرسامين ، وقدوة الفنانين .

— وأحياناً أضع القلم في يد « دشتي » ، فأجعل كتابته ناصعـة كالروضة .

— وأحياناً أجمح على خيال الشعراء فأخلق ذا العبقرية « إيرج » [1]

— وأحياناً أضع العود في يد « درويش خان » كي يعيد الأرواح إلى أجساد الموتى .

— وأحياناً أُحسن إعداد مطربة شبيهة بـ « قمر » ، كي يتساقط السكر من فمها الدقيق ! [2]

— وأنا من أوصل « الكلنل » إلى هذه المرتبة،ومن جعل أنامله تسلب بنغماتها القلوب .

— وإذا كان اسمه المجازي « على نقي »، فإن اسمه الحقيقي « أبو الموسيقى »

— الرقة الكاملة في ألحانه ، وكم فقدت السيطرة على نفسي من عذوبة عزفه ! [2]

* * *

(١) أي الشاعر نفسه .

(٢) الديوان ، ص : ١١٥ .

الجمعة ، يوم عطلة :

من المعروف أن يوم الجمعة ، هو يوم العطلة الأسبوعية في كل بلدان العالم الإسلامي ومن بينها إيران، ولما كان منوچهر رمز الجمال في الأسطورة الفارسية ضابطاً بالجيش ، ومشغولاً بمهام وظيفته طوال أيام الأسبوع ، فلم يعد أمامه إلا يوم الجمعة ، يوم العطلة الأسبوعية كي يمارس هواياته الخاصة ، وأي هواية يحبها أكثر من الصيد والقنص ! وقد أشار الشاعر إيرج إلى يوم الجمعة في بداية منظومته ، حيث قال :

– ما أجمل هذا اليوم ، وما أبهاه ، إنه يوم الجمعة ، وفيه لن يلتحق بعمله المعتاد

– فأراد أن يقضي هذا اليوم السعيد حتى المساء ، وفق مراده وحسب هواه

– لذا طلب الفرس والبندقية والأعيرة ، وأسرع صوب الصحراء بلا تأخر أو إبطاء . (١)

وعندما أراد منوچهر أن يودع الزهرة بعد أن ضاق ذرعاً بها وبمحاولاتها المتكررة ، تعلل بأنه قد تأخر في العودة إلى داره ، وأن أسرته الآن في انتظار أوبته ، إلا أن الزهرة ردت عليه بأن اليوم يوم الجمعة ، وهو عطلة ، فلا داعي للعجلة :

– لا داعي لتجنب العشق أكثر من هذا، ولا موجب لسوق الأعذار والترهات هكذا

– اليوم ، يوم جمعة وعطلة ، فلم العجلة ؟ ولم تريد العودة بهذه السرعة ؟ (٢)

* * *

---

(١) الديوان ، ص : ٩٧ .

(٢) الديوان ، ص : ١١٣ .

الوردة والبلبل :

من الصور الكثيرة الشيوع في الأدب الفارسي صورة الوردةوالبلبل، حيث ترمز الوردة إلى المعشوق ويرمز البلبل إلى العاشق ، وقد وردت هذه الصورة في شعر معظم شعراء إيران في شتى العصور ،وكأن الصورة ميراث يملكه المجتمع الإيراني بكل طوائفه ، مما يحق لأي شاعـــر أو كاتب أن يستخدمه ، دون أن تفقد الصورة طلاوتها وبهاءها . وقد أورد إيرج ميرزا هذه الصورة عندما كانت الزهرة تعاتب منوچهر لعدم تمتعه بما لديه من حُسن وجمال ، وأنه لا قيمة لهذا الجمال إن لم يقترن بالعشق والغرام ، شأنه في ذلك شأن الوردة التي تعيش بعيداً عن البلابل؛ اذ لا يمكن لصورة العشق أن تكتمل إلا بوجود الوردة والبلبل كليهما :

– لقد فاق حسنك كل حد ، وزاد جمالك عن كل حساب وعد

– ولكن ، أليس من الظلم ألا تهنأ بهذا الخط والخال ، وألا تسعد بهذا الجمال ؟

– إن لم تكن قرين العشق ، فأنت مجرد وردة ! وما تم عشق إلا بوجود الوردة والبلبل معاً !

– لا صفاء للحسن بدون العشق ، إنهما لازم وملزوم ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ! (١)



رابعاً شخصية الشاعر :

كان الشاعر متقلب الأطوار ، فأحياناً يلتزم الصرامة والشدة في التعامل

---

(١) الديوان ، ص : ١١٠ .

مع الآخرين ، وأحياناً يكون محباً للهزل والمزاح وإلقاء النكتة . وفي بعض الأوقات يكون الوقار سمته ، وفي أوقات أخرى يكون ماجناً سكيراً ، وأحياناً يكون عف اللسان ، وأحياناً يطلق للسانه العنان كي ينطق بالإسفاف والسباب . وهذه أمثلة على تقلب شخصيته ؛ ولنبدأ بالجانب الوقور منها :

الحكمة وضرب المثل :

نظم الشاعر الأسطورة في الأيام الأخيرة من حياته (أي وله من العمر زهاء خمسين عاماً) ، لذا نراه يجنح في مواضع كثيرة من المنظومة إلى إرسال المثل ، وسوق الحكمة ، يؤكد بهما موقف أحد البطلين ، أو يعلق بهما على حدث في الأسطورة ، وهذه كانت إحدى سمات شعر ايرج على وجه العموم ، كما أن هذا الاتجاه يتفق والمواقف التي كان يلتزم فيها الوقار والصرامة ، ومما قاله في هذا المضمار ، ما ترجمته :

– كل جنيٍ لا يقطف في حينه ، سرعان ما يبلى على عوده [1]

وقال تعقيباً على أن صد العاشقات يزيدهن إصراراً على مواصلة طريق العشق ، ومحاولة الظفر بمن يصدهن ويرفض الرضوخ لغوايتهن :

– كلما تمادى منوجهر في صده ، تمادت الزهرة في التعلق به

– إنها قبضة العشق ، وما أقواها من قبضة ! ومن ذا لم يعذب بهذه القبضة ؟

– صد العاشقات يزيدهن ولهاً ، والتدلل على المكلومات يزيد قلوبهن إدماءاً ونزفاً

– فكل ما صعب نواله ، ارتفعت قيمته لدى طالبه

---

(١) الديوان ، بيت : ٦٢٩ ، ص : ١٠٢ .

– وكل ما سهل الحصول عليه ، رخصت قيمته ، وقل قدره
– الياقوت حجر قرمزي ، ولكن مـا أكثر الأحجـار القرمزية مثله !
– ولما كان الياقوت صعب المنال ، فلا جرم أن يكون أعلى قيمة من كل الأحجار !
– وإذا توفر اليورانيوم ، وأصبح سهل المنال ، أصبحت قيمته من قيمة الرمال . (1)

وقال الشاعر على لسان الزهرة وهي تبث في قلب منوچهر روح الإقدام كي يقبل على عشقها دون خوف من ملك أو قائد ، ولأن الحياة لا تقبل على الجبان الهياب ، بينما يحظى المقدام بتحقيق كل ما يصبو إليه :

– إن هذا التمنع ليس إلا ضرباً من الضياع ، فالتمنع الفائق عن الحد ، ما أسوأه !
– ومن لا يكون جسورا في تصريف الأمور ، سيظل بعيداً عن كل متعة وسرور !
– أما من يقتحم الأعمال بجلادة وعزم ، سرعان ما ينجز كل أعماله بحزم .
– ومن يكن الخجل والحياء مرشده ، فإن الخلق يخطفون القلنسوة من على رأسه .
– إن تقف الرغبة عند حد الطلب ، فهي شبيهة بعود ورد جاف ، سرعان ما يتحول إلى حطب ! (2)

★ ★ ★

(1) الديوان ، ص : 108 .
(2) الديوان ، ص : 109 .

حب الوطن :

كان إيرج ميرزا محباً لوطنه ، عاشقاً لكل ما يحقق الخير له ، لذا نرى قطعاً كثيرة من ديوانه يهيب فيها بمواطنيه أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون لخدمة هذا الوطن،وأن يؤدي كل مواطن عمله دون تقصير أو تواكل ، وقد ضمن هذه المعاني منظومته « زهره ومنوچهر »، حين قال على لسان منوجهر وهو يدفع عن نفسه تهمة التقصير في أداء واجبه : إنه لو استجاب لغواية الزهرة ، فإنه يكون قد اعتدى على حرمات المواطنين ، وهو الموكل إليه الحفاظ على أعراض الناس وممتلكاتهم ، بل والموت في سبيل أداء هذا الواجب :

- **القوم العزل من السلاح كقطيع يرعى في مراعي غيرتنا**
- **إننا نعرف الذئب ، إذ نحن الرعاة ، كما أننا الحماة لأعراض الناس وحرماتهم**
- **ولكي نصل إلى مرتبة القيادة على هذا الجمع ، لا يليق بنا أن نكون ذئاب القطيع .**
- **ومن يضحي بروحه فداءً للوطن ، من الظلم ألا يكون طاهر الذيل .** (١)

★ ★ ★

إذا كانت الحكمة وحب الوطن تمثلان الوقار في شخصية إيرج ميرزا فماذا يمثل الجانب الآخر من هذه الشخصية المتقلبة الأطوار ؟

الأدب المكشوف :

من يتصفح ديوان ايرج ميرزا — وبخاصة منظومته الثانية « عارف

---

(١) الديوان ، ص : ١٠٧ .

نامه » – يجد به كثيراً من الأبيات التي يمكن أن توصف بأنها من الأدب المكشوف ، حيث يتغزل فيها بكل من المؤنث والمذكر ، غزلاً صريحاً مكشوفاً ، وفي منظومة « زهره ومنوچهر » كثير من الأبيات التي يمكن أن تدخل في عداد هذا النوع من الأدب المكشوف . ومثال ذلك ما قاله الشاعر على لسان الزهرة ، وهي تصف جسدها لمنوچهر :

– **هذه رأسي ، وهذا صدري، وهذه ساقي ، وهذا كفي الرقيق وهذا فخذي المكتنز**

– **هذا نحري وتلك رقبتي ، وهذه سرتي ، وهذا بطني المنزه عن أي ترهل !**

– **كما أن لي عضوين آخرين لن أحدثك عنهما مطلقاً**

– **فلا تسل عما خفي داخل السروال ، كما لا تسل عن شكل السرة وما تحتها !** (1)

كما قال الشاعر على لسان الزهرة وهي تدعو منوچهر كي ينثرها بالماء فيلتصق الثوب بجسدها ، فيرى مفاتنها :

– **هيا نعرج إلى هذا الجدول الجاري ، كي تنثرني بمياهه من الرأس إلى القدم**

– **وعندما يبتل جسدي ، سرعان ما يلتصق به ثوبي الرقيق**

– **وهنا ستبدو لك تضاريس جسدي ، وسيتضح لك كل خفي**

– **وعندما تنكشف أمامك الكثير من الأسرار ، فسيبدو لك عياناً كل ما خفي خلف الأردية .** (2)

---

(١) الديوان ، ص : ١٠٢ .

(٢) الديوان ، ص : ١٠٤ .

ومثال ثالث لهذا الأدب المكشوف ما جاء على لسان الزهرة كذلك :

– هيا وكن طفلي ، وارقد على ركبتي ، وارضع اللبن من ثديي

– وامسح بيدك على جسدي النضر ، ثم قبل بشفتيك سرتي

– ولتقبل بشفتيك صدري الفضي ، ولتعض برفق شفتي الحلوة

– إنني وردة فتنسمها ، ونبيذ فارتشفه ، ثم لتطرحني أرضاً ، ولتكشف عن جسدي ، وكن أنت غطائي [1] !

وإلى جانب هذه الأمثلة توجد أبيات أخرى متفرقة في المنظومة تسير على هذا النهج من الأدب المكشوف ، الذي يعد إحدى السمات البارزة التي يتميز بها أدب ايرج ميرزا سواء في هذه المنظومة أو غيرها من المنظومات والقطع التي يضمها ديوانه الشعري ، والتي لا نجد مثيلاً لصراحتها في قصيدة شكسبير . مما يجعلنا نرجح أن ما جاء في هذا الخصوص نابع من شخصية الشاعر الفارسي ، أكثر مما هو نابع من موضوع الأسطورة .

خمر وسُكر :

لم يرد في قصيدة شكسبير ذكر للخمر والسكر ، بينما أشار إيرج أكثر من مرة إلى احتساء الخمر ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لشخصية هذا الشاعر الإيراني الذي كان مدمناً للخمر ، بل إنه – كما ورد في الأخبار – قد أسلم الروح بعد ليلة سكر ، شرب فيها أكثر مما يتحمل ، فزهقت روحه قبل أن يكمل المنظومة ، وإذا كانت هذه حياة إيرج – وبخاصة في أيامه الأخيرة – خمر وسكر ومجالس عربدة في كل ليلة ، فمن المتوقع أن يكون

(١) الديوان ، ص : ١٠٥ .

لهذه المجالس أثرها فيما نظم، وعلى هذا الأساس ورد ذكر الخمر واحتسائها في عدد من أبيات المنظومة ، منها ما ترجمته :

– كانت روح الفتى ساذجة كقلبه ، لذا لم يكن شغوفاً بالحسان ولا بالصهباء

– ومع أنه كان ذا قد فاره ممشوق ، فإن عمره لم يكن قد تخطى السادسة عشرة

– إنه لم يكن قد خبر العشق بعد ، كما لم يتذوق الصهباء حتى ذلك الوقت

– ومع ما يتمتع به من شفة ياقوتية ، فإن الخمر لم تكن قد مست هذه الشفة (١)

وقال الشاعر على لسان الزهرة تخاطب منوچهر :

– إن شفتك الياقوتية قد وصفتك لي سراً في الخفاء على هذا النحو

– وقالت – ولم تكن كاذبة على الإطلاق – إنك قد بلغت في التو حد البلوغ

– ولهذا أسرعت صوبك ، فوجدت أنفاسك دافئة فتية

– فهل يمكن التمتع بالمزيد من اللذة معك ؟ وهل يمكن مضاجعتك ومعاقرة الصهباء معك ؟ (٢)



---

(١) الديوان ، ص : ١٠٠ .
(٢) الديوان ، ص : ١١٠ – ١١١ .

بعد عرض مظاهر الاتفاق وكـــذا الاختلاف بين المنظومـــة الفارسية وبين قصيدة شكسبير ، يمكننا القول بأن الشاعر الإيراني قد وضع قصيدة شكسبير نصب عينيه وهو ينظم منظومته « زهره ومنوچهر » فحافظ على الخطوط العامة للأسطورة ، ثم أضفى على هذه الخطوط العامة بعض الأفكار والمعتقدات السائدة في إيران إبان الربع الأول من القرن العشرين وقتما كان يعيش الشاعر ، إلى جانب بعض الآراء والمعتقدات الخاصة لدى إيرج نفسه كما سبق أن فصلنا ذلك ، وعلى هذا يمكن القول بأن ايرج ميرزا قد خلّف لنا عملاً فيه إبداع وتفوق، وقدرة على إدارة الحوار وتقديم الحجج والبراهين ، كل ذلك في بناء شعري رصين ، استحق كل ثناء وتقدير ، كما استحقت هذه المنظومة أن توصف بأنها أفضل ما أنتجته قريحة شاعر إيراني في العصر الحديث كله ، وقد أصبحت هذه المنظومة علماً على ايرج ميرزا؛إذ لا يذكر اسمه إلا قرينا بهذه المنظومة أكثر من اقترانه بأي منظومة أخرى في ديوانه الشعري .



الفَصْل الخَامِسْ

عشتروت وأدونيس

ملحمة شعرية للدكتور حبيب ثابت



ملحمة عشتروت وأدونيس

شعر الدكتور حبيب ثابت

حظي الدكتور حبيب ثابت بشهرة واسعة كطبيب في لبنان ، وقد عاش في الفترة الممتدة ما بين عام ١٨٩٤ م ، وعام ١٩٥٤ م [١] . وإلى جانب شهرته في مجال تخصصه ، فقد كان شغوفاً بالنظم والكتابة ، وجاء في مقدمة ملحمته هذه — والتي نشرت عام ١٩٤٨ — أنه نظم مجموعتين من الشعر بالإضافة إلى هذه الملحمة ، وأن المجموعة الأولى قد صدرت عام ١٩١٢ بعنوان « الزهرة الأولى من أزهار الصبا » . وقد بحثت عنها في مكتبات لبنان العامة منها والخاصة ، ولكنني لم أعثر على نسخة منها ، كما أشار المؤلف في المقدمة إلى نفاذها .

أما المجموعة الشعرية الثانية والتي أشار إليها المؤلف كذلك في مقدمة الملحمة ، فتحمل اسم « الضياء » وجاء في المقدمة أنها تحت الطبع ، فبحثت عنها هي الأخرى ، ولم أعثر على أي نسخة كذلك ، فإما أنها نفذت ، وإما أنها — وهذا هو الأرجح — لم تطبع ، وربما كان المؤلف يتمنى أن ترى النور في حياته ، ولكنه فارق الحياة عام ١٩٥٤ دون أن تُتاح الفرصة لهذه المجموعة أن تطبع ، وتخرج إلى القراء . وبناء على هذا فإنني لم أحظ بشيء من شعره إلا هذه الملحمة التي تحدث فيها عن أسطورة عشتروت وأدونيس

---

(١) دائرة المعارف اللبنانية ، جـ ٨ ، ص : ٢٩٩ ، مادة « أدونيس » .

وإلى جانب قرضه الشعر ، فقد نشر في عام ١٩٢٨ كتاب « الصحة والجمال » ، وهو كتاب عام يقدم فيه المؤلف الطبيب إرشادات طبية ، ونصائح صحيه للجميع ، مثل كيفية تجنب بعض الأمراض المعدية ، ومقاومة الآفات الضارة بالصحة العامة ، وما يتعلق بالغذاء الصحي ويوفر الرشاقة ويحافظ على الجمال ... إلى غير ذلك من النصائح الطبية العامة ، دون الدخول في شروح وتفصيلات علمية دقيقة لا تهم إلا الأطباء والمتخصصين .

أما ملحمة « عشتروت وأدونيس » فقد نشرها عن طريق دار مجلة الأديب في بيروت وذلك عام ١٩٤٨ . وقد مهد للملحمة بدراسات مسهبة إلى حد ما [١] عن كل من عشتروت وأدونيس ، وعما حيك حولهما من أساطير ، ثم أعقب سيرتهما بترجمته لحوالي مائتين وستين بيتاً من قصيدة شكسبير « فينوس وأدونيس » . وهي ترجمة عربية دقيقة وبليغة ، وبعد ذلك انتقل إلى التعريف بالأماكن اللبنانية التي ورد ذكرها في الأسطورة ، والتي قيل إنها كانت مسرحاً لهذه القصة المفجعة وقت حدوثها ، من هذه الأماكن مغارة أفقا [٢] الواقعة إلى شمالي نهر إبراهيم بالقرب من منابعه ، وتوجد على مقربة من هذه المغارة آثار قلعة ، أو بالأحرى هيكل لم تزل أركانه الفخمة قائمة بين أشجار الجوز ، وكان هذا المعبد مخصصاً لعبادة عشتروت (فينوس) ، ثم لحق به الخراب ، فجدده الرومان وخصوه بإكرام الزهرة إلى أيام قسطنطين الملك ، فأمر بهدمه إذ بلغه ما كان يجري فيه من الآثام والأرجاس ، إلا أن القيصر جوليان الجاحد أعاد ترميمه وتكرار مواسمه الشنيعة ، فقام بعده « تاو أدوسيوس الكبير » ودمّره مرة ثانية ، ثم جاءت

---

(١) تقع هذه الدراسة في خمس وثلاثين صفحة ، انظر الملحمة ص ٩ — ٤٣ .

(٢) ترجم القدماء اسم أفقا عن اللغة العبرية ، ومعناها : امسك ، احتضن ، ضم إلى الصدر ، وعزوا ذلك إلى عناق فينوس وأدونيس الأول أو الأخير ، اعرف لبنان ، مادة أفقا حاشية رقم (١) ، ص ٢٧٠ .

الزلازل وبالغت في تدميره بحيث لا نرى اليوم إلا أركانه الضخمة [1] .
كما يوجد على الطريق المؤدية إلى هذه المغارة ، في الغينة ، تمثال يصور مقتل أدونيس ، ولعله — كما يقول المؤلف — الوحيد بين آثار الأعصر الماضية الذي يحفظ هذه الأسطورة . [2]

كما تحدث الشاعر عن بحيرة اليمونة الواقعة على بعد ثمانية أميال من بعلبك ، وهي بحيرة يبلغ طولها حوالي الكيلو متر ، أما عرضها فنصف ذلك ويقال إن عشتروت كانت تقطن إلى جوار هذه البحيرة ، حيث كانت تسبح في مياهها الصافية ، كما كانت تجوبها بقاربها كي تنعم بالطبيعةالجميلة والجو الهادىء المنعش ، وقد وُجدت غربي البحيرة آثار هيكل شُيِّد لهذه الإلهة ، ويعتقد البعض أن المياه المتوارية من هذه البحيرة تنفذ في قلب الجبل وتجري حتى تخرج من مغارة أفقا التي يتكون من مياهها نهر إبراهيم . [3]

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن نهر ابراهيم الذي كان يعرف قديماً باسم « نهر أدونيس » وأشار إلى ما يزعمه عباد أدونيس من تلون مياه هذا النهر بدماء أدونيس وذلك في أواخر الشتاء ، وفي هذا الوقت يعلن سكان جبيل — حيث يصب النهر في البحر — يوم حداد على أدونيس .

وآخر الأماكن التي أشار إليها الشاعر مدينة بعلبك ، حيث تحدث باقتضاب شديد عن هياكلها، وقد اتخذ الشاعر من هذه الهياكل وما كان يحدث فيها قديماً وحديثاً من حفلات [4] ، مدخلاً لأسطورته ، حيث دُعي

---

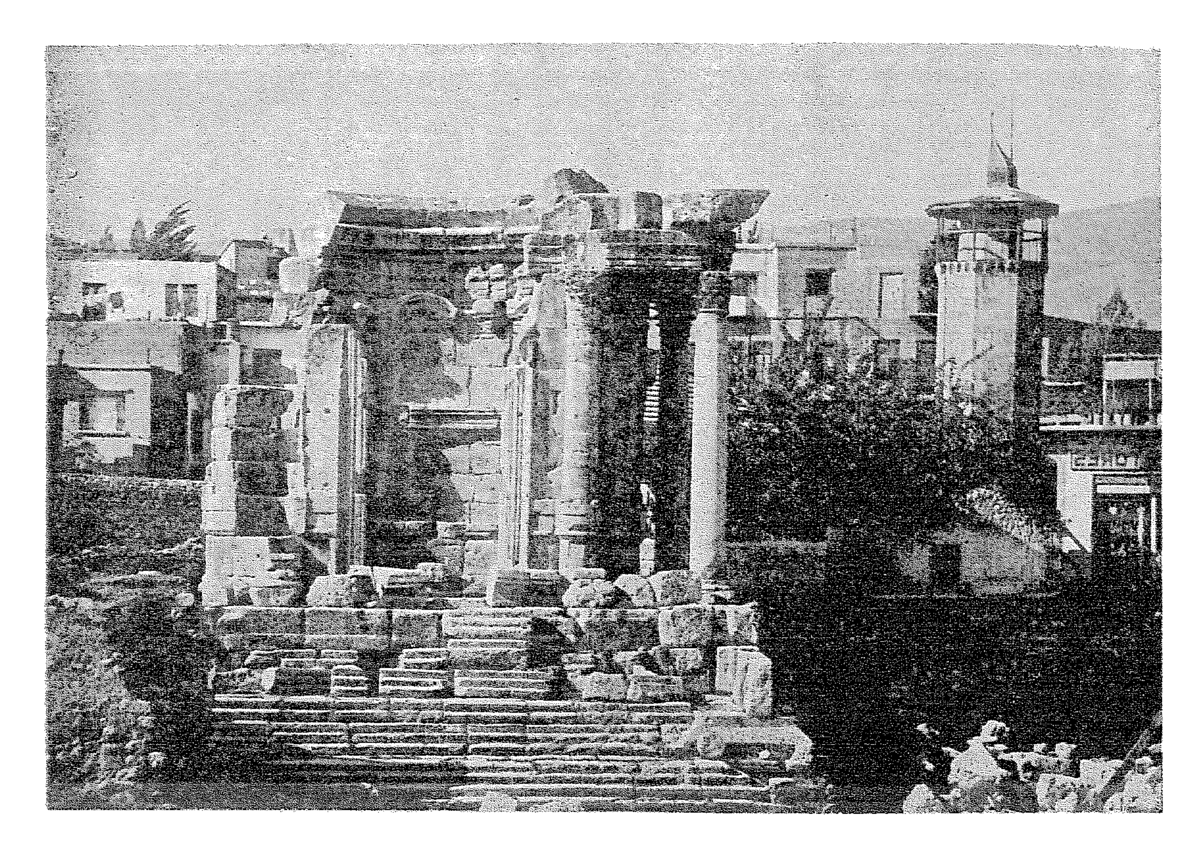
(١) د . يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام ، جـ ١ ، ص : ٢١٤ .
(٢) ملحمة عشتروت وأدونيس ، ص : ٣٩ .
(٣) اعرف لبنان ، مادة اليمونة .
(٤) أشارت كتب التاريخ إلى أن هياكل بعلبك كانت مسرحاً للحفلات في القديم، ثم جاء القرن العشرين ، وفكر لبنان في إعادة الحياة والبهجة لهذه الهياكل ، فتكونت جمعية عمومية برئاسة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية للإشراف على مهرجانات بعلبك الدولية، وكان

جميع الآلهة إلى حفل راقص يقام في الهيكل العظيم، وكان من بين الحاضرين عشتروت وأدونيس ، وهناك تم التعارف — كما تقول الملحمة — وبدأت بعد ذلك أحداث الأسطورة تتوالى ، ولعل اتخاذه من هياكل بعلبك مسرحاً للأسطورة يرجع إلى وجود آثار هيكل بالمدينة ما زال حتى اليوم يحمل اسم فينوس ، كما يقال إن معبد باخوس هو في الحقيقة معبد أدونيس ، وقد أشار إلى ذلك صاحب كتاب تاريخ لبنان العام حيث قال : ... وقد نقبت عن المعبد الأصلي ، وعن معبد آخر قُربه ، بعثة ألمانية من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٤ ، وكان المعبدان للآلهة الفينيقية : المعبد الكبير للاله بعل الشمس الذي اتخذه الرومان إلهاً باسم « جوبيتر هاليوبوليتان » ، ولزوجته الزهرة المعروفة عندهم باسم «فينوس» ، والمعبد الصغير للإله أدونيس المتقمص في « بافوس » عند الرومان ، وما زالت هذه الأسماء الأخيرة — أي جوبيتر وفينوس وباخوس — تطلق على معابد بعلبك حتى الآن . [1]

ويشير الدكتور فيليب حتيّ إلى معبد فينوس ببعلبك ، فيقول : « وعلى بعد ٣٠٠ ياردة من حرم الهيكل « هيكل جوبيتر » يقوم هيكل صغير مستدير ، ولكن على كثير من جمال الصنع ، وقد حرصت البعثة الأثرية الألمانية أن تزيل من حوله بيوت الأهالي ، ويبدو من نوع هندسة البناء أنه يعود إلى العهود الإمبراطورية المتأخرة . وقد كان هذا الهيكل مكرساً

المهرجان يقام كل سنة ، ويشارك فيه كبار المطربين والمطربات كأم كلثوم وفيروز ، وكذلك كبرى الفرق المسرحية العالمية كفرقة الكوميدي فرانسيز . وقد ظل الاحتفال بهذه المهرجانات قائماً حتى دهمت لبنان الأحداث الدامية التي بدأت عام ١٩٧٥ ، والتي آمل أن يخبو نارها كي تعود الطمأنينة إلى النفوس ، وتعود الاحتفالات إلى الهياكل من جديد . ولعل إقامة هذه المهرجانات العالمية كانت من بين العوامل التي دفعت الشاعر اللبناني حبيب ثابت لنظم ملحمته « عشتروت وأدونيس » .

(١) تاريخ لبنان العام ، جـ ١ ، ص : ١٠٠ .



معبد ڤينوس



لعبادة الزهرة أو إلهة الحظ ، ومن حسن الحظ أن هذا الهيكل الوثني حول في العصور المتوسطة إلى كنيسة مسيحية كرست على اسم القديسة بربارة، فكان هذا التكريس عاملاً في حفظه من الخراب » . (١)

★ ★ ★

وقبل أن يبدأ الشاعر في نظم الملحمة ، كتب توجيهاً للقراء ، جاء فيه بأن هذه الأسطورة يسوقها الشاعر عن خيال خاص ، وتصور غير مردود إلى تاريخ رزين أو خرافة عابثة . (٢)

أما عن الملحمة ذاتها ، فتقع في مائتين وإثنين وستين بيتاً من الشعر ، قسمها الشاعر إلى مقطوعات شعرية ووضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً، وأحياناً تكون المقطوعة وحدة واحدة وذات قافية واحدة ، وأحياناً يقسم المقطوعة إلى مقطوعات جزئية ، يكون كل جزء منها على قافية مستقلة ، أو تكون كلها على قافية موحدة .

ولكن إذا كان الشاعر قد صرح بأنه يسوق أسطورته عن خيال خاص، فهل معنى هذا أنها عدمت الصلة بالأسطورة القديمة ، أو بقصيدة شكسبير ؟ للإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا عرض ملخص وافٍ للأسطورة ، ثم نناقش عوامل الأصالة أو التأثر بعد ذلك .

---

(١) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ترجمة أنيس فريحة ، بيروت ١٩٥٩ ص : ٢٧٠ ، ٢٧١ .
(٢) الملحمة ، ص : ٤٣ .

عرض عام لملحمة عشتروت وأدونيس

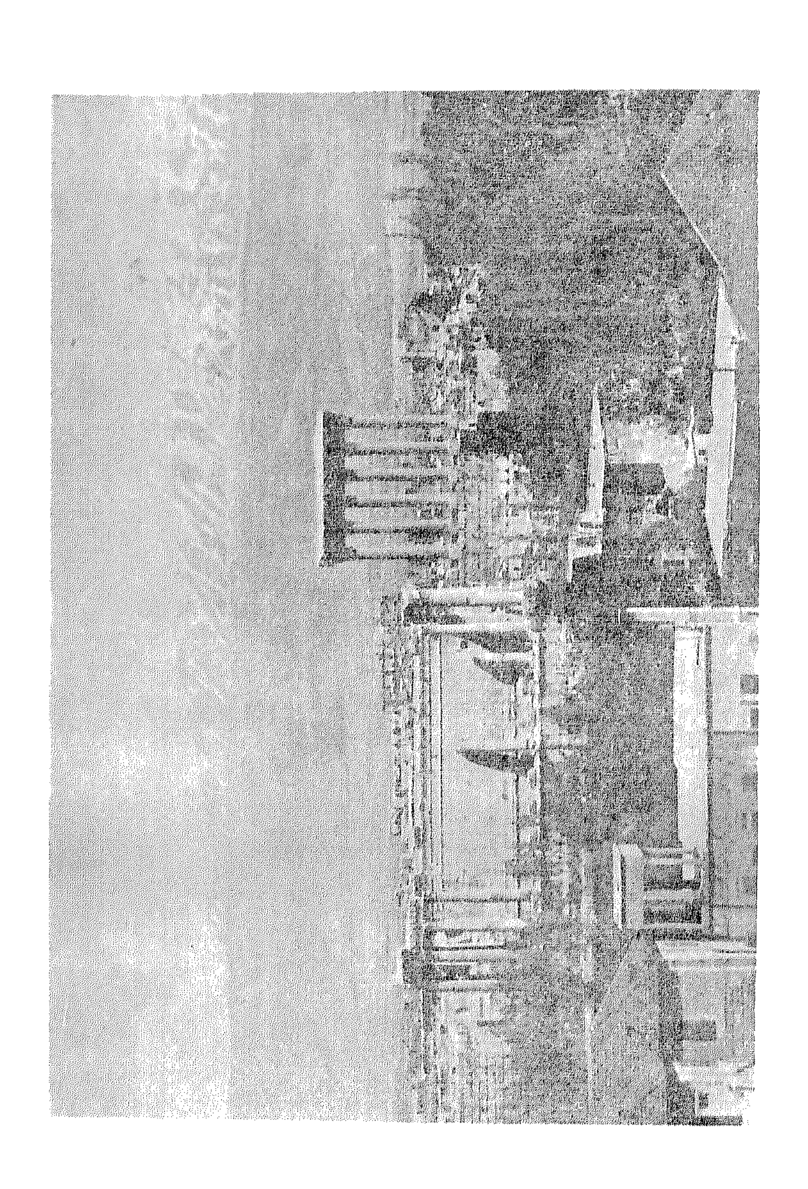
تبدأ الملحمة بالحديث عن هياكل بعلبك ، وأنها شيدت كي تكون وكراً للملذات ، ومرتعاً للحب والشهوات ، حيث تمشي الآلهات بين ربوع الهيكل وهن في عُرسٍ تامٍ ، وكلٌّ همّهن الحصول على اللذة وإرواء عطش الشهوة :

هياكلٌ في السهل مرفوعةٌ ... للحب واللــذاتِ أحجارُها
ساحاتها وجــدٌ وجنّاتُهــا ... وماؤها الجاري وأزهارُها
الشهوة الحمراء في جوهــا ... لا تنطفي عبر المدى نارُهــا

....

تمشي الآلهات إلى ساحهــا ... قيثارها الحــب ومزمارُها
عريانة ترقص من وجدهــا ... يلتف لف الضوّ زنارُهــا
فتنهــب اللذات محمومــــة ... وتشرب الصبوة أبصــارُها

ثم يتحدث الشاعر عن حفلة راقصة أقامتها آلهة بعلبك ، ووجهت الدعوة إلى آلهة الأولمب للحضور ، فلبوا الدعوة ، ومن بين من لبوها إلهة الدلال وربة العشق والهوى عشتروت التي كانت تقيم على ضفاف بحيرة اليمونة . وقد وفدت إلى الساحة سابحة في بحار من النور ، حيث بدّد ضياء جمالها ظلمة الليل ، فافتتن الجميع بجمالها :



هياكل بعلبك



وعشتروت إن خطت خطوة   تلفتت من حولها الأعصرُ
كأنمـا الورد على نحرهـا   يقول للروض أنا المزهـرُ
في جيرة النهد لهـا طيّـةٌ   الله في أسرارهـا أخـبرُ
وفي مثاني ظهرهـا جـدول   يصب في الظن ولا يُنظرُ
وفي دواجي شعرهـا طرة   يشهق ليل تحتها مقمـرُ(١)

....

أقبل الجميع مرحبين بمقدم عشتروت الشبيهة بعروس في ليلة جلوتها، وكم تعالت أصوات الحاضرين مطرين حسنها ودلالها ، حتى بدا الجمع كمحيط موّاج هادر بالبِشْر والتهليل والترحيب .

ألف أهلا بعشتروت على المرج   وبين الربى وبين الزهور
لبس السهلُ ثوبَه الأخضرَ اللونِ   ندياً كأنـه مـن حـريـر
هو عيدُ الجمالِ في كل أرض   هو عرسُ المنى وزفّ السرورِ
هي كالغصنِ يانعاً يتثني   في بكور من الربيعِ النضيرِ
عشتروت الهوى ففي كل عين   لفتةٌ نحوها ، وكـل ضمـيرِ
رحّب الهيكـلُ الكبيرُ وماج   الجمع في ساحتيه موجَ البحورِ(٢)

بدأ السمر وانضوى الجميع في حفل راقص بهيج ، بين أضواء ساطعة تحيل الليل الدامس نهاراً مشرقاً وضاءً ، وإلهات تشع بشراً وإشراقاً وبهاءً ، وكئوس شراب تدور بين الآلهة السكرى ، فتزيد من الإحساس بالنشوة والشهوة ، وتشعل المكان بنار الفجور ، وصيحات السرور .

وبينما الجميع منهمكون في رقص وسكر وسحر ، إذا بموكـب

---

(١) ملحمة عشتروت وأدونيس ، ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٢) الملحمة ، ص : ٤٧ ، ٤٨ .

أدونيس — الذي يقيم على ضفاف نهر إبراهيم — يفد إلى الهيكل ، وفد والنور يشع من جبينه المشرق . فبهر العيون وأسكر الإلهات ، لذا ما إن وقع نظر عشتروت على جماله ، حتى افتتنت به ، ووقع حبه في قلبها وقعاً شديداً لا يمكن دفعه ، وليس لها من سبيل إلا الخضوع له ، وبذل كل شيء في سبيله . كما وقع نظر أدونيس على ربة الدلال عشتروت ، وأعجب بها ، وهكذا التقت النظرات والابتسامات ، وتم توقيع عهد الحب فيما بينهما ، وقعاه بنظراتها ، ومهراه بقبلاتهما :

أطل أدونيس في موكـب ... من النور راياتـه تخفـق
على وجهه من رفيف المنى ... صباحٌ وفي خـده رونـق

★ ★ ★

ياإله الجمال والحبِ والسحرِ ... حلالاً ، ويا حبيب العذارى
جاءك الكون ساجداً وتمنى ... لو يصير الجمال رباً فصارا
وتمنى الشقيق في كلٍ واد ... لو تملّى من وجنتيك احمرارا

★ ★ ★

وكان صباً يوم هامت بـه ... فنال منه حبهـا المحـرقُ
فعاش في عهد الصبا عاشقـاً ... وقطعت عهد الهوى تعشق [1]

لقد كان حبهما باعثا لانتشار الحب في جميع الأرجاء ، وبين جميع الكائنات ، فوقعت النجوم أسيرة الحب ، وتحرك النسيم العاشق ندياً رطباً ، وأخذت عيون الماء تجري حنيناً ، والسواقي تسيل حباً رضياً ، وزهور الرياض أسكرها النور ، كما اهتز كل ساكن فرِحاً نشوان ، وانطلقت

---

(١) الملحمة ، ص : ٤٩ ، ٥٠ .

الطيور العاشقة تغرد بأعذب الألحان ... وهكذا عم الحب جميع من في الوجود .

ولكن هذا الحب الذي بعث البهجة والسرور في كل الأرجاء ، قد أثار حفيظة الآلهة ، آلهة بعلبك . وآلهة الأولمب على السواء ، وبدلاً من أن يباركوا هذا الحب الطاهر ، إذا بهم يطردون كلاً من عشتروت وأدونيس من قدس الهيكل ، ويحاولون إلحاق الضرر بالعاشقين ، وتعقبهما بالإيذاء فلم يكن أمام أدونيس إلا الابتعاد عن الآلهة ، واللجوء إلى القفار ، والعيش بين الضواري علّه يجد بينها الرحمة التي انعدمت لدى الآلهة ، وأخيراً عاد إلى قصره المشيد على مقربة من نهر إبراهيم (نهر أدونيس) عاد أسير الهواجس والهموم والأحزان . كما عادت فينوس بدورها إلى قصرها بجوار بحيرة اليمونة ، عادت هي الأخرى كسيرة البال ، كليمة الفؤاد .

حسدوه .. ألا اشهدي يا سماءُ	**عزّ يوم الهوى وعزّ اللقاءُ**
ضجّت الأرض يوم أن طردوا العاشق	**المبتلَى وضجّ الفضاء**
غارت الناسُ منه في حلبةِ الحب	**وفي الحيرة غيرةٌ وشقاءُ**
طاردوه فعاد للنهر يشقى	**فعلا النهرَ حسنُهُ والرواءُ**
وهي عادت إلى البحيرةِ تبكي	**بعيون طافت عليها الدماءُ (١)**

عاشت فينوس في قصرها باليمونة وذكرى الحبيب تؤرقها ، والرغبة في اللقاء تهز كيانها ، وكانت كلما اشتد بها الحنين ، خرجت إلى البحيرة تمخر بالزورق بين مياهها الزرقاء الصافية ، تحاول أن تسري عن نفسها ، ولكنها لا تستطيع نسيان أدونيس ، وحبه الذي فاق كل حب ، وأنساها هذا الحب جميع عشاقها ، ووقفت ذات ليلة على شاطىء البحيرة تنوح وتندب حبيبها الغائب ، وأخيراً صعدت إلى صخرة عالية صلبة ، ولكن

---

(١) الملحمة ، ص : ٥١ .

بقلب أشد من الصخرة صلابة . صعدت مصرة على الانتحار ، لعلها تلتقي بعد الموت بالحبيب الذي حرمتها الآلهة من لقائه في عالم الوجود ، ثم ألقت بنفسها إلى مياه البحيرة ، وسرعان ما ضمتها أمواجها ، وتحولت إلى طيف أبيض يجري بأعماق المياه ويهرب :

وقفت على الشاطىء تنوح وتندب ... والليل مبيض الجوانح أشيبُ
يمشي الهلال على رؤوس رياشه ... ويلوح ما بين الخوافي كوكب
تتلعثم النسمات في أذن الفضا ... وتثور في صدر السكون وتغضبُ

★ ★ ★

نزلت إلى الماضي فسالت دمعةٌ ... حمراءُ تطفو في العيون وترسبُ
وتذكرت ربَّ الجمال مُشرداً ... بين الروابي الخضر وهو معذَّبُ
وبصدرها بُعد النوى، وبجفنها ... روح متيّمةٌ ، ودمعٌ صيّبُ

★ ★ ★

وقفت على صخر شديد أصلبِ ... وبجنبها قلبٌ أشد وأصلبُ
وهوت إلى حضن المياه فضمها ... موجٌ يجيء على المياه ويذهبُ
فإذا بها في الماء طيفٌ أبيضُ ... يجري بأعماق المياه ويهربُ

أما أدونيس رب الجمال ومثال الحسن والبهاء ، ومن تشرق الدنيا بنوره الوضاء ، ومن تعبق الأزاهير بعطره الفواح ، ومن تتعلق عيون الجميع بطلعته المشرقة، فقد هاجمته هو الآخر ذكرى الحبيبة عشتروت، وتذكر ما كان بينهما من أحاديث ومناجاة وعشق ، وأن حبهما قد بعث النضارة والسعادة في كل الوجود ، فعاشت الورود والنسائم والنجوم والخمائل في نشوة وحب وسعادة ،أما هما مصدر العشق ومعلماه فقد حرما الاقتراب

(١) الملحمة ، ص : ٥٧ — ٥٨ .

من نبع الحب الصافي ، ولم يكن لهما من الحب غير الحرمـــان والشقاء والتعاسة .

هل يذكرُ الوادي ليالينــا   أم يذكــرُ الماضي أمانينــا
وتذكرُ الأطيارُ فوق الربى   في الليلِ ، في الفجرِ، أغانينا

★ ★ ★

على جبينِ الليــلِ في غابــة   عشنا على أطلالِها حينــا
فأزهرت في الروضِ أقمارنا   وأثمرت أزهــارُ ماضينــا
عشنا ربيعَ العمرِ في جنــة   غنّاءَ من وصــلِ ليالينــا

★ ★ ★

فيكِ ابتدى حبي ، وفيكِ انتهى   لكن عذابي فيكِ لا ينتهي
أنتِ التي أحببــتِ فيّ المنى   وكنتِ لي في العيش ما أشتهي

★ ★ ★

شيدتُ للعشاق قصر الهــوى   ومت حيرانَ على بابــه
وكلما أقبلتِ في خاطــري   رجعتُ للماضي وعشنا به [1]

بعد ذلك انتقل الشاعر إلى مناجاة نهر أدونيس (نهر إبراهيم) ، ومدحه بأنـــه أمد الشعراء بالكثير مـــن الخواطـــر التي انسابت أشعاراً ودواوين عبروا فيها عن جمال النهر وصفاء مياهه ، كما تحدثوا عن الأزاهير التي تنبت على شاطئيه ، ووصفوا الخمائل التي تروي ظمأها من مياهه ، فتزهو نضرة جميلة . لقد استمد النهر كل هذا الجمال من جمال أدونيس الذي طالما ركب زورقه وسبح في مياه هذا النهر ، فوقعت صورته على مرآة

(١) الملحمة ، ص : ٦٠ — ٦٢ .

مياهه ، فاكتسبت المياه جمالاً من جمال وجهه ، واتخذت عذوبتها من عذوبة حديثه ، واستمدت صفاءها من صفاء عينيه ، كما تحدث عن روافد النهر عندما تنساب مياه الأمطار بين الصخور ، وتسير بين شعاب الجبال إلى أن تتوحد هذه الروافد . وتكوّن مجرى هذا النهر العظيم .

ولكن كيف كان حال عشتروت بعد أن ألقت بنفسها منتحرة في مياه البحيرة ؟

لقد تحولت عشتروت إلى قطرة ماء ذابت بين قطرات المياه في البحيرة، ثم تبخرت هذه القطرة بفعل أشعة الشمس . وأخذت تجوب الآفاق مع هذه الأشعة لعلها تلقى الحبيب ، ولكنها لم تحظ بهذا اللقاء، فعادت أدراجها إلى البحيرة من جديد ، ثم تسربت من باطن الأرض ساعيةً شق الأرض من رُبى بعلبك إلى نهر إبراهيم حيث يوجد الحبيب ، فتلتقي به وتروي ظمأها من نهر حبه :

ابنة الماء ملّت العيش في المـــاء	فطارت مع الشعاع الوسيـــم
تتهادى سكرى على دورة الشمس	وتصحو على ضفـــاف النعيم
في اخضرار الأغصان يغمرها النور	وتغفو على دوالي الكـــروم

★ ★ ★

فإذا الكأس جمرة . وإذا الصبح	انتفاض ورعشـــة . في الروابي
وإذا عشتروت . ذوبٌ من الضوء	ولمعٌ من شعشعان الســـراب
أين تبغـــين ؟ وأيّ ظمئـــانَ في	الأرض وأيّ ملوح في العباب
ثم ذابت على البحيرة أمواجـــا	وشوقاً وغلغلت في الـــتراب
شقت الأرض من رُبَى بعلبك	ومعالي الذّرى ..وتلك الهضاب[1]

---

(١) الملحمة ، ص : ٦٧ .

ولكي يُسَرّي أدونيس عن نفسه ، أعد العدة للصيد. ومطاردة الغزلان فخرج كسير البال ولكن المروج أحسنت استقباله ، وتملكتها السعادة لمقدم إله الجمال صوبها ، كما بدت الطيور نشوانة ، كل ما في الوجود مستبشر بقدوم أدونيس ، سعيد برؤية وجهه الصبوح ، ولكن العاشق المحروم لا يشاركها أفراحها ، ولا يشعر بشعورها ، إنه يسير على غير هدى ، يسير كيفما حملته قدماه ، وهو على هذه الحال من الحزن والكآبة ، إذا بوحش الفلا ، ذلك الخنزير البري المتوحش ، يُداهمه ويفتك به ، ويمزقه شر ممزق ، فأسلم أدونيس الروح ، وانطفأ نور وجهه الساطع ، واحسرتاه لقد مات سيد الحب وإمام العاشقين !

وهام أدونيسُ من يأسه　　واجتاز أحزاناً فأحزانا
حتى إذا مرّ بوحش الفلا　　وانقض وحشُ الغابِ غضبانا
ومزّقت أظفارُه جسمَهُ　　وامتصّه لحمان لَحمانَا
مات الشباب الغضّ .. مات الهوى　　في الكون . ليت الحبَّ ما كانَا ..

★ ★ ★

مات آدونُ مثلما ينطفي النور　　مساءً على عيونِ الأقاحِ
مات آدونُ سيدُ الحب　　في الأرض عزيزاً على قلوب الملاح[1]

وبموته عم الحزن كل لبنان ، بل إن مأتمه قد تعدى لبنان إلى كل بلدان الشرق ، أما عشتروت — بعد أن صعدت إلى السماء — فقد انهمرت دموعها غزيرة ، وأخذت تقرع الصدر ، وترسل الشّعر ، وتبكي على الهوى المستباح ، ثم أخذت تناجيه بالرقيق من القول ، وتشكو إليه ما أصابها من هزال وأحزان وأشجان ، ووعدته بأن تظل على حبه مقيمة ،

---

(١) الملحمة ، ص : ٦٩ ، ٧٠ .

وأن تبقى ذكراه في قلبها ما دامت الحياة ، كما أنها ستقيم له في هيكلها تمثالاً ، حتى يأتي المصلون والمحبون إلى هذا التمثال ينحرون الذبائح فداء لهذا الحب الضائع ، وقرباناً لإله الجمال أدونيس :

وأطلت من العلا عشتروتٌ ... تندبُ الميتَ بالدموعِ الفصاحِ
تقرع الصدرَ ، ترسل الشَّعرَ للأرض ، وتبكي على الهوى المستباح
وترويّ الشفاهَ بالقبل الحمراء نشوى من الأسى والنواح
وتناجيه بالرقيق من القول وتشكو إليه كسرَ الجناح

★ ★ ★

سأقيمن من وفائي ذكرى ... لحبيبي تميد منها السماءُ
وأقيمنَّ في الهياكلِ تمثالا ... لربٍّ له عليَّ الوفاءُ
في طقوس هي الهوى والتصابي ... ورموزٍ هي النوى واللقاءُ
وفي الليالي الرعشاءُ في هيكل الحب ... زحامٌ وضجةٌ وهناءُ
فالمصلون للهياكل يسعَوْن ... خفافاً وحولهنّ النساءُ
ينحرون الذبائح الحمرَ في الصبح ... وفي الليلِ تصطلي الأهواءُ (1)

وبعد أن سالت دماء إله الجمال في وادي أفقا ، نبتت مكان هذه الدماء زهرة أرجوانية هي الشقائق ، ثم جاءت نحلة كريمة الأصل ، ومالت على الشقائق ، ورشفت من رحيقها ، وطارت من فورها إلى النهر (2) كي تروي ظمأها من مياهه العذبة ، وعندما همت بارتشاف المياه ، إذا برحيق الشقائق العالق بفمها والذي تمثل روح أدونيس ، تختلط بقطرة الماء التي

---

(1) الملحمة ، ص : ٧٠ - ٧١ .

(2) أي نهر أدونيس (إبراهيم) على اعتبار أن قطرة الماء الممثلة لعشتروت قد استطاعت أن تشق الأرض من بحيرة اليمونة حتى وصلت إلى نهر إبراهيم واختلطت بمياهه .

تمثل روح عشتروت ، وهكذا التأم شمل العاشقين . ولما تمت هذه الوحدة سارعت عشتروت بالصعود إلى السماء تاركة — ومعها حبيبها — الأرض بأهوالها ومآسيها .

وادٍ [1] يطلّ على السماء فتنحني   بيضُ النجومِ على رباه وتشرقُ
قتلوا به ربَّ الجمــال فهذه   أنفاسه كالطيبِ بل هي أعبــقُ
وشقائقُ النعمانِ بعضُ دمائـه   نبتت على الوادي ترِف وتورقُ

★ ★ ★

نحلةٌ مصت الشقيقَ المنـدّى   ثم طارتْ تفوحُ عطراً ونــدا
فعلى ثغرها المعسّــل طيــبٌ   من دماءِ القتيل تقطرُ شهــدا

★ ★ ★

حملت أحمرَ الدمــاء بثغــر   هو أنقى من الصباحِ وأنــدى
رفرفتْ مثلما ترف الأمــاني   فوق أفقا تطوفُ سهلاً ونجدا
ورمت حملها الخفيف على الماء   دماءً من القتيــل المفــدّى
ذلك النهر كان مهداً ظليــلاً   لهواه فأصبــح النهــرُ لحــدا

★ ★ ★

وجرى النهر حاملاً عشتروتــاً   في المياهِ الحمراء دفقاً ومدا
وجرى حاضناً شهيداً عزيــزاً   تفتديه السماءُ لو كان يُفدى[2]

★ ★ ★

---

(١) أي وادي أفقا .
(٢) الملحمة ، ص : ٧٢ — ٧٤ .

مدى التأثر والأصالة في ملحمة عشتروت وأدونيس

سبق الإشارة إلى أن الشاعر قد قدم للملحمة بتوجيه ، جاء فيه : « .. أما الأسطورة التي يسوقها هذا الكتاب في شطره الشعري ، عن خيال خاص وتصور غير مردود إلى تاريخ رزين أو خرافة عابثة ... » [1] ومعنى هذا أن ملحمة عشتروت وأدونيس لا صلة لها بما سبقها من أساطير قديمة أو حديثة ، وهذا القول صحيح في معظمه ، ومع هذا فإن القارىء للملحمة على الرغم من ذلك ، يجد فيها بعض التأثر بالأساطير القديمة فالأسطورة ذاتها قديمة ، كما أن الحديث عن الهياكل وما كان يحدث فيها ، حديث قديم أشارت إليه كتب التاريخ والحديث عن الخنزير والشقائق حديث قديم أيضاً ... إلى غير ذلك من أصول الأسطورة في صورتها القديمة ، كما تأثر الشاعر حبيب ثابت في ملحمته هذه بقصيدة شكسبير « فينوس وأدونيس» . ومما لا شك فيه أن الشاعر حبيب ثابت قرأ قصيدة شكسبير. إنه لم يكتف بقراءتها فقط ، بل ترجم الجزء الأول منها ، وأثبت هذه الترجمة في كتابه قبل أن يورد الملحمة ، وبناء على ذلك فإن الشاعر اللبناني قد وقع تحت تأثير شكسبير صرح بذلك أم أنكر ، ولكن ما شواهد هذا التأثر ؟

---

(١) الملحمة ، ص : ٤٣ .

شواهد تأثر الملحمة بقصيدة شكسبير :

أول هذه الشواهد يبدو في إقدام الشاعر اللبناني على نظم هذه الملحمة فلولا قراءته لقصيدة شكسبير وتأثره بها ، لما نظم هذه الملحمة . لقد قرأ « فينوس وأدونيس » وأدرك أن شكسبير قد خلع عليها خلعة إغريقيـــة رومانية ، كما خلع عليها كذلك خلعة إنجليزية ، فأراد حبيب ثابت أن يرد إليها أرديتها الفينيقية ، وهكذا أراد أن يعارض بملحمته قصيدة شكسبير ، وليدلل على هذه المعارضة فقد أورد في كتابه ترجمة للجزء الأول من قصيدة شكسبير ، حتى يدرك القارىء أنه لم يوافق شكسبير فيما نظم ، بل خالفه وعارضه في ملحمته ، وعلى كل حال ، فإنه لا يخفى على القارىء أن المعارضة ضرب من ضروب التأثر مهما أنكر المؤلف ذلك .

وشاهد آخر على تأثر حبيب ثابت بقصيدة شكسبير ، يبدو في تأثر الشاعر اللبناني بما أورده شكسبير على لسان فينوس في مواضع كثيرة ، وهي تشجع أدونيس على ممارسة الهوى والعشق وحجتها في ذلك بأن العشق سنة الحياة ، وأن كل مظاهر الحياة ، وكل الكائنات تتبادل الحب فيما بينها ، وقد تحدث حبيب ثابت عن تفشي الحب بين جميع الكائنات وبين مظاهر الطبيعة ، فقال :

نشر الحبُ طيبَه في رُبى الأرضِ   وبين النجومِ روحاً زكيـــا
واعترَى الكونَ رعشةٌ من غرام   مطمئن فاخضَرَّ شيئاً فشيئـــا
فعيونُ المـــاءِ تجـــري حنينـــاً   والسواقِي تسيلُ حبّاً رضيّا
وزهورُ الرياضِ أسكرها النورُ صباحـــاً ، والهينمـــاتُ ، عشيّـــا
والطيورُ الخضراءُ أطلقها الوجد   فغنت لحناً مذيبـــاً شجيّـــا
والنسيمُ الولهانُ داعبَهُ الجـــوُّ   نديـــاً فهبَّ رطْبـــاً نديّـــا

كل حيٍ أحبَّ ، كلُّ جمادٍ هزّهُ الوجدُ بيّناً وخفيّا [1]

ومن شواهد تأثر حبيب ثابت بقصيدة شكسبير كذلك ، ما أشار إليه من صد أدونيس وتمنعه واستبداده في حبه ، فعلى الرغم من أن الحب — كما جاء في الملحمة — قد وقع بين أدونيس وعشتروت منذ أول لقاء في الليلة الراقصة ، ولم يحدث بينهما أي صد وتمنع وهجران ، بل أحب كل منهما الآخر ، وكان يتمنى لقاءه لولا تدخل الحاقدين وحسد الحاسدين . أي أن الحب كان متساوياً لدى الطرفين ، ولم يكن هناك عاشق ومتمنع ، ومع هذا تحدث الشاعر اللبناني عن الصد بتأثير مما جاء في قصيدة شكسبير ، وبما ورد في الأسطورة لدى أوفيد ، ومما قاله حبيب ثابت عن الصد ، البيت التالي الذي قالته عشتروت وهي تتذكر أدونيس بعد أن طردتهما الآلهة من هياكل بعلبك ، فذهبت هي إلى اليمونة ، وذهب هو إلى جوار نهر إبراهيم :

وحبُّكَ في وجنتي مزهرٌ وصدُّكَ في وحشتي مورقُ [2]

وفي نهاية الملحمة قال الشاعر مشيراً إلى استبداد أدونيس في عشقه ، وهذا ما لم يحدث في الملحمة :

جمعَ الموتُ ربّةً تتناهى في هواها وعاشقاً مستبداً [3]

ولا يخفى على القارىء أن ما أورده حبيب ثابت من حديث عن الشقائق وصلتها بأدونيس ، ومن حديث عن صيد الخنزير وما نتج عنه من فتك بأدونيس ، يعد من باب تأثر الملحمة بما جاء في قصيدة شكسبير وبما أخذه شكسبير عن الأساطير القديمة وبخاصة أسطورة أوفيد ، وبناء على ما تقدم

(١) الملحمة ، ص : ٥٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص : ٥٢ .
(٣) نفس المرجع ، ص : ٧٤ .

فإن الشاعر اللبناني ، قد تأثر – وإن كان تأثراً محدوداً – بقصيدة شكسبير . أما مظاهر الاختلاف والأصالة لديه فهي أعظم بكثير من مظاهر هـذا الاتفاق .

مظاهر الأصالة في ملحمة عشتروت وأدونيس :

سبق أن ذكرت في بداية التعليق على هذه الملحمة ، أن ما قاله الشاعر من أن الملحمة قد جاءت عن خيال خاص ، قول صحيح في معظمه ، وذلك لأن تأثره بقصيدة شكسبير – كما وضحت – يعتبر محدوداً بالنظر إلى ما فعله كل من أندريه أوبيه في مسرحيته الفرنسية ، وايرج ميرزا في منظومته الفارسية ، والسبب في ذلك – كما أعتقـد – أن الشاعر اللبناني أراد أن يرجع بالأسطورة إلى وطنها الأصلي كما يقول اللبنانيون [1] ، وعلى هذا فقد حرص حبيب ثابت على أن يخلع عليها أردية لبنانية . وينفض عنها كل أرديةيونانية أو رومانية،وأول ما يلفت النظر في هذا الصدد إطلاقه الاسم الفينيقي « عشتروت » على ربة العشق والدلال ، وتفضيله هذا الاسم على الاسم اللاتيني (فينوس) ، والاسم العربي (الزهرة) .

والمتصفح للملحمة يدرك بلا عناء أو مشقة أنها جاءت عن خيال خاص فأحداث الأسطورة في هذه الملحمة جد مختلفة عما وجدناه عند أوفيـد أو شكسبير ، فبداية التعارف بين عشتروت وأدونيس مختلفة ونهاية البطلين مختلفة كذلك ، إلى جانب العديد من مظاهر الاختلاف بـين أحداث الأسطورة في الملحمة عما قرأناه في غيرها من الأعمال الأدبية التي عُنيت بهذه الأسطورة ، والتي يستطيع القارىء إدراكها بسهولة ويسر ، وذلك برجوعه إلى الملحمة وما سبقها من إنتاج أدبي يعالج الأسطورة ، أو حتى

---

(١) دائرة المعارف اللبنانية ، مادة أدونيس .

إذا اكتفى بالرجوع إلى ما جاء في هذا الكتاب من تلخيص لهذه الأعمال .

وأهم مظهر من مظاهر الاختلاف والأصالة في الملحمة ، ما بذله الشاعر اللبناني من جهود في سبيل **العودة بالأسطورة إلى موطنها الأصلي لبنان** ، حيث جعل ميدان الأسطورة الأرض اللبنانية ، فربط بين أحداثها وبين هياكل بعلبك ، ونهر أدونيس (إبراهيم) وبحيرة اليمونة ، ووادي أفقا ، بل وكل لبنان بعد ذلك ، ولم يكن حديثه عن هذه الأماكن قاصراً على ربطها بالأسطورة ، بل كان حديث عاشق لوطنه ، يتلمس الفرصة للاشادة به ، والتغني بجمال آثاره وطبيعته وأنهاره وروحه ، حتى أن وصفه لهذه الأماكن قد أخذ منه مجهوداً يفوق ما بذله في الحديث عن الأسطورة ذاتها وللدلالة على هذا الاتجاه لدى الشاعر حبيب ثابت نورد بعض الأبيات التي وصف فيها بحيرة اليمونة ، لنرى مدى عشقه لها وتغنيه بجمالها :

بحيرةٌ نامت عيونُ السمـــا وأشرقتْ فــوقَ محياهـــا
ومدّت الأنجمُ من بُرجها شفاهها لاثمــةً فاهـــا
وأنشد الليل أناشيــده للماء رفافاً بنجواها
أنوارها قاذفةً أكرةً بيضاء في الشطين مرماهـــا

★ ★ ★

بحيرة كلُّ أمـــانيّ الصبـــا تمشي على زرقاءِ مسراهـــا
كأن أحلامَ الهوىَ صفحةٌ خرســـاءُ بالمـــاءِ كتبناهـــا
ودمعُ ماضينا على خدهـــا باللؤلؤِ المنثورِ غطّاهـــا
وكل أسرار الهوى في الدجى في مائها الصـــافي دفناهـــا

★ ★ ★

بحيرةٌ فاضتْ بآلامنا بدمعنا الجـــاري بمجراهـــا
ونوّرت في الشطِ أزهارُها وصُوِحت لـمّا قطفناهـــا

يرتلُ الجدولُ في جنبهـا أنشودةً لم نـدرِ معناهـا
تساقطت فيهـا نجومُ الهوى بالجفنِ .. بالعينِ .. لمحناها[1]

وحديث العاشق لوطنه ، المتغني بجماله ، يبرز أيضاً أثناء مناجاة الشاعر لنهر أدونيس (إبراهيم) ، ومما قاله في هذه المناجاة :

يا نهرُ أنت خواطرُ الشعـراءِ تنسابُ مثل الماءِ فوق المـاءِ
إني جلستُ إلى مياهك ساعـةً والبدرُ يغمزُ غمزةَ الإيمـاء
والليل يطوي بعضَه في بعضِـه ويسير خلفَ جنازةِ الأضواءِ

* * *

يا نهرُ كلُّ خميلة تحت الدجى تهفو إليكَ برعشةٍ خضـراءِ
هي رعشةُ الزهرِ النضيرِ مبللاً بدم الدجى يهمي مع الأنداءِ
أو رعشةُ القلبِ الخفوقِ مهللاً للحبِ .. للآفاقِ .. للأرجاءِ

* * *

يا لهاثَ الكهوفِ من أضلع الأرضِ عميقاً يفيضُ فيه الثراءُ
أنتَ روحُ الترابِ ، أنتَ مجانيه ، وشريانُه ، وأنت الدماءُ
أنت للطيرِ والفراشِ شرابٌ مستطابٌ ، وللشعاعِ غـذاءُ

* * *

ملعبٍ للشموسِ لولاه ما شبـع ضياءٌ ولا تندّى ضيـاءُ
لبس الأفقُ من برودك وهجاً أزرقَ اللونِ خيطُه لألاءُ

---

(١) الملحمة ، ص ٥٣ — ٥٥ ، وتقع أنشودة « على البحيرة » في ٢٢ بيتاً .

ألَّهتك الشعوبُ في كلِّ أرض ، وتغنت بجودك الأنبياءُ
وأقيمت على ضفافِكَ للحب طقوسٌ وأُلِّهتْ أهواءُ [1]

وبمثل هذا الحب تحدث كذلك عن وادي أفقا ، وبمثل هذا العشق صوَّر جمال هذا الوادي ، ومما نظمه في التغني بحسن هذا الوادي وتفرده في الجمال ، هذه الأبيات :

وادٍ بأجفـانِ الربيعِ معلـقٌ	هو أخضرٌ آناً ، وآناً أزرقُ
نزلتْ به حورُ الجنانِ ، فدوحه	ريّانُ ملتفُ الخمائلِ مورقُ
يطفو الغمامُ على نديّ عيونِه	فإذا العيون تفجــرٌ وتدفــقُ
تتزحلق الأحلامُ فوق سفوحه	وتراه من صدر الربَى يتزحلق

* * *

وادٍ يطل على السماءِ فتنحـني بيضُ النجومِ على رباه وتشرقِ [2]

ولم تقف إشادة الشاعر عند الأماكن التي ارتبطت بالأسطورة ، بل تعدها إلى الإشادة بكل لبنان ، وما يموج فيه من أنوار وضياء وجمال وبهاء وكأنه درة الشرق البراقة ، فقد قال :

وعلى جبينِ الشرق كف السما	ألقت على الأطلالِ ألوانا
وفجرت أبحارُ أنوارِهـا	وأغـرقت في النورِ لبنانـا [3]

كما أشار إلى أن لبنان بمنزلة القلب من الشرق كله ، فإذا حل بلبنان مكروه أقام الشرق كله مأتماً ، وداهمته الأحزان والهموم ، وقد أشار إلى

---

(١) الملحمة ، ص ٦٣ — ٦٥ ، وتقع أنشودة « نهر أدونيس » في ٣٢ بيتاً .
(٢) الملحمة ، ص : ٧٢ .
(٣) الملحمة ، ص : ٦٩ .

هذا المعنى وهو يعلق على مصرع أدونيس . وأن لبنان كله قد آلمته الفاجعة فسارع الشرق بمشاركة لبنان أحزانه ومآتمه :

ماد لبنان من روابيه في السفح لقصوى سهوله والبطاح
وعلى الشرقِ مأتمٌ مترعُ الدمع وفيه رجعُ البكا والصياح (١)

وهكذا كانت الملحمة ميداناً رحباً يُجري فيه الشاعر حبيب ثابت جواد عشقه للبنان ، وساحات يقف وسطها كي يناجي الحبيب لبنان ، أرضه وسماءه وأنهاره وآثاره. إن كل ما فيه عالق بقلبه، جدير بحبه ومناجاته وهذه المناجاة هي التي تميز أكثر من غيرها ملحمة عشتروت وأدونيس عن قصيدة شكسبير ، وعن أي عمل أدبي آخر تناول هذه الأسطورة شعراً أو نثراً في أي لغة من لغات العالم .

وظاهرة أخرى تنفرد بها الملحمة العربية « عشتروت وأدونيس » وهي **تأثر الشاعر حبيب ثابت على الرغم من فينيقية الاسطورة بالبيئة العربية،** وما كان يحدث فيها من إهدار دم المحب ، كما حدث في قصة مجنون ليلى ، وإذا كان المجنون قد استبيح دمه فلأنه شبب بليلى، وأفشى سر العلاقة بينهما، مما جعل سيرة المحبوبة مضغة في الأفواه ، وحديثاً تلوكه الألسنة بالسوء . أما في هذه الملحمة فلم يحدث إفشاء لأي سر ، وكيف يكون الحب سراً ومحرماً في بيئة فينيقية تستبيح الموبقات، وتقام فيها الهياكل لممارسة الرذيلة؟ ولم يكتف الشاعر بالإشارة إلى استباحة دم العاشق فقط ، بل أشار كذلك إلى جنوح العاشق أدونيس إلى القفار والوديان — تأثراً منه بقصة المجنون — كي يخالط الضواري من الحيوانات. ومما قاله في هذا المعنى ، هذه الأبيات:

حسدوه فهام بين القفار بين وحوشِ الفلا وبين الضواري

---

(١) الملحمة ، ص : ٧٠ .

إن نابَ الوحوشِ ألطف حداً   من لسـان المراوغ الغـدّارِ
طاردوه ، وطاردوا عشتروتـاً   واستحلوا شرب الدماءِ الغِزارِ
واستباحوا دماهما واستعانـوا   بالإلهـات والنساء الحـواري
فإذا الحب غارقٌ بدمـاء   ودموعٌ من الفراقِ جواري [1]

كما تأثر بالبيئة العربية في حديثه عن الرعاة والأغنام ؛ وأن الراعي يلجأ إلى المزمار كي يشجع أغنامه على الرعي ، وهي مستغرقة في سماع الألحان العذاب التي تنطلق من المزمار :

سهل من الأنوارِ أغنامـهُ   تُصغِي إلى مزمـارِ راعيهـا
ترعَى الأماني الزهرَ في سهلها   وترتعي ليلاً بواديهـا [2]

* * *

بعد هذه الدراسة الموجزة ، نستطيع الحكم بأن الشاعر حبيب ثابت كان محقاً في قوله بأنه نظم ملحمته عن خيال خاص وتصور غير مردود ؛ ولكنه مع هذا ، تأثر بما نظمه شكسبير من قبل ، وإن كان هذا التأثر محدوداً لأنه أراد في الحقيقة أن يناجي لبنان من خلال الملحمة ، وعلى هذا اهتم بهذه المناجاة على حساب الأسطورة ، فجاءت أحداث الأسطورة — في رأيي — أقل أهمية من هذه المناجاة !

(١) الملحمة ، ص : ٥١ .
(٢) الملحمة ، ص : ٥٧ .

الخاتمـــة

إذا كانت أسطورة « فينوس وأدونيس » تضرب جذورها في أرض الشرق . أرض الديانات والعقائد ، أرض الأساطير والخرافات ، فإنها لم تقف عند حدود الشرق ، بل تعدته إلى ربوع العالم أجمع ، وأصبحت ملكاً للبشرية كلها ، ومَنْ في العالم الآن لم يسمع عن ربة الدلال فينوس ؟

ومن الحقائق التي أثبتتها هذه الدراسة ، أن السبق في رواية هـذه الأسطورة يرجع إلى الشاعر الروماني الفذ أوفيد ، وذلك عندما أورد هذه الأسطورة في كتابه القيم أطوار الحب الذي تُرجم إلى اللغة العربية باسم « مسخ الكائنات » .

ثم بقيت الأسطورة طي النسيان طوال عدة قرون بعد ذلك ، حتى جاء الشاعر الإنجليزي الفذ وليام شكسبير ، ونفض عنها غبار الإهمال ، ورفع عن كاهلها حجب النسيان ، وأعاد إليها الحياة من جديد ، فألبسها ثوباً قشيباً بعد أن بلي ذلك الثوب الذي خلعه عليها أوفيد ، فبدت الأسطورة لدى شكسبير أكثر نضجاً ، وأحسن عرضاً ، مما جعل معظـم المهتمين بالأساطير ينسون رواية أوفيد ، ولا يتذكرون إلا قصيـدة شكسبير التي أصبحت بمثابة الأصل لهذه الأسطورة ، ولم يعد هناك أديب يريد نظم هذه الأسطورة أو كتابتها إلا ورجع لقصيدة شكسبير ، واتخذها النموذج الذي يحتذى والأصل الذي يسير على هداه ، ولعل هذا الموقف شبيه بنظرة

مؤرخي الادب إلى ابن المقفع وترجمته العربية لكليلة ودمنة ، فبعد ضياع الأصل السنسكريتي والترجمة البهلوية ، أصبح الجميع يعتبرون ترجمة ابن المقفع هي الأصل ، وعلى منوالها ينسجون .

وبناءً على هذا وجدنا أن المسرحية الفرنسية « فينوس وأدونيس » والتي كتبها أندريه أوبيه ، ليست إلا مسرحة لقصيدة شكسبير ، وكذلك منظومة «زهره ومنوچهر» الفارسية قد جاءت وثيقة الصلة بقصيدة شكسبير ، كما أن « ملحمة عشتروت وأدونيس » لم تخل من التأثر بقصيدة شكسبير ، على الرغم من عدم تصريح الشاعر حبيب ثابت بذلك .

ولكن على الرغم من تأثر الجميع بقصيدة شكسبير ، إلا أن كل أديب ممن تابعوا شكسبير ، قد خلع على الأسطورة خلعة من ذاته ومن مجتمعه ، فالكاتب المسرحي أندريه قد ألبس كلاً من أدونيس وفينوس ملابس الممثلين على المسرح ، وأشرك معهما ممثلين ثانويين ، حتى يخلق جواً من الحركة ، وليدب النشاط على المسرح ، ولا يكون الحوار سجالاً بين اثنين فقط ، مما يفقد المسرحية عنصر التشويق ، كما خلع الشاعر الفارسي ايرج ميرزا على الأسطورة خلعة فارسية مما جعله يغير اسمي البطلين إلى « زهره ومنوچهر » ، كما جعلهما يرتديان حلتين إيرانيتين ، ويتصرفان تصرف الإيرانيين . ومثله فعل حبيب ثابت ، حيث أعاد للبطلين جنسيتهما الفينيقية ، واتخذ من أرض لبنان مسرحاً للأسطورة .

وبعد ... فإنني لا أستطيع الادعاء بأنني قد أحطت بكل الأعمال الأدبية التي عالجت هذه الأسطورة في لغات العالم المختلفة ، فربما وجدت محاولات أخرى لنظم الأسطورة وكتابتها في الألمانية أو الإيطالية أو الروسية أو غيرها من لغات العالم العديدة ، ولهذا فإنني آمل أن يهتم العديد من الدارسين

بهذه الأسطورة ، حتى تحظى بدراسة أعمق وأشمل ، وبخاصة أنها لم تحظ حتى الآن بعناية تذكر في لغتنا العربية .

وكم آمل في نهاية هذه الدراسة، أن أكون قد نبهت الدارسين للاهتمام بهذه الأسطورة، الاهتمام الذي يدفعهم للقيام بمزيد من الدرس والبحث حول هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التي اهتم بمعالجتها أدباء من الشرق والغرب على حد سواء .



١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩